الأخلاق والواجبات

للاستاذ

الشيخ عبد القادر «المغربي»

(الطبعة الثانية)

القاهرة

١٣٤٧

المطبعة السلفية - ومكتبتها
لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يامن خفيتَ عن الأبصار بقديم ذاتك ، وتجلّيت للبصائر بجليل صفاتك * كما نحمدك على أن أقمت لنا من دلائل توحيدك حُجَجاً بيّنات ، ونصبت لنا من باهر تدبيرك في خلقك آيات محكمات * ونصلّي ونسلم على سيدنا محمد القائل : « إنما بُعثتُ لأُتمّمَ مكارمَ الأخلاق » ، وعلى آله وأصحابه الذين أُوتوا من مَعادن الشيم ومناقب الكرم أنْفَس الأعْلاق

أما بعد فإن مَنْ نظر في الديانة الاسلامية ، وتأمل في مقاصدها وأسرار تعاليمها ، وجدها ترمي الى غرضٍ واحد تقريباً : هو توفير الكمال النفسي للانسان ، وتيسير أسباب السعادتين ـ الدنيوية والأخروية ـ عليه ، وتمهيد طُرُق التكامل الاجتماعي والسياسي بين يديه . وقد قال الحكماء وعلماء الاجتماع : إن اعتدال الأخلاق في الانسان قد يكون وحده السبب في سعادته ، وتحسين حال اجتماعه : فالانسان بأخلاقه الفاضلة ، وآدابه الرفيعة ، يمكنه أن يعيش في هذه الحياة الدنيا مطمئناً ، هادىء النفس ، حَسَن التصرف في الأمور . فيكون سعيداً ، مهما نَقَصَهُ من مطالب الحياة الاخرى : كالمال والنَّشب ، والبنين والرُتب . واذا ساءت أخلاقه ، وارتكست طباعه ، عاش تعِساً ، قلق النفس ، منغص العيش ، مهما أوتي من الحطام ، ورُزق من مظاهر الجاه ورفعة المقام . وما قاله الفلاسفة والحكماء قرّره الاسلام في أول ما قرّر من تعاليمه السامية ، وأصوله العامة . ويكفي شاهداً على ذلك الحديث الذي خرّجه البخاري في كتاب الآداب والبيهقي في الشُعب وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما بُعثتُ

لأتمم مكارم الأخلاق » فقد جعل مكارمَ الأخلاق ، ومحاسن الخصال ، الغاية من بعثته الشريفة . وقد أقسم تعالى في كتابه على أن لا سعادة الا بحسن الأخلاق مذ قال : « والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لفي خُسْر : إلاَّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ، وتَواصَوْا بالحقِّ وتَواصَوْا بالصَّبْر » أقسم تعالى على أن كل فرد من أفراد البشر في خسار وضلال . ثم استثنى منهم من اتصف بهذه الأخلاق العالية : (١) الايمان والثقة به تعالى ، (٢) العمل الصالح ، (٣) التعاون على نُصرة الحق ، (٤) التعاون على الاستمساك بعروة الصبر . ولعمري، إن من اتّصف بمثل هذه الأخلاق الفاضلة كان جديراً بالسعادة والهناء ، حقيقاً بأن لا يكون ذا خسارٍ وشقاء

وهنا أمر يحسن التفطّن له : ذلك ان هذه السورة على قِصَرِها تضمَّنت أربعة أمور هي أمّهات الأخلاق الفاضلة . فإذا لم يكن المراد من (الأعمال الصالحة) الا ممارسة الطاعات والعبادات البدنية كانت هذه الطاعات بمثابة رُبع الدين أو ربع الوسائل المؤدّية الى السعادة ، وتكون البقية وهي (الايمان) و(الحق) و (الصبر) ثلاثة الأرباع الأخرى

ومن مواضع العجب أن المكتبة الاسلامية ـ على وفرة ما حوته من الكتب والأسفار المؤلفة في الفنون المختلفة ـ لم يكن فيها من المؤلفات المترجمة للأخلاق ، الحاضة على الآداب ، المرغِّبة في الفضائل ، بمقدار الربع فضلاً عن أن يكون بمقدار ثلاثة الأرباع باعتبار النسبة الملاحظة في السورة المذكورة . واذا تساءلنا عن كُتُب الأخلاق المتداولة بيننا اليوم لم نكد نَعدُّ منها سوى كتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه . و(وأدب الدنيا والدين) للماوردي و (الجزء الرابع) من احياء الإمام الغزالي . وليس لك أن تحتجَّ عليَّ بكتب السادة الصوفية التى أناروا فيها السبيل الى أعماق قلب الانسان ومطامير نفسه ، فعرفوا أسرارها . و بَلوا

أخبارها . لأني أقول : إن هذه الكتب إنما ألفت بلسان اصطلاحي . لا يفهمه إلا طبقة خاصة من الأمة ، وهم السادة الصوفية رضي الله عنهم . بل ان الكتب الثلاثة التي ذكرناها هي نفسها لا يكاد يفهمها ، أو يستفيد منها ، الا أفراد قلائل أيضاً . وكتاب (ابن مسكويه) احتذى فيه مثال الحكماء والفلاسفة . وسلك طرائقهم في البيان والشرح . وما لنا ولما قاله أولئك الحكماء الأقدمون ، وهذا قرءاننا وحديث نبينا صلى الله عليه وسلم تضمنا من روائع الحكم وجوامع الكلم في الفضائل والآداب ، والحث على مكارم الأخلاق ، ما يبذُّ القائلين ، ويفي بحاجة المحتاجين . وكل ما نريد اليوم كتبٌ أخلاقيةٌ يستعين بها المعلمون والآباء وجميع المتصدّين لإرشاد العامة ، ولتربية الطلاب والناشئين . فان الكتب التي أُلّفت لهذا الغرض لم نكد نراها : فهي إما قديمة مخبوءة في مكاتب مصر والاستانة وعواصم أوروبا ، وإما حديثة غير وافية بغرض أمتنا العربية التي شعرت بمبلغ الحاجة الى تهذيب أخلاق ناشئتها على مبدأٍ دينيٍّ قويم مراعى فيه تغيّرات الأزمان ، وتطوّرات أحوال العمران

شافهني بهذا كلّه ووصفَ لي مبلغ الحاجة اليه (**السيد ساطع الحصري**) وزير المعارف العامة في حكومة (**سورية**) سابقاً . ورغب إليّ أن أضع كتاباً مدرسياً في تهذيب أخلاق الناشئة الاسلامية ، يجمع بين حاجة المربّي والمعلّم : فيستعينان به على ماهم بصدده من تربية الأحداث ، وتكوين أخلاقهم ، وتقويم طباعهم – وفائدةِ المتعلّم : فيجد فيه كلماتٍ جامعة ، وأقوالا في الحِكَم والآداب رائعة . تكون عوناً له – إذا راعاها – على تهذيب نفسه وتقوية مَلَكاته . وأنْ أقتصِرَ فيه – من المنقول والمأثور – على اقتباس ما ورد في الكتاب السماوي ، والحديث النبوي . اللهم الا ما جاء عَرَضاً من أقوال الحكماء : مما يلتحم معناه

مع معنى الآية والحديث . وأن أفرغ ذلك كله في أسلوب سهل المأخذ قريب التناول . وأعلق عليه ـ من الشرح والتفسير ـ ما تستدعيه الحاجة ، ويتطلبه ذهن المطالع

هذا ما أشارَ به الفاضل المشار اليه عليَّ ، ورسم خُطَّته بين يديَّ . فحمدت فكرته . وَلَبيْتُ دعوته . وسلكت في العمل النهجَ الذي أشرَعَه ، محتذياً المثالَ الذي رَسَمه ووَضعه . وأنت ترى أنَّ مُعْظم الفضل في هـذا التأليف إنما يرجع الى حضْرته ، واذا كنتُ أستحقُ عليه تقريظاً أو ثناءً وجب أن يكون من حُصَّته .

وقد رأينا أن نقدّم بين أيدي أبواب الكتاب (مقدّمة) نأتي فيها على مباحث في القرآن والحديث : توسِعُ المطالعَ بياناً ، وتزيده رسوخاً وايمانا . والله نسأل أن يجعل عملنا مقبولاً لديه ، كما يجعل رَغَبَنا مصروفاً اليه ، واتكالنا مقصوراً عليه



المقدمة

مباحث في القرآن

﴿القرآن﴾ في اللغة العربية معناه القراءة . وفي اصطلاح الشرع اسم لما بين دفّتي المصحف من كلام الله المنزل على نبيه ﷺ

والفرقُ بين القرآن والحديث أن القرآن كلام الله ووحيه الى نبيّه صلى الله عليه وسلم المُبَلَّغ الى الأمة بطريق التواتر . ومن ثمَّ يخرج جاحده عن المِلَّة

وأما الحديث فكلام النبي صلى الله عليه وسلم المُبَلَّغ الى الامة بالطُرُق المختلفة : منها القويّ ومنها الضعيف . ولا يخرج جاحده عن المِلَّة

كيفية ترتيب آيات القرآن وسوره

كانت آيات القرآن تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم نجُوماً متفرقة بحسب الوقائع وعند سنوح المناسبات والبواعث . فكان صلى الله عليه وسلم يلقّنها الصحابة آية آية : وكلما تألَّفت سورة من تلك الآيات تميَّزت باسمها وبسملتها . وكلما أُنزلت آية جديدة أمرهم بضمها الى أخواتها ، وأرشدهم الى مكانها من السُوَر . وهكذا كانت تتألف سور القرآن ، وتنتظم آياته ، حتى تمّ وكمل في نحو عشرين سنة

حفظ القرآن وكتابته

لم تتوفر أمّة على حفظ كتابها السماوي ، كما توفر المسلمون على حفظ كتابهم : فكانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يحفظونه في الصدور ، كما يحفظونه في السطور . وكان كُتّابُه في السطور فضلاء الصحابة . منهم أمير المؤمنين سيدنا علي

وزيد بن ثابت وعامر بن فهيرة وغيرهم . ولم تكن القراطيس معروفة في عهدهم: فكانوا يكتبونه في الجلود ، وجريد النخل ، وصفيح الحجارة ، وعريض العظام

وأما حفّاظه في الصدور فكثيرون أيضا : منهم عثمان وأبيّ بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومُعاذ بن جبَل ، وأهل الصُّفّة

تعليم القرآن وتلقينه

كان قُرّاء الصحابة لحين الاستخفاء بالاسلام يترددون سرًّا على البيت الذي يُسلْم أهله ، فيعلمونهم آيات الوحي مدارسةً . ثم لمّا هاجر المسلمون الى المدينة ، وانتشر الاسلام في القبائل ، جعل القرّاء ينسلون اليهم ، فيعلّمونهم القرآن . فإذا تعلّمه بعضهم كلّفوه أن يعلم سائرهم . ثم يشخصون الى قبيلة أخرى فيعلّمون أهلها . وهكذا كان شأن القُرّاء بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وانتشار الاسلام . وكان عمر رضى الله عنه يرسل الى القبائل قارئاً فيستعرضهم قبيلةً قبيلة ، ثم يعاقب كلَّ من لم يحفظ شيئاً من القرآن . وكان أبو الدرداء اذا صلى الصبح في جامع بني أميّة بدمشق اجتمع الناسُ للقراءة عليه : فكان يصفّهم عشرةً عشرة ، ويجعل على كل عشرة عريفا ، ويقف هو في المحراب يرمُقهم يَمْنَةً ويَسْرَةً . فاذا غلط أحد المتعلمين رجع الى عريفه ، فاذا غلط عريفه رجع الى أبي الدرداء فصحّح له غلطه . وقد أحصى أبو الدرداء يوماً تلامذته هؤلاء فبلغوا أكثر من ألفٍ وستمائة

الجمع الاول للقرآن

مات صلى الله عليه وسلم والقرآن محفوظٌ في صدور الرجال ، أو مكتوبٌ في الجلود والصفائح . فلما تفرّق الصحابة في البلاد للكسب والجهاد خيف على القرآن أن يضيع : فقد قتل من قُرّاء الصحابة في حرب اليمامة وحدها نحو

سبعمائة قارىء . فاهتم المسلمون للأمر ، وراجع عمرُ أبا بكر بلزوم جمعه . فتوقف أولاً ثم شرح الله صدره له فجمع تلك الرقوق والصِفاح المتفرّقة عند الصحابة وحَفظها في صِوانٍ واحد . وبقيتْ عنده حتى توفاه الله . فاستلمها عمر وبقيت عنده حتى تَوُفي أيضا . فحفظتها ابنته السيدة حفصة

الجمع الثانى للقرآن

بهذا الشكل المحفوظ بين أيدينا اليوم

لما تولّى عثمان الخلافة ، وانفسحت أطراف البلاد الاسلامية ،وتفرّق المسلمون في جنبات الأرض ، بلغ عثمانَ أن قُرّاء القرآن في الأمصار يختلفون في قراءة بعض كلماته ، وكان يتعصّب لكل واحد منهم فريق . وأوّل من أنذر عثمانَ بذلك حُذيفةُ بن اليمان بعد عودته من أرمينية . فخاف عثمان أن يتفرّق المسلمون من جرّاء ذلك شيعاً في الدين ، فطلب الصُحُفَ المحفوظة لدى حفصة . وجمع كبار الصحابة وجعلوا يستعرضونها آيةً آية ، ويتثبّتون من لفظها ، وكيفية النطق بها ، ومكانها من أخواتها . وموضعها من سُورتها . حتى تمَّ لهم ما أرادوا ، وكتبوا من هذا المصحف أربع نسخ . أرسلها عثمان الى مكة والكوفة والبصرة والشام . وكان ذلك سنة (٣٠ هـ)

العناية بالقرآن فى الصدر الاول

وأخذ المسلمون منذ ذلك العهد ينسخون مصاحفهم عن تلك المصاحف الأربعة . ويتنافسون في النُسَخ المضبوطة . وقد كتبَ عبد العزيز بن مروان ـ أميرُ مصر ـ مصحفاً بالَغ في ضبطه ، وأعلن أن من وجد فيه خَطَأً كان له فرَسٌ وثلاثون ديناراً . فوجد فيه أحد القرّاء كلمة (نَجْعَة) مكان (نَعْجَة) فنال الجائزة

أما استظهار السلف للقرآن ، وحرصهم على استماع تلاوته ، فحدث عنه ولا حرج : قال الامام الشافعي « رأيت سفيان بن عُيَيْنة قائماً على باب كتّاب . فقلت له : ماتصنع ههنا ؟! قال : أُحبُّ أن أسمع كلام ربي من فم هذا الغلام »

الاختلاف في القراآت منذ الصدر الاول

كان للعرب قبل الاسلام لغات متعددة ، أي لهجات تختلف باختلاف قبائلهم ومواطنهم ، وكانت لغة قريش سيدة لغاتهم . فلما أُنزل القرآن أُنزل بهذه اللغة . ولاسيما أنها لغته صلى الله عليه وسلم . غير أن تكليف قبائل العرب أن يقرأوا قرآناً بغير لغاتهم أمرٌ من الصعوبة بمكان . كما إذا كلفنا المصريّ مثلاً أن يتكلم بلهجة الشاميّ وهو لم ينشأ في بلاد الشام . ومن ثم أنزل الله القرآن على نبيّه بلغته القرشية ، ثم بلغات القبائل العربية التى هى أكثر شيوعا في الجزيرة لذاك العهد - وكانت سبعا - فكان صلى الله عليه وسلم والصحابة المختلفو القبائل يقرأون القرآن من حيث يسهُل عليهم ، وباللغة التى تخفّ على ألسنتهم . وفي هذا من اللطف والتيسير الالهي مافيه ، وبهذا المعنى فسر بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم « إن القرآن أُنزل على سبعةِ أحرف : فاقرأوا ماتيسّر منه »

اقتصار عثمان في المصحف الذى جمعه

على لغة قريش أو حَرْفِ قريش

لما غلبت قريش بعد ظهور الإسلام على سائر القبائل ، ودانت جزيرة العرب كلها بدينهم ، وانتشرت فيها لغتهم ، أصبحت هذه اللغة هي الغالبة ، وصارت لغةَ العلم والدين والسياسة ، وأخذ العرب ينسون لغاتهم الأصلية بالتدريج إلاّ قليلا . فرأى عثمان أنه لم تعدْ ثمة حاجة الى قراءة القرآن بغير لغة قريش ولاسيما أن القراءة باللغات المختلفة يفتح باب الجدَل في القراآت ، فيتفرّق المسلمون الى

جماعات ، كما كاد يقع بالفعل . فرأى عثمان ـ بعد استشارة كبار الصحابة ـ أنّ سدّ الذريعة ومراعاة مصلحة المسلمين تستدعيان الاقتصار من لُغات العرب على لغة قريش : فأثبتها في المصحف الذي جمعه

لماذا انزل القرآن ؟

أُنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون نوراً للبشر يهتدون به ، ويمشُون على أثره ، في استكمال مصالحهم الدنيوية ، وسعادتهم الاخروية . وقد قام بوظيفتِه هذه بالفعل : فإن العرب وسائر الأمم التى آمنت بالقرآن ارتقت وهى تعمل به الى ذرى العلم والمجد والمدنية ، وبالعكس لما أهملته وقصّرت في مراعاة تعاليمه

مراشد القرآن

أو قطابه التي يدور خطابه حولها ثلاثة هي جِماعُ كلّ شيء : (١) تصحيح الديانات (٢) تقويم الأخلاق (٣) تقرير الأحكام . وقد ذُكر في أثناء هذه المراشد أمثالٌ وقِصَص وأخبار عن الأمم الماضية تساعد على فهم تلك الامور الثلاثة ، وتُورث النفسَ فَضْلَ اقتناع بها ، وحسن إصغاء اليها

آيات القرآن المتعلقة بالاحكام قليلة جدا بالنسبة الى غيرها

إنما كان ذلك كذلك لأن هذه الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان. ومدارُ العمل فيها على مراعاة المصلحة العامة ، وما يكون أدنى الى استصلاح حالة المسلمين ، وترقية شؤون اجتماعهم . وما جاء من الأحكام القليلة في القرآن إنما ذكر ليكون نموذجا تُبنى عليه أصول ثابتة ، وقواعد مُحكمة ، يستنبط منها الائمة والمجتهدون لكل زمانٍ حكما يناسبه ، ولكل طارىء فتوى تطابقه

إعجاز القرآن

معنى إعجاز القرآن أن البشر عاجزون عن الاتيان بمثله . وقد تحقَّق هذا فعلا : فإن القرآن تحدَّى البشر منذ يوم نزوله ، فكانوا يتكلّفون معارضته ، ويحاولون منازلته فيعجزون . وهذا دليل على أن القرآن ليس مما اعتيد صدور مثله عن البشر . وما أحسن ماشهد له به عدوُّه الوليد بن المغيرة أحد سادات المشركين منذ قال : « والله لقد سمعتُ آنفاً من محمدٍ كلاماً : ماهو من كلام الانس ، ولا من كلام الجنّ . إن له لَحلاوة ، وإن عليه لطُلاوة . وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق [1] . وإنه يعلو ولا يُعْلَى »

محكم القرآن ومتشابهه

مُحْكَمُه آياتهُ التي لايشتبه المراد بها على سامعها ، لوضوح معناها . أما متشابهه فآياته التي يشتبه المراد بها على السامع . فيقف وقفة المتردّد المتسائل . ثم ينقطع رجاؤه في فهم المعنى ، فيفوّض أمره الى الله . اللّهم الا أفراداً وصلوا الى درجة الرسوخ في أسرار الشريعة ، فيوفّقهم الله الى معرفة معنى المتشابه . ومثالُ المتشابه قوله تعالى : « الرحمنُ على العرش استوَى » فإن حقيقة الاستواء غير مرادة قطعاً ، فله إذاً معنى مجهول . قد يهتدي اليه ذو الفكر النيّر، والقلب العقول

تفسير القرآن وتأويله

التفسير أن يغمض معنى الآية على بعض السامعين حتى إذا شَرَحْتَ له ألفاظها لغةً ونحواً وبلاغةً فهمه فهماً يطمئن اليه قلبه . أما التأويلُ فهو أن يكون للآية عدة معان محتملة : فمها ذكرتَ للسامع معنىً ثم معنىً وقف وقفة المتردّد

---

(١) ويروى لمورق اى ذو ورق او كثير الورق . والمغدق الكثير الماء والخصب . وهما في صفة القرآن كناية عن كثرة فائدته ونفعه وخيره

في اختيار أقربها الى نفسه . ومن ثمّ كان التأويل أكثر مايُستعمل في جانب المتشابهات ، والتفسير في جانب المحكمات

قلة المؤول والمتشابه وكثرتهما في القرآن

الآيات المؤولة والمتشابهة كانت قليلة جداً في عهد النبوة وفي زمن السَلَف وقت أن كانت السلائق صحيحة ، والألسُن فصيحة . فلم يكونوا يحتاجون الاّ أن يقرأوا فيفهموا . اللهم الا آيات معدودة هي التي سمّاها الوحي متشابهات . ثم كلما كان يتقدّمُ العهد ، وتفسدُ ملَكة اللغة العربية بما يمازجها من الرطانة الأعجمية كانت الآيات المتشابهة والمؤولة تكثر في القرآن وتتزاحم على سامعيه . فمعظمَ هذه الآيات التي نعدّها اليوم من المتشابه المحتاج الى تأويل ليس هو منه في شيء . وانما ملَكات السامعين ضعفت عن فهم معناه ، واستشفاف مغزاه . فالذنبُ إذن على اولئك المستشكلين في الآيات لاعليها ، والقصور إنما ينبغي أن يُنْسَبَ اليهم لا اليها :

(والنجم تستصغر الأبصارُ رؤيته والذنب للطَرف لاللنجم في الصغر)

النسخ والمنسوخ في القرآن

الآيات المنسوخة في القرآن هي أيضا قليلة . بل ذهب بعض حذاق المفسرين الى إنكار وجودها فيه بالمرّة وأشهرهم في ذلك المفسر الكبير أبو مسلم الأصفهاني . وغلَا بعضهم فكاد يجعل معظم آياته منسوخا . والمنسوخاتُ آيات تضمّنت أحكاماً عمليّة خوطب بها المكلفون لأول نزولها خطاباً موقّتاً غير مؤبّد . ومن هذا القبيل الآيات التي حُض بها المخاطبون على الصبر وتحمل الأذى من العدوّ عند فقد العُدّة ، والعجزْ عن الدفاع . فانها منسوخة بالآيات التي تحضهم على المقاومة ، وحماية الحوزة بعد القوة ، وتوفّر العَتاد . والنَسْخُ في مثل هذا ضروريّ

الوقوع . بل هو أمرٌ طبيعي لامعنى لإنكاره . ولايلزم منه البداء على الله (أي الانتباه بعد الذهول) كما يقول منكر والنسخ : لأنه تعالى لما أمرنا بالخطاب الأول كان عالماً أن فيه الخيرَ والصلاح لنا إلى وقتٍ كذا . وإذ ذاك يكون الخير والصلاح في غير ما أمرنا به . فيخاطبنا بغيره الأنفع والأصلح لنا. فالنسخ يقع في مثل هذا من الأوامر والنواهي المتعلقة بالأحكام المدنيَّة . والتبدُّل والتغيُّر إنما هو بالنسبة الينا ، والى علمنا الحادث، لاإلى علم الله القديم . أما غيرُ ذلك من أمر العقائد والإخبار عن شؤون الغيب والآخرة والأمم الماضية ، فلا يمكن أن يقعَ فيه نسخ اذ يلزم منه الجهل أو الكذب في جانب الألوهة وهو محال

علوم القرآن

هي كل مايتكفّل ببيان شأنٍ من شؤونه : من تفسير آياته وتأويلها ، وبيان مقاصدها ، وأسباب نزولها ، وناسخها ومنسوخها ، وتناسبها مع ماقبلها وما بعدها ، وأساليب الخطاب بها ، وأنواع القراآت فيها ، وكيفية رسم كلماتها ، وغير ذلك . وأشهر المؤلفات في علوم القرآن وأغزرها مادة كتاب الإتقان للإمام السيوطي

كتابة التفسير على القرآن

الأصلُ الذي يرجع اليه المفسّر لآيات القرآن شيئان :

(الأول) ماورد من الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة في تفسيرها :

(الثاني) قواعد اللغة العربية وأساليب التخاطب المعهودة عند أهل اللسان .

ولما كان القرآن مُنزلاً بلغة العرب المخاطبين به حين نزوله ، وعلى مناحي كلامهم . وأساليب خطابهم ، كانوا كلهم أو جُلّهم يفهمونه ، ويعلمون معاني ألفاظه

مفردةً أو مركبة ، واذا غاب عنهم شيء من ذلك رجعوا في فهمه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكونوا في حاجة الى كتابة تعليق أو تفسير على الآيات المكتوبة والمحفوظة لديهم . بل كانوا منهيّينَ عن ذلك خشيةَ أن يندسَّ من كلمات التفسير شيء في تضاعيف الآيات ، فيُظَنّ أنه منها . وهذا هو السبب أيضاً في نهي النبي لهم عن أن يكتبوا أحاديثه لئلاّ تُحفظ و تُتداول مع آيات القرآن . فتشتبه به على طول الزمان . ثم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بقي التابعون يتأثّمون من تعليق تفسيرٍ على القرآن ، ويعدّونه أمراً عظيما . حتى قال سعيد بن جبير رضي الله عنه ـ وقد سأله رجل أن يكتب له تفسيراً ـ « لأنْ يسقُط شِقّي أحبُّ اليّ من ذلك » وهكذا انقضى القرن الأول والمسلمون ليس لديهم كتاب يدرسونه سوى القرآن ، كما كان شأنهم في عهد النبوة . وكانوا يتداولون بينهم تفسيرَ آياته تداولا شفوياً بالرواية والتلقين ، من دون تعليقٍ ولا تدوين . وظلوا كذلك حتى استبحر العمران الاسلامي . وتعدّدت أمصاره ، وتفرّق علماؤه في البلاد ، فلم يعد يمكن التلقّي عنهم بسهولةٍ . فاضطر المسلمون اذا ذاك الى كتابة التفسير على القرآن ، كما اضطرّوا في الوقت نفسه الى تدوين الحديث . كما سيأتي في بابه

أول من دون التفسير وطريقة السلف فيه

أول مَن دَوَّن التفسير و عَلّقه في الصُحُف مجاهد المتوفَّى سنة (١٠٤) هـ واشتهر بعد مجاهد في التفسير الواقديُّ المتوفَّى سنة (٢٠٧) هـ ثم بعده الامام ابن جرير الطبري المتوفَّى سنة (٣١٠) هـ وتفسيره طبع حديثاً في ثلاثين جزأً ضمن عشرة مجلدات ، وهو من أمتع التفاسير وأجزلها فائدة [١] . والمفسر و إن كان

---

(١) قال ابن تيمية « واما التفاسير الموجودة بايدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري : فانه يذكر مقالات السلف بالاسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن سليمان والكلبي » اهـ

يعتمد في تفسير القرآن على شيئين كما ذكرنا آنفاً . الا أن مفسري السلف أكثر ما كانوا يعتمدون في تفاسيرهم على الاول . أعني ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من الآثار في تفسير الآيات أما الاستناد على قواعد اللغة وأساليب بلاغتها فكانوا يتأبونها خشيةَ أن يكون للرأي البشري دخل في تفسير الوحي الالهي . وكانوا أحياناً يحتاجون الى معرفة أخبار الأمم الماضية ، والوقوف على ما يقوله علماء أهل الكتاب في بعض المسائل . لعلاقة ذلك بتفسير كثير من الآيات التي أُنزلت مجملة ، ولم يصحّ عن النبي ولا عن الصحابة شيء في بيانها . فكانوا إذ ذاك يرجعون الى من أسلم من أهل الكتاب . ومعظمُ هؤلاء من سكان البادية الذين يتداولون أخبار الأمم الخالية ، والأديان القديمة بالرواية والنقل . ولم يكونوا اعتادوا التحقيق والتمحيص . والمقارنة بين الروايات واستنتاج الصحيح منها . وإنما صِدْقهم وسلامةُ صدورهم رضي الله عنهم كانت تحملهم على رواية كل ما سمعوه . فكان مفسرو الصدر الأول يقبلون ذلك منهم ، ويروونه عنهم ، ويُودِعونه تفاسيرهم . وكانت الثقة متبادلةً بين الجميع ، والصدق والصلاح ومخافة الله مستوليةً على القلوب . فلم يكونوا يتعمّدون من القول كذباً وبطلاناً ، ولا يرتكبون في النقل زوراً وبُهتاناً . من أجل ذلك كلّه كانت التفاسير المنسوبة الى علماء الصدر الأول متضمنةً للغثّ والسمين ، مشتملةً على ما ترفضه البداهة أحياناً من الأساطير . وهي ما يسميه نقّاد المفسّرين « الاسرائيليات » ويريدون بها كل ما لم يصحّ عنه صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم الماضية ، ولا يلتحم مع العقل ، ولا فلسفة التاريخ ، ولا نواميس العمران البشري

حالة التفسير في القرون الوسطى

ثم لما دُوّن الحديث بالأسانيد الصحيحة عنه عليه الصلاة والسلام ، واستبحر

العمران في الإسلام ، و نقل أهلوه الى لغتهم علوم الحكمة والمنطق والفلسفة ، وألّفت كتبُ البلاغة العربية ، وتقرّرت قواعدها ، كما تقررت قواعد علم الأصول والمصطلح وآداب البحث ، وصار العلماء يرجعون في فهم الحقائق الكونية الى التمحيص والتحقيق ، والمقايسة و الاستنتاج ـ لمّا حصل كل ذلك أخذَ تفسير القرآن شكلا متيناً في أسلوبه ، صحيحاً في وضعه و ترتيبه . فلم يعد يُقبَلُ فيه الّا ماثبَتَ في السنة الصحيحة ، أو أيّدته قواعد اللغة العربية وأصول التخاطب بها عند أهل اللسان . وأَولُ من نَهَجَ هذا المنهج في التفسير الامام أبو محمد بن عطيّة [١] المغربي المتوفى سنة (٥٤٢ هـ) : فانه تّخص تفاسير المتقدّمين ، وتحرّى ماهو أقرب الى الصحة ، ووضع تفسيره الذي تداوله أهل المغرب والأندلس ، وهو المسمّى بالمحرّر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز . وتبعه في طريقته هذه في بلاد المشرق الامام أبوعبد الله القرطبي [١] المتوفى سنة (٦٧١ هـ) فانه وضع تفسيراً نحافيه هذا النحو وسمّاه (جامع أحكام القرآن) . ومن مفسّري هذه الطبقة الزمخشري [١] صاحبُ الكشّاف المتوفى سنة (٥٣٨هـ) والفخر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦) هـ والبيضاوي المتوفى سنة (٦٨٥ هـ) وتفاسيرهم مطبوعة متداولة . أمّا أبو مسلم محمد بن بحر المعتزلي الاصفهاني المتوفى سنة (٣٢٢ هـ) فان تفسيره المسمّى (جامع التأويل لمحكم التنزيل) لم يُطبع بعدُ وهو أربعة عشر مجلدا . ونُسَخة الخطيّة نادرة قليلة الوجود . فاذا عُثِرَ عليه وطبع كان خير مايُهدى الى المكتبة الاسلامية اليوم ، وذلك لنفاسته وجودة تحقيقه ،

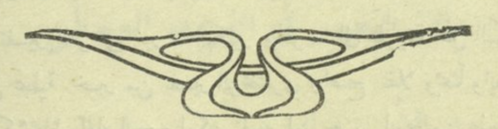
---

(١) قال ابن تيمية (واما الزمخشرى فتفسيره محشو بالبدعة وعلى طريقة المعتزلة من انكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن وانكار ان يكون الله مريدا للكائنات وخالقاً لأفعال العباد وغير ذلك من اصول المعتزلة . قال : وتفسير القرطبي خير منه بكثير واقرب الى طريقة اهل الكتاب والسنة وابعد عن البدع . قال : وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى واصح نقلا وبحثاً وابعد عن البدع وان اشتمل على بعضها بل هو خير بكثير بل لعله ارجح لكن تفسير ابن جرير اصح من هذه كلها) اه

وحسن طريقته ، كما يظهر من النموذجات التي ينقلها عنه المفسرون ولا سيما الامام الرازي . وقد تتبع بعض علماء الهند ماذكره الرازي من أقواله فجمعها في رسالة على حدتها . ونشرها بالطبع وسماها (الملتقط)

حالة التفسير في القرون المتأخرة

لا يصح أن نسميها حالة خاصة إذ أن رجالها انما يلخصون ماقاله غيرهم ويتوسعون فيها قليلاً ، مع شيء من التحقيق والمناقشة . وأشهر من فعل ذلك العلامة شهاب الدين محمود الألوسي في تفسيره الكبير المسمى (روح المعاني) وهو من رجال القرن الماضي . ثم العلامة صديق حسن خان ملك الهند في تفسيره المسمى (فتح البيان) وهو يُعدُّ من المعاصرين . وقد انتبه أخيراً طائفة من أهل الفضل الى لزوم وضع تفاسير تناسب ترقيات العصور المتأخرة ، وتلتحم مع أصول مدنيتها ، وعقول ناشئتها . فتجد هذه الطبقة من كتاب الله هادياً يهديها في طريق حياتها ، وسلّماً ترتقي به الى تحسين حالتها . وأشهرُ هؤلاء الفضلاء المفسرين الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، وفريد بك وجدي ، والمرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) وهو في اثنى عشر مجلداً ولم يُطبع بعد . ووضع كاتب هذه السطور تفسيراً على جزء تبارك سلك فيه طريقة استاذه الشيخ محمد عبده في تفسير جزء (عمّ) مع شيء من التوسع في بعض المباحث الاجتماعية واللغوية وقد تم ولم يطبع



مباحث في الحديث

(الحديث) هو في اللغة الكلام والخبر . وفي الشرع اسمٌ لما بَلَغَنا من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله . ويسمى السُنّة أيضاً

علوم الحديث

ينقسم علم الحديث أولاً الى قسمين أصليين : (١) حديث رواية ، وهو علم يُبحث فيه عن كيفية اتّصال الحديث بالرسول صلى الله عليه وسلم . من حيث أحوال رُواته ضبطاً وعدالة . ومن حيث كيفية السنَد اتّصالا وانقطاعاً . ونحو ذلك (٢) حديث دراية : وهو علم يُبحث فيه عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث والمراد منها مبنياً على قواعد اللغة العربية ، وضوابط الشريعة ، ومطابقاً لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم . وينطوي تحت كل قسم من هذين القسمين مباحث ذات موضوعٍ خاصّ . أصبح كل منها كأنه علم قائم برأسه وهي :

(١) علمُ رجال الحديث : وهو عبارة عن تاريخ حياة رواة الحديث : مع ذكر مذاهبهم التي يجوزُ معها قبولُ روايتهم أولا يجوز ، وذكرُ مستندهم ، وكيفية أخذهم الحديث

(٢) علم الجرح والتعديل : وهو عبارة عن ذكر أوصاف الراوي التي تقدح في عدالته ، وتحطُّ من قَدْر حديثه . أو هي بالعكس : تُقَرِّظه وتحقّق عدالته ، وترفع من قدر حديثه ، وبيان جواز هذا القدح والمدح في الشرع لضرورة المصلحة ، و بيان طبقات المجروحين

(٣) العلم بجواز رواية الحديث بمعناه أو لفظه ، أو الزيادة فيه والحذف منه ، والاقتصار على بعضه

(٤) العلم بكيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض قراءةً أو سماعاً أو مناولةً أو

كتابة أو إجازة

(٥) العلم بناسخ الحديث ومنسوخه . ويتبع ذلك معرفةُ الزمن الذي ورد فيه الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، وأسباب وروده . ومعرفةُ هذا من أهمّ علوم الحديث وأصعبها

(٦) العلم بحالة الحديث قوةً وضعفاً ، وتحديد درجة العمل به . وهو بهذا الاعتبار ينقسم الى ثلاثة أقسام كبرى : (١) الحديث الصحيح وهو ما اتّصل إسناده بالنبي صلى الله عليه وسلم وكانت رواته ثِقات (٢) الحديث الحسن وهو ما اتصل إسناده وكان في رواته مَنْ هو مستور الحال (٣) الحديث الضعيف وهو ما اتصل إسناده وكان في رواته من هو مطعون فيه . وكلٌّ من هذه الأقسام الثلاثة ينقسم الى عشرة أقسام لا يسعُ المقام بيانها . أما (الحديثُ الموضوع) فهو المكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز العمل به ، بل لا تجوز روايته ، إلا لاعلان أنه كذب . وقد تكفّل ببيان ما ذكرنا كله (علمُ أصول الحديث) المسمّى (مصطلح الحديث) أيضاً

كتابة الحديث وتدوينه

مرّ في بحث القرآن أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كان ينهى الصحابة رضي الله عنهم عن كتابة الحديث مخافةَ اختلاطه بالقرآن ، فأمسكوا عن ذلك . وقلّدهم التابعون في هذا الإمساك مدة القرن الأول . واقتصروا على حفظه في صدورهم . حتى انتشر القرآن بين المسلمين شرقاً وغرباً ، وحذَقَه كبارهم وصغارهم . وكتبوا منه المصاحف الكثيرة . ولم يعد يخشى اشتباه آياته بالأحاديث ، ومن جهة ثانية تفرّق حَمَلة الحديث في الاقطار البعيدة ، ومات الكثيرون منهم ولا سيما الذين توفّرت الثقة بهم لاجتماعهم بالصحابة ، وأخذهم الحديث عنهم ؛ فخيف أن يكثُر هذا النقص في الحُفّاظ والرواة . ويضيعَ الحديث جملةً اذا بقي من دون

جمعٍ أو تدوين . وهو ثاني أصول الاسلام التي يُرجع اليها في استنباط الأحكام

كل هذا جعل أمراءَ الاسلام وعلماءَه يفكّرون في جمع الأحاديث ، ومبادرة تدوينها كتابةً وتعليقاً . وكان أولُ من انتبهَ الى هذا الأمر عُمَرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه (ووفاته سنة ١٠١ هـ) فقد كتبَ الى أبي بكر عمرو بن حزم يقول : « انظر الى ما كان من حديث الرسول أو سنّته أو حديث عمر أو نحو هذا فاكتبه لي فاني خِفْتُ درسَ العلم وذهابَ العلماء »

وأوّل من وضع علم الحديث روايةً ودرايةً هو ابن شهاب الزُّهري المتوفّى سنة (١٢٤ هـ) وأول من صنّف في الحديث ابن جُرَيج المتوفى سنة (١٤٩ هـ) وعلى هذا قول صاحب الارجوزة :

(وابنُ جريجٍ أوّلُ الّذينا قد دوّنوا العلمَ لها تدوينا)

لكن أول من صنف في الحديث كتاباً مدوّناً وصلَ الينا هو الامام مالك رضي الله عنه : أشار عليه به الخليفة المنصور العباسي لما حجّ سنة (١٤٤ هـ) فقال له : « دوّن لنا في هذا العلم كتاباً : تجنَّب فيه شدائد ابن عمر ، ورُخَص ابن عباس ، وشواذّ ابن مسعود . وألزم وسَطَ الأمور وما اجتمع عليه الائمة والصحابة فنحمل الناس إن شاء الله على كتابك ، ونبثّه في الاقطار ، ونعهد اليهم أن لا يقضوا بسواه »

العناية بجمع الحديث وتصحيحه

بعد أن انتشر كتابُ ابن جريج وموطّأ مالك نشطت الهمَمُ لتلقي الحديث وحفظه وضبطه وتعليقه : فجعل أحدهم يرحل المراحل ، ويقطع الفيافي والمفاوز ، ويجوب البلاد شرقاً وغرباً من أجل حديثٍ واحد . وزادهم عنايةً وحرصاً على ذلك انتشار أحاديث باطلة وضَعَهَا أقوام لا خلاق لهم ، بقصد ترويج فكرة سياسيةٍ أو أدبية أو يريدون أن يَنْهَوْا العامّة عن منكرٍ يفعلونه فيضعوا حديثاً

فيه ليزدجروا عنه . فانبرى علماء الحديث من يومئذ لمقاومة هؤلاء المفسدين ، وجعلوا ينقدون الأحاديث ، و يبيّنون غثّها من سمينها ، و يميّزون صحيحها من فاسدها ، و يدوّنون ذلك في الكتب المعتبرة

أشهر هؤلاء العلماء وأشهر الكتب فى علم الحديث

انتهت العناية في خدمة الحديث وتمحيصه وتدوينه الى الشيخين الجليلين صاحبي الصحيحين : أبي عبد الله البخاري المتوفّى سنة (٢٥٦ ﻫ) ، ومُسلم بن الحجاج المتوفّى سنة (٢٦١ ﻫ) . فالبخاري اشترط في الحديث الذي اختاره لصحيحه شرائط تمّ له بها بضعة آلاف حديث من ستين ألف حديث كان حفِظها ، ومسلم كذلك من ثلاثمائة ألف حديث و هكذا غيرهما

ومن كُتُب الحديث المعتبرة بعد الصحيحين مسانيد أبي داو د المتوفّى سنة (٢٧٥ ﻫ) والترمذي المتوفّى سنة (٢٧٩ ﻫ) والنَّسائي المتوفّى سنة (٣٠٣ ﻫ) وابن ماجه المتوفى سنة (٢٧٣ ﻫ) وهؤلاء الأربعة لم يقتصروا في مسانيدهم على الحديث الصحيح كما فعلَ الشيخان ، بل توسّعوا في الشرائط . وأضافوا الى الصحيح ما توفَّرت فيه شروط العمل ، كالحديث الحسن . ومسانيدُهم هذه تسمّى (كتب السُنن) وهي معتبرة أشد اعتبار في الامة ، وهناك مسانيد أخرى تلحق بهذه الستّ : وهي مسند الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ ﻫ) ومسند الامام أحمد المتوفى سنة (٢٤١ ﻫ) . ومن مشاهير علماء الحديث سفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١ ﻫ) وابن عيينة المتوفى سنة (١٩٢ ﻫ) ويحيى بن معين المتوفى سنة (٢٣٣ ﻫ) وشعبة وابن المبارك والليث وغيرهم

نموذج من عناية المسلمين فى عصرهم الأول بحفظ حديث نبيهم صلى الله عليه وسلم

خرَجَ طلّاب الحديث الى سفيان بن عيينة ، فازدحموا عليه الأخذ عنه

وكأنهم ضايقوه في الزِّحام واللَّجاج فتوعَّدهم قائلا « لقد همتُ أن لا أُحدِّثكم شهراً » فانبرى له منهم شابٌّ عِراقيٌّ وقال له « يا أبا محمد ، ألِنْ جانبك ، وحسِّن قولك ، وتأسَّ بصالحي سلفِك ، وأجمِل مجالسة جلسائك : فقد أصبحتَ بقيّة الناس (يعني بهم علماء الحديث) وأميناً لله ورسوله على العلم ، والله ! إنّ الرجل ليُريد الحجّ فتتعاظمه شُقّته (أي تعظم عليه المسافة ويهوله أمرها) حتى يكاد أن يقيم ، فيكون لقاؤه إيَّاك ، وطمعه فيك ، أكثر ما يحرّكه عليه » (يعني إنهم انما يزيدُهم رغبةً في الحجّ لقاؤه وحرصهم على تلقّي الحديث عنه) فلمّا سمع ابن عيينة من الشابِّ هـذا القول خَضَع ورقّ وبكى وتمثّل بقول حارثة بن بدر :

(خَلَتْ الديارُ فسدْتُ غيرَ مُسَوَّدِ ومِنَ البلاءِ تفرُّدِي بالسُؤْدَدِ)

ثم حدّثهم بكل ما أرادوا الى أن رحلوا

علم الحديث في القرون الوسطى

ما كادت تنقضي القرون الاولى التي ذكرنا رجالها حتى انقطع تخريج الحديث واستدراكهُ على المتقدّمين ، وانصرفت العناية الى تصحيح الأُمّهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها ، والنظر في أسانيدها الى مؤلفيها ، واستظهار متون الأحاديث وحفظها . ولهم في ذلك مراتبُ ودَرَجات : فمن حَفِظ منها مائة ألف حديث متناً وإسناداً سُمّيَ (حافظاً) ، والذي يُحيط علمه بثلاثمائة ألف حديث يُسَمى (حُجّة) . وأكبرُ هؤلاء الحُفّاظ الامام النووي المتوفى سنة (٦٧٦ هـ) وابن حجر العسقلاني المتوفّى سنة (٨٥٢ هـ) في المتوسطين . والشيخ السيوطيّ المتوفّى سنة (٩١١ هـ) والشيخ المناويّ المتوفى سنة (١٠٣١ هـ) في المتأخرين

علم الحديث في العصور المتأخرة

لما تقرَّرت الأحكام الفقهية ومسائل الفروع ، ودوّنت في كُتبها المعلومة . واشتغل الناسُ بها وانكبُّوا على تحصيلها ، توصلًا الى مصالحهم الدينية والدنيوية ـ وكان معظم هـذه الأحكام والفروع إنما أُخذَ من الحديث ـ رأى علماؤنا المتأخرون أن الرجوعَ الى النظر في كتب الحديث والتعمّق في درسها قد ينبه الأذهانَ الى مباحثَ ومسائلَ لم تُدوَّن في كتُب الفروع ، ولم يقُل بها أربابُ المذاهب المشهورة ، فيَحدُثُ من جرّاءِ ذلك نزاع وجدال بين المسلمين . بل ربما أدَّى الى قيام فِرَقٍ ومذاهبَ جديدةٍ في الاسلام ، فأعلنَ هؤلاء العلماء وجوب التقليد على الامة ، وسدَّ باب البحث والنظر المؤدّي الى الاجتهاد والاستنباط ، ولا سيما أنهم يرون أن للاجتهاد شروطاً لم يعد توفرها ممكناً في واحدٍ من الناس اليوم . وسد باب الاجتهاد على هذه الصورة أدّى بالضرورة الى ترك النظر في كتب الحديث . وهجر دراسته ، وكاد ذلك يقع في القرآن نفسِهِ لولا أن القرآن يتلىُ في الصلاة وخارجها للتعبّد والتقرّب الى الله

هل يدوم هجر الحديث طويلاً ؟

كلاَّ : فان علماء هذا العصر الحريصين على مصلحة المسلمين ولَمّ شعثهم الديني والاجتماعي والأخلاقي أحسّوا في هذه الأزمنة المتأخرة بلزوم الرجوع الى القرآن وكتب الحديث . لاستنباط أحكام استدعاها تغير الزمان تغيراً لم يعرفه أئمتنا السابقون ، ولم تكن أسباب هذه الأحكام الطارئة موجودةً في زمانهم حتى يقرّروا لها أحكاماً . أو كانت موجودةً ولكن على غير الوجه الذي أصبحت عليه اليوم ، وسيكون العملُ بالكتاب والسنة على هذه الصورة بإجماع علماء الاسلام ، واتفاق آرائهم عليه ، وبذلك يعود للشريعة الاسلامية المطهرة نفوذها في بلاد المسلمين ، وتُصبح المحور الذي تدور عليه مصالحهم ومرافقهم الى يوم الدين إن شاء الله تعالى

الأخلاق والواجبات

تمهيد

نريد بالأخلاق والواجبات التى عليها مدار الكلام في هذا الكتاب مجموع الفضائل والاعمال الصالحة التى يمارسها الانسان فتجعله ذا شخصيةٍ مستقلة وكيان خاص ، وهى باعتبار صدورها عن نفس الانسان ، واعتياد جوارحه لها تسمى « أخلاقا » وباعتبار وجوب ممارستها والقيام بها ليكون عضواً عاملا في الهيئة الاجتماعية تسمى « واجبات » . وانما جعلنا الاخلاق أعمالا للانسان ولم نجعلها ملكات أو صفات لنفسه : لأنه لا قيمة في الواقع ونفس الأمر للصفات التي تتصف بها نفس الانسان مادمنا لا نرى لها أثراً في المحيط الخارجي . فمهما كانت نفس الانسان مشبعة بحبّ النظافة ، عارفة بطرقها ، مقتنعة بلزومها ، لا يصح أن يقال انه متخلق بخلق النظافة أو قائم بواجب النظافة ، مع أننا نري جسمه غير نظيف ، وثوبه غير نظيف ، وفِناء داره غير نظيف ومتاع بيته غير نظيف . ومهما شعر الانسان من نفسه بالشجاعة والاقدام لا يصح أن يقال انه شجاع مادام يحجم أو يتسلّل لواذاً عن مواطن الخطر ، والدفاع عن الحوزة . ومهما أحسّ من نفسه العطف والحنان على الفقير ـ لكنه لا يجود بفلس واحد في سبيل راحة ذلك الفقير وتخفيف الضرّ عنه ـ لا يصح أن يقال انه شفيق ولا أن يصف نفسه بصفة الرحمة والحنان . ومهما قال عن نفسه انه يحب وطنه وانه يعتقد

وجوب خدمته و الاستماتة في سبيله ، وهو اذا كُلّف أقلّ عمل لمصلحته جادل عن نفسه وماري ، أو انخزل عن تأييد تلك المصلحة وتوارى ، كان كاذباً في دعوى الوطنية ، ولم يكن محباً لوطنه ولا متخلقاً بحب الوطن . وهكذا سائر الأخلاق والفضائل الانسانية : فالأخلاق لدى التحقيق أعمال مشهودة تقع آثارها تحت مشاعر الحسّ سواء هي في ذلك قبل أن تصبح عادةً للانسان تصدر عن نفسه بسهولة ، أو بعد أن تصبح عادة له . أليس هو قبل أن يعتاد الصدق يصدق بالفعل ثم يصدق بالفعل ثم يصدق بالفعل ثم يصبح الصدق أخيراً عادةً له بحيث تصدر عنه أعماله وأقواله الصادقة بسهولة ، ومن غير رويّة . فانظر كيف ان الأخلاق أعمال متكررة في نهاياتها ، كما هي كذلك في بداياتها

لكن هذه الأخلاق والأعمال في الانسان ترتكز على نيته وارادته المستقرة في نفسه . وبهذه النية أو الارادة تصبح الأعمال أعمالاً اخلاقية ، ويكون لها حظها من الحسن والقبح ودرجتها من الميزة والاعتبار ، وإلا كانت وأعمال الحيوان سواء : فان أعمال الحيوان تشبه أن تكون حركاتٍ ميكانيكية لصدورها عنه من دون قصد ، ولا سابقة فكر . ولقد أحسن من قال : « من زرع فكراً حَصَدَ عملا ، ومن زرع عملا حَصَدَ عادة ، ومن زرع عادة حصد خُلُقا ، ومن زرع خُلُقا حصد حظه من هذه الدنيا سعادة أو شقاء » . فعلى المربي إذاً ـ أمًّا كان أو أباً أو معلّماً ـ أن لايتخذ القاعدة في تربية الطفل وصف الفضائل والآداب وتزيينها في نفسه وحمله على الاقتناع بضرورتها ، مكتفياً بذلك عن قرنها بالعمل الخارجي والممارسة الفعلية : ففي خُلُق (التعاون) مثلا بدل أن يسردَ على مسمع الطفل القضايا والمسائل سرداً يقوم بمعونة الغير عملا على مرأى منه المرّة بعد المرة ، ويمهد بين يديه طريق عمله وممارسته فيصير الطفل معواناً لغيره من بني جنسه ، ويصح إذ ذاك أن يقال : إنه محب للتعاون ، متخلق بخلق التعاون

والخلق أو الواجب الانساني تارة يكون شخصياً أي متعلقاً بشخص الانسان وعائداً أثره اليه لا الى غيره من أبناء نوعه ، وهذا كالسعي والعمل في كسب المال ، وطوراً يكون اجتماعياً يتصل أثره ونفعه بغير الانسان من أبناء جنسه : وهذا كالتعاون والتحابّ وبذل المساعدة للآخرين المشاركين له في هذا المجتمع لكننا اذا أنعمنا النظر وجدنا أنه قلّما يخلو واجب شخصيٌّ من أثارةٍ اجتماعية فيه ، كما أنه قلما يخلو واجب اجتماعي من أثارةٍ أو علاقة شخصيّة فيه : فالسعي والعمل مثلا واجب شخصي تعود ثمرته ونفعه على العامل الساعي كما قلنا ، لكنْ فيه أثارةٌ أو علاقة اجتماعية أيضاً من حيث أنه لو لم يَسْعَ الانسان ويكدح لَما وُجِدَ مجموع أعمال الأمة ومساعيها التي تتوقف عليها نهضتها وارتقاء هيئة اجتماعها وانّ الدرهم الذي يكتسبه العامل الساعي جزءٌ من مجموع ثروة الامة ، ولولا درهم الفرد لما تكوّنت ثروة المجموع ، كما أنه لولا نقطة الماء لما وجد هذا البحرُ الخِضَمُّ

« والتعاون والتحابّ » واجب اجتماعيّ كما ذكرنا . ولكنْ فيه أثارةٌ أو علاقة شخصية يرجع أثرها ، ويتهدَّلُ ثمرها ، على المتخلق بخلق التعاون ، وان لم يقصد هو ذلك من وراء عمله : فان مَنْ أحب الناس وبغى الخير لهم ، ومدّ يده الى مساعدتهم في أيام شدتهم كانوا بالطبع حريصين على مقابلته بالمثل ، ومدّ يد المعونة اليه لحين شدّته ، وأيام محنته ، فيكون بذلك قد جنى مما غرسه من هذا الواجب الاجتماعي نفعاً شخصياً ، وثمراً شهياً . وهكذا سائر الاخلاق والواجبات التي يكلف الانسانُ ممارستَها في حياته : فانها مهما كانت شخصية من جهة تكون اجتماعية من جهةٍ أخرى ما دام الانسان مَدَنياً بالطبع . وقد شاء خالقه الحكيم أن تكون مصلحته ومرافقُ حياته مرتبطة بمصلحة بني جنسه ومرافق حياتهم

(والناسُ للناس من بَدْوٍ ومن حَضَر   بعضٌ لبعض ـ و إن لم يشعروا ـ خدمُ)

ولكننا في هذا الكتاب (الذي نريد أن نشرح فيه أخلاق الانسان وواجباته سواء أكان منفرداً أو عائشا مع الجماعة) مضطرون الى تصنيف هذه الأخلاق والواجبات وتوزيعها على المواضيع المختلفة ، وجعلها مباحثَ مباحثَ : فالاخلاق التى يغلب أن يكون أثرها متعلقا بالفرد ونفعها الظاهر عائداً على شخصه نجعلها من (الواجبات الشخصيّة) والتى يغلب أن يكون أثرها ونفعها الظاهر عائداً للآخرين من أعضاء المجتمع نجعلها في عداد الواجبات الاجتماعية ، ونجعل هذه الاخيرة ثلاثة أقسام : (واجباتٍ عائلية) و(واجبات اجتماعية) و(واجبات مدنية) ثم نعقب ذلك بتتمةٍ تشتمل على ستين آية وحديثاً في ضروب من الاخلاق والواجبات مختلفة

مكانة الاخلاق

إن « الاخلاق والواجبات » هى الروح الأدبي أو النظام الادبي الذي أودعه الله نفوسَ جماعات البشر ، وجعله من أكبر العوامل في سعادتهم وشقائهم ، وأدق المقاييس للدلالة على انحطاطهم وارتقائهم ، حتى قال بعضُ علماء الاجتماع « إنما تتفاضل الامم في حالة البداوة بالقوة البدنية ، فاذا ارتقت تفاضلت بالعلم ، ثم اذا بلغت من الارتقاء غايته تفاضلت بالاخلاق »

نعم انه تعالى أنزل الشرائع السماوية لتكون واسطة في اسعاد نوع الانسان، وسَوْقه الى مناجح المدنية والعمران ، لكنه تعالى أراد أن تكون « الاخلاق والواجبات » الركن المتين لهذه الشرائع ، والسببَ الاكبر في ظهور أمرها ، وبقاء سلطانها . فقد روى سيدنا أنس رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ حُسْنَ الْخلَقِ نصْفُ الدِّينِ ﴾

وجاء في الحديث الصحيح عن أنس أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

﴿ إنّ الخُلُقَ وِعاء الدِّين ﴾

ومعنى ذلك أن نسبة الخُلق الحسن الى الدين كنسبة الوعاء الى ما استقرّ فيه : كالماء مثلاً فكما أن الماء لايقوم بنفسه من دون وعاء يضمّ أجزاءه ، ويصونها عن التفرّق والضياع : كذلك أحكام الدين وتعاليمه لاتقوم بنفسها ولا يدوم سلطانها ما لم يكن في المتدينين أخلاق ثابتة تحوط تعاليمُ الدين وتحفظها من الضياع والاضمحلال ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنَّ اللهَ حَفَّ الاسلامَ بمكارِمِ الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ﴾

وقد جعل صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثته الشريفة الى الخلق نشر مكارم الأخلاق فيهم مذ قال :

﴿ إنما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارم الأخلاق ﴾

ولما أراد تعالى أن يثنى على نبيّه في القرآن وصفه بحسن الخلق فقال :

﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيم . ﴾

وقال أميرُ المؤمنين عليّ عليه السلام « لاقرين كحسن الخلق ، ولا تجارة كالعمل الصالح [1] »

وما أحسن ماقاله نابغة بني شيبان يتمدَّح بحسن أخلاقه ، ويحقُّ له ذلك :

سائلوا الإخوان إن فارقتهم ... يومَ يمشون الى قبري بنعشِ

هل غشينا مَحْرَماً في قومنا ... أو جَزَيْنا قاذعاً فُحْشاً بفُحْش

الاخلاق والايمان

الايمان في اللغة التصديق الجازم ، وفي الشرع التصديق الجازم بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من تعاليم الاسلام ، وعقائده الصحيحة . والاخلاق

(١) وقال سعد باشا زغلول « نحن لسنا محتاجين الى كثير من العلم ولكننا محتاجون الى كثير من الاخلاق الفاضلة »

والواجبات الشخصية والاجتماعية تستغرق معظم تعاليم الاسلام . وجاء في الحديث الشريف « الايمانُ بِضْعٌ وسبعون شُعبة : أفضلُها قولُ لا إلهَ إلاّ الله . وأدْناها إماطةُ الاذَى عنِ الطَّريق »

ومعنى « إماطة الأذى عن الطريق » تنحية الحجر والشوك وكل عاثور يؤذي المارة في طريقهم ، فانظر كيف جعل اماطة الأذى عن الطريق من خصال الايمان وليست هي سوى واجبٍ من الواجبات الاجتماعية ، واذا كانت « اماطة الأذى » من شُعَب الايمان كانت شُعَبه وخصاله التي لها علاقة بالواجبات الشخصية والاجتماعية ممّا يفوق الحصر ، ويتجاوز كل حد ، ولا يخفى أن قوله صلى الله عليه وسلم « بضع وسبعون » ليس المراد به التحديد وتعيين العدد ، وانما المراد به مطلق الكثرة ، وهو أسلوب معهود في لغة العرب ، يقولون « جئتك سبعين مرة » ويريدون المجيء مراراً كثيرة

وهناك طائفة من الأحاديث الشريفة تتضمن نموذجات من شُعب الايمان وخصاله الأخلاقية والأدبية :

« أشرفُ الايمانِ أنْ يأمَنَكَ الناسُ ، وأشرفُ الإسلامِ أن يَسلَمَ الناسُ من لِسانِك ويَدِكَ »

« المؤمنُ مَنْ أمِنَه الناسُ على أمْوَالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ ، والمُهاجِرُ[1] مَنْ هجَرَ الخطايا والذّنوبَ »

« أفضلُ الايمانِ أن تُحبَّ للناسِ ما تُحِبُّ لنفسِكَ وتَكرَهَ لهمْ ما تَكرَهُ لنفسِكَ ، وأنْ تقول خيراً أو تصْمِتَ »

---

(١) يشير بقوله (والهاجر الخ) الى ان الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة انما كانت فضيلة وخيراً وواجباً على المسلمين في وقتها اي وقت ان كانت مكة عاصمة الشرك اما وقد فتحها الله على رسوله واصبحت عاصمة التوحيد فلم يعد للهجرة منها ذلك الفضل وانما الفضل اصبح لهجر الخطايا والذنوب : هذا الهجر قام مقام الهجرة

﴿ مَنْ سرَّتْهُ حَسَنَتُهُ ، وساءَتْهُ سيئَتُه ، فذلِكُمْ المؤمن ﴾

قوله « وساءته سيئته » أي كان له ضمير ووجدان يوبّخه على صنيعه ، ويبكّته على مااقترف من السيئات

وقال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه « الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرُّك على الكذب حيث يسرُّك » وفي الحديث :

﴿ لايُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى يحبَّ لأخيه مايُحبُّ لنفسه ﴾

﴿ ليسَ بمؤْمِنٍ مَنْ لمْ يأمَنْ جارُهُ غوائِلَهُ (١) ﴾

﴿ أحْسَنُكُمْ إيمانا أحْسَنُكُمْ أخلاقا ﴾

﴿ إنَّ مِنْ كمالِ الإيمانِ حُسْنَ الخُلقِ ﴾

﴿ عُلُوُّ الهمةِ مِنَ الإيمان ﴾

والمراد بعلوّ الهمةِ كبرُ النفس والطموحُ الى معالي الامور

﴿ الدِّين المُعامَلة ﴾

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة اكتفينا منها بما ذكر . وكلها تدلّ على أن مانسميه « الاخلاق والواجبات » ـ شخصيةً كانت أو اجتماعية ـ هو من خصال الايمان ، وأجزائه المتمّمة له . وأنه على قدر مايتوفر في الشخص من هذه الاخلاق والواجبات ، تتوفَّر فيه شُعَب الايمان وخصاله ، فليزدَدْ المؤمن الموفّق من ذلك أو لينقص

ولا شيء يدلّ على شدة علاقة الأخلاق بالايمان في نظر الإسلام مثل ماوَرَدَ عن سَفّانة بنت حاتم الطائي مذ أسَرَتْها خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتوه بها فقالت « هلَكَ الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيتَ أن تخلّيَ عني ، ولا تشمّت بي أحياء العرب ، فان أبي كان سيّد قومه : يفك العانيَ ، ويقتل

(١) جمع « غائلة » وهى الاذى والضر

الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار . ويفرج عن المكروب ، ويُطعم الطعام ويُفشي السلام ، ويحمل الكَلّ[1] ، ويُعين على نوائب الدهر . وما أتاه أحد في حاجةٍ فردَّه خائباً : أنا بنت حاتم الطائي » فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم : « ياجارية هذه صِفاتُ المؤمنينَ حقاً ، خلّوا عنها : فانَّ أباها كانَ يُحِبّ مكارِمَ الأخلاق »

ثم أسلمت هى وأخوها (عديّ بن حاتم) رضى الله عنهما

الأخلاق والعبادات

فُهِمَ من الفصل السابق أن الايمان كما يطلق على التصديق الجازم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من التعاليم الدينية يُطلق أيضاً على ممارسة الأعمال والقيام بالواجبات الشخصية والاجتماعية التي أرشدت اليها تلك التعاليم . لكن اطلاق الايمان على « التصديق القلبي » أكثر استعمالا ، وأشبه أن يكون هو الحقيقة في أصل الوضع . وعلى العكس من ذلك كلمة العبادة : فان الأحاديث والآثار الواردة في الحضّ عليها تفيد أن المراد بها ممارسة الطاعات البدنية ، والقيام بالشرائع العملية . وان كانت العبادة تطلق أيضاً في اللغة على توحيد الله ، وتعظيمه أبلغ تعظيم ، وتذليل النفس له ، والخضوع القلبي بين يديه . وجاء في الحديث الشريف :

« لا عِبادَةَ كالتَّفَكر »

فقد جعل الشارعُ « التفكُّر » من العبادات وانما هو التأمل في عَظَمة الله وحكمته الباهرة في ابداع نظام الكائنات . فموضوع العبادة اذاً طاعة الله ، والتزام ماشرعه من الدين ، وهذا كما يشمل الطاعات البدنية كالصوم والصلاة

---

(١) الكل : الثقل ، وكل ماينكلف . وحمله كناية عن القيام باعباء حاجات المحتاجين

يشملُ الطاعات الاخرى التي منها « الأخـلاق والواجبات » فإنها كلها مما أمَرَ به الشارع وحضّ عليـه أشدّ حض ، وذَكّرَ به أبلغ تذكير . بل ان الطاعات البدنية ـ على فضلها ، وعلوّ منزلتها في نظر الشارع ـ انما يراد بها تكميل الأخلاق والواجبات ، وتربية النفس التربية الدينية الفاضلة بدليل قوله تعالى :

﴿ أقِمِ الصَّلاةَ : إنَّ الصلاةَ تَنْهى عن الفَحشاءِ والمُنْكَرِ ﴾

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ لم تَنْهَهُ صَلاَتُهُ عنِ الفَحشاءِ والمُنْكَرِ لم يَزْدَدْ من الله إلاّ بُعْداً ﴾

﴿ كم مِنْ صائمٍ ليسَ له مِنْ صِيامِهِ الا الُجوعُ والعَطَشُ . ﴾

فالعبادة البدنية إنما تقع موقعها من رضاء الله تعالى اذا أدّتْ الى تزكية النفس ، وتطهير الأخلاق ، وحسن القيام بالواجبات ، من حيث يكون ذلك سبباً في عظمة الامة ، وثبات أمرها ، ونفوذ سلطانها . وقال بعض علمائنا المتقدمين : « أدركنا السلَفَ وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الـكفّ عن أعراض الناس » وقد نبّه الشارع صلى الله عليه وآله وسلم ، في غير ما حديثٍ الى تفضيل الأخلاق على العبادات بنسبة ما لها من الأثر البيّن ، والنفع الظاهر في مصالح البشر ، وسعادة حالهم . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ منْ عِبادةِ ستّينَ سنَةَ ﴾

﴿ عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عِبادَةِ ستّينَ سنة ﴾

﴿ إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ خيرٌ من عامة الصلاةِ والصِّيام ﴾

والمراد باصلاح ذات البين السعيُ في إزالة الخصام وسوء التفاهم من بين المتنازعين من أبناء الامة ، فيؤول أمرهم الى الأُلفة والقوة .

﴿ نَظرُ الرَّجُلِ الى والدَيْهِ حبًّا لهما عبادة ﴾

﴿ مَنْ مشى في حاجةِ أخيهِ ساعةً من ليلٍ أو نهارٍ ـ قضاها أوْ لمْ يقضها ـ كانَ خيراً له من أعتكاف شهرَين ﴾

﴿ إنَّ صَبْرَ أحَدِكم ساعةً في بَعْضِ مَواطنِ الإسلامِ خيرٌ له من أن يعبُدَ الله أربعينَ يوماً ﴾

يعني أن اهتمامه وثباته في موقف يَدْرَءُ به الخطر عن أمته خيرٌ له من العبادة في تلك المدة .

﴿ العِبادَةُ عشرةُ أجزاء : تِسْعَةٌ منها في طَلَب الحلال ﴾

كأنه يقول كسبُ المال الطيب الحلال تسعة أعشار العبادة

وكما فضّل الشارع مكارم الأخلاق على مجرّد عبادة الجوارح فضّل العلم والفقة ـ أعنى الفهم في أسرار التشريع الاسلامي ـ على مجرّد العبادة أيضاً . مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ عالِمٌ يُنْتَفَعُ بعلمهِ خيرٌ من ألفِ عابدٍ ﴾

فكل هذه الأحاديث الشريفة وأمثالها معها صريحة في أن مكارم الأخلاق وتكميل النفس بالعلم الصحيح ، وممارسة الواجبات الشخصية والاجتماعية ، هي عبادة . بل قد تكون أحياناً خيراً من العبادة ، وذلك بحسب ما لها من حسن الأثر في نفع الامة ، وتوفير الخير لها .

الدنيا والآخرة

لا نعلم ديناً من الأديان السماوية وَفّق بين مصلحتي الدنيا والآخرة ، وحض على العمل لهما كلتيهما بقدر ما فعل دين الاسلام . وكان الشارع صلى الله عليه وسلم نفسه

يراوح بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة : فلا تراه مقبلا على عمل من أعمال آخرته كصيام وقيام حتى تراه قد انصرف عنه الى عمل آخر من أعمال دنياه : كمدافعة الخصوم ، وإعداد القوة ، والنظر في مصالح المسلمين العامة ، والعناية بأهل بيته وزوجاته الطاهرات ، وإغاثة الفقراء ، وذوي الحاجات ، وعيادة المرضى ، وتفقد الأصدقاء الى غير ذلك . فالاسلام بطبيعته يمهّد بين يدي أتباعه سبيلَ التكامل الجسميّ والنفسيّ ، ويُرشدهم الى استعمال جميع قواهم كيْ يصلوا الى مستوى السعادتين : سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، فهو لم يجعل للجسد سلطة على الروح حتى تفنى فيه ويُصبح الانسان مادّياً محضاً ، ولا للروح سلطة على الجسد بحيث يفنى فيها ويصبح مخلوقاً غريباً عن هذا العالم . واذا تصفحنا التاريخ وتأملنا في أسباب سقوط الامم واعتلائها وجدنا أن سقوطها لم يكن الا أثراً من آثار اقتصارها على العمل لأمر دنياها وحدَهُ ، أو أمر آخرتها وحدهُ ، وأن اعتلاءها ناتج عن اعتدال الأمرين ، وتوازن الكفّتين ، والتمتع بكلتا الحسنتين . والشواهد على لزوم هذا الاعتدال والتوازن ـ من نصوص الشريعة ـ كثيرة وافرة العدد ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وابْتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخرة ولا تَنْسَ نَصيبكَ مِنَ الدُّنيا ﴾

﴿ رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنة وفي الآخرة حَسَنة ﴾

ومن الاحاديث الشريفة الواردة في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنَّ أهْلَ المعروفِ في الدنيا همْ أهلُ المعروفِ في الآخرة ، وان أوَّل أهلِ الجَنَّةِ دُخُولاً الجنةَ أهلُ المعروف ﴾

﴿ احْرُثْ لدُنياكَ كأنَّكَ تعيشُ أبداً ، واحْرُثْ لآخِرَتِكَ كأنَّكَ تموتُ غداً ﴾

وقد فسَّرْوا الحرث هنا بكسب المال وجمعه ، بدليل ما ورد في بعض

روايات هذا الحديث :

﴿ احرُث المالَ كأنك تعيشُ أبداً ﴾

﴿ إعمَلْ عَمَلَ امْرِيءٍ يظنُّ أنْ لَنْ يموتَ أبداً . واحذرْ حَذَرَ امرىء يخْشى أن يموتَ غداً ﴾

وذَمَّ رجلٌ الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له الإمام « الدنيا دارُ صِدْق لمن صدقها ودار نجاةٍ لمن فهم عنها ، ودارُ غنى لمن تزوَّد منها »

الخير والواجب

ويُسَمَّى الخير أحياناً « العملَ الصالح والبِرَّ » بكسر الباء كما يسمى صاحبه « البارّ » و« البَرَّ » بفتح الباء . ولكلٍّ من الخير والبرِّ في الأَصل معنى لغويٌّ خاص كالمال والصِلةِ والعطيَّة . ثم توسَّعوا فيهما فاطلقوهما على كل عملٍ صالح ، أو احسانٍ أو جميلٍ أو معروفٍ أو شيء نافع مفيد يوصله الانسان الى أخيه الانسان ، بل الى كل ذي كبد رَطْبة من الحيوان حتى قال الحسن البصري رضي الله عنه : « البَرُّ مَنْ لا يؤذى الذَرَّ »

وضدُّ الخير « الشرُّ » وصاحبه « الشِرِّير » و « الفاجر » وهو من يرتكب الظلم والفساد . ولا يألو في إيصال الأذى والسوءِ الى الآخرين

ولمَّا كان فِعلُ الخير وممارسة أعمال البرِّ مما يؤدِّي الى سلامة المجتمع الانساني وراحته وطمانينته وكان كل انسان كاملٍ شاعرٍ بقيمة انسانيته يرى أن فعل الخير مما لا مندوحة عنه ، ولا مفرَّ منه ـ لمَّا كان كل ذلك سمّوا « الخير » « واجباً » بهذا الاعتبار ، وعطفوه عليه عطف تفسير فقالوا « الخير والواجب » كأنهم يقولون : الخيرُ الذي هو واجب على بني الانسان

والاخلاق الفاضلة في الانسان انما تنبعث عن عاطفة الخير الراسخة في

نفسه . ولذلك قال بعض المؤلفين : إن موضوع علم الاخلاق هو « فكرة الخير » نفسها . وهذا ماجعل علماء التربية يهتمون جدّ الاهتمام في تقوية هذه الفكرة في الاحداث ، وتنميتها في قلوبهم ، وتعويدهم ممارسة الخير منذ الصغر

والناس ليسوا سواءً في توفر هذه الفكرة فيهم ، واستحكامها من نفوسهم وإنما همْ فيها على مراتب ودرجات . وقد وضع لها النبي صلى الله عليه وسلم ميزاناً أو قانوناً هو لعمري من أدقّ القوانين الأدبية ، وأصدقها في محاكمة المرء لنفسه : ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنما الأعمالُ بالنيَّاتِ ﴾

أي ان مرتبة أي عمل كان ومنزلته من القبول والاعتبار تابعةٌ الى نيّةِ صاحبه وقصده ، وراجعة الى كُنْهِ إرادته ، ومبلغها من الحسن والاعتدال : فمن وفى دائنه حقَّه بعد حكم حاكم كان فاعلا للخير في الجملة ، ولـكن ليس هو في فعله كمن وفى دينه من دون حُكْمٍ ولا مطالبة . ومَنْ أنفق على نفسه ورفّهها وسدَّ حاجتها كان فاعلا للخير ، ولـكنْ ليس هو في ذلك كمن أنْفَقَ على أهله وعياله وذوي قرابته ، وليس من أنفق على هؤلاء في الفضل والمزيّة كمن أنفق على البعيد عنه الذي لاتلزمه نفقته ، وإنما حمله عليها الأرْيَحيَّةُ ومحضُ الكرم ، ومُطَلَقُ الإرادة والاختيار . ومن يدع الشر ويفعل الخير خوفاً من تعيير الناس ومذمَّتهم له ليس هو في رسوخ هذه الفضيلة كمن يمارس الخير رغبة في ثواب الله أو رهبة من عقابه ، وليس هذا الاخير في الفضل والتقدّم والسبق كمنْ يمارس الخير لذات الخير ، وبسائق من نفسه في حبّ الخير لا بتأثير مؤثر خارجي عنه ويُسمَّى هذا السائقُ الداخليُّ أحياناً « الضمير والوجدان » و « الشعور بالواجب » وسمّاه بعض علماء الأخلاق « القانون الذاتي » . ويغلبُ هذا السائق النفسيّ في البشر لحين تكاملهم في التربيتين : « الدينية » و « الاجتماعية » . فخواص

المتدينين وطبقة الأبرار والصدّيقين منهم يعملونَ الخيرَ لذاته ، كما يعبدون ربَّهم سبحانه وتعالى لذاته ، ولكونه مستحق العبادة لا لرغبةٍ في جنته ، ولا لرهبةٍ من ناره ، كما نُقل التصريح بذلك عن كثيرين منهم رضي الله عنهم . وقد قال قائلهم :

(وأعبُدُ اللهَ لا أرجو مثوبتَه   لكن تعبّدَ إعظامٍ وإجلالِ)

وقد أشار الى هذه الدرجة العالية في التربية النفسية أو الدينية سيدنا عمر رضي الله عنه مذ قال في حقّ سيدنا (صُهيبٍ) رضي الله عنه « نعم العبد صهيب : لو لم يخف الله لم يعصه » أي انه لا يعصي ربَّه ولا يدع ما يجب عليه فعله وذلك بسائق من نفسه وفِطرته حتى لو فُرِضَ أنه لا يخاف الله ولم يسمع إنذارَه وتحذيره من العذاب فكيف وهو رضي الله عنه يخاف ربَّه ، ويَتَّقي سَخَطَه وعذابه ؟ فصهيبٌ رضي الله عنه هو بشهادة عمر سيدُ الأبرار المحسنين الذين يفعلون الخير لذاته وبسائق من وجدانهم وضميرهم وشعورهم بالواجب .

ومعرفة الخير من الشرّ والتمييز بينهما أمر مركوز في فِطَرَ البشر بل يكاد يكون بديهيًّا فيهم اذا كانت فِطَرُهم سليمة ، وأمزجتهم مستقيمة . أما ممارسة الخير والقيام به عملا فهو شاقٌّ على النفس يحتاج الى تربيةٍ وعنايةٍ وتعويدٍ منذ زمن الحداثة والصغر . وأحسنُ ماتُرَوَّضُ به نفوسُ الناس ـ بحيث يحملون على فعل الخير وترك الشرّ بسهولةٍ واقتناع ـ هذه القاعدة التي توارثتها الامم ، وادّعاها أهلُ كلّ دين جيلاً بعد جيل وهي « لا تفعلوا بالناس مالا تريدون أن يفعلوا بكم » وقد ورد في معنى هذه القاعدة الذهبيّة احاديث نبوية شريفة هي أفصحُ أسلوباً وأجزلُ تركيباً ، منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إئتِ المعروفَ واَجتنبِ المنكرَ . واَنظرْ مايُعجبُ أُذُنَكَ أنْ يقولَ لكَ القومُ إذا قمتَ من عندِهِمْ فأتِهِ ، وانظرُ الذي تكْرَهُ أن يقولَ لكَ

القومُ إذا قمتَ من عندهم فاجتَنبْه ﴾

﴿ إذا أردْتَ أن تذْكُرَ عيوبَ غيركَ فاذكرْ عيوبَ نفسِكَ ﴾

﴿ أحبَّ للناسِ ماتُحِبُّ لنفسِك ﴾ (١)

﴿ ما كرهتَ أن يَراهُ الناسُ منكَ فلا تفعلْه بنفسِكَ اذا خلوتَ ﴾

ويشبه هذا من القرآن قوله تعالى :

﴿ أتأمُرونَ الناسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفسَكم ﴾

ومن ذلك حديث أشار فيه صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن ضمير الانسان ووجدانه هو الحَكَم العدل بينه وبينَ ربّه في معرفة الخير والشر ، والتمييز بينهما ، فلا يقول فلان أفتاني وفلان قال لى وانما يرجع الى أعماق نفسه ، وحُرّ ضميره ، فهو لايكذبه ، ولا يدلّس عليه فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) :

﴿ استَفْتِ قلبَكَ وإنْ أفْتَاكَ المُفتُون ﴾

ومن ذلك إرشاده لنا ﷺ الى عمل الخير بجميع أنواعه وأشكاله ، حتى اذا عجزْنا عن فعله بذواتنا ، أمكننا أن نمارسه بدلالةِ غيرنا عليه فقال :

﴿ الدالُّ على الخير كفاعِلِه ، والدالُّ على الشَّرِّ كفاعِلِهِ ﴾

وهناك أحاديث تَحضُّ على فعل الخير وتُعيِّن بعض صوره وأشكاله وطرائقه ، من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ على كلِّ مُسلمٍ صَدَقَةٌ : فإنْ لم يجد فيعْمَلُ بيدِهِ فينْفَعُ النَّاسَ ويتَصدَّق فإنْ لم يَستَطعْ فيُعينُ ذا الحاجةِ المَلهوفَ ، فإنْ لم يفعلْ فيأمُرُ بالخير فان لم يفعَل فيُمْسِكُ عن الشرِّ ، فإنَّهُ له صدقة ﴾

يعنى أنه لامندوحة للانسان الكامل عن ممارسة الفضيلة وفعل الخير بأية طريقة ممكنة ، ولا عذر له في الترك والاهمال . وهناك حديث خصّ فيه بعض

---

(١) (ارض للناس من الخير كما ترضى لنفسك)
(وارحم الناس جميعا انهم ابناء جنسك)

الواجبات ثم عمها فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كلّكم راعٍ ، وكلّكم مسؤولٌ عن رَعيتّهِ : فالإمامُ راعٍ وهوَ مسؤولٌ عَنْ رَعيتّهِ ، والرَّجُلُ راعٍ في أهْلِهِ وهُوَ مسؤولٌ عنْ رَعيتهِ ، والمَرْأةُ راعيةٌ في بيتِ زَوْجِها وهي مسؤولةٌ عن رعيتّها ، والخادمُ راعٍ في مالِ سيّدِهِ وَهو مسؤولٌ عن رَعيتّه ، والولدُ راعٍ في مالِ أبيه وهو مسؤول عن رعيته . فكلّكمْ راعٍ ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته ﴾

فالشارع يعتبر كل واحد من البشر له عمل في دنياه يجب عليه أن ينصح فيه ، ويقومَ به خيرَ قيام ، وإذا قصّرَ في ذلك أو أهمل كان مسؤولا مُؤاخذاً وكفى بهذا الحديث الشريف حضاً على لزوم القيام بالواجبات العائلية والاجتماعية ودلالة على عظم شأنها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الفَضلُ في أنْ تَصِلَ مَنْ قَطعكَ ، وتُعطيَ مَنْ حَرَمكَ ، وتَعْفُوَ عمَّنْ ظَلَمكَ ﴾ يعني أنه بهذا تتحقق انسانيتُك ، وكرمُ أخلاقك : في أن تحسن الى المسيء ، لا في أن تحسن الى المحسن فإنما أنت إذ ذاك تاجر معاوض . ومثل هذا الحديث ما وَصف الله تعالى به الابرارَ مذ قال :

﴿ ويَدْرَؤُونَ بالحسَنةِ السَّيِّئةَ ﴾

أي يدفعون الشرَّ بالخير بحيث إذا أساءَ اليهم مسيء أحسنوا هم اليه ، ولم يقابلوه على إساءته بالسوء : فهم إذا حُرموا أعْطَوْا ، وإذا ظُلِموا عَفَوا ، وإذا قُطِعوا وصَلُوا ، ومن كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه « ياسبحان الله ! ما أزهدَ كثيراً من الناس في الخير ! عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجةٍ فلا يَرَى نفسه للخير أهلاً . فلو كُنَّا لا نرجو جنَّةً ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ، ولا نخشى عقاباً ـ لكان ينبغي لنا أن نطالبَ مكارمَ الاخلاق فإنَّها تدلُّ على سبيل النجاة »

الواجبات الشخصية

الصحة والتداوى

لو قيل ان العناية بالصحة و المبادرة الى ترميمها بالتداوى كلما تشعثت هو من أول الواجبات الشخصية وأوكدها لما كان في هذا القول مبالغة أو غلو . ألم يقل علماؤنا : ان ما لا يتم الواجب الا به كان واجباً ؟ واذا كان الانسان لم يخلق في هذا العالم الا لقيامه بالواجبات التي سنسردها في هذا الكتاب ، وكان قيامه بها لا يتم الا بالجسم الصحيح القوي ـ كانت الصحة والقوة و توفيرهما مما يجب على الانسان بالطبع ليتمكن من قيامه بواجباته المذكورة وهو نشيط . ومن الأحاديث الشريفة الدالة على هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ فارْفُقْ بها ﴾

وذلك بأن لا تحملها فوق طاقتها ، واذا أصابها ضعف أو مرض فعالجها بالراحة والعلاج وارجاع الصحة والقوة اليها لتتمكن من الوصول الى أغراضك ومصالحك عليها . وفي هذا المعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الآخر أيضاً :

﴿ إنّ لجسَدِكَ عليكَ حقًّا ﴾

وهذا الحديث بنصه يدل على أن الصحة من حقوق الجسد التى له ان يطالب بها كما يدل بفحواه على أن مراعاة الصحة وانعاش البدن و تقويته واجب على المرء كسائر الواجبات الشخصية والاجتماعية الأخرى التى سيأتي ذكرها . وجاء في حديث آخر :

﴿ المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف ﴾

وقوة المؤمن الجسدية انما تنشأ عن مراعاة قوانين الصحة التي أرشد اليها العقل وحضّ عليها الشرع . ومن هذه القوانين الصحية ـ بل من أجدرها بالعناية والاهتمام ـ النظافة وقد حض عليها الشرع الاسلامى حضاً لم يساوه فيه دين من الأديان ، ناهيك أنه جعلها من جملة فروض الدين التي تتوقف عليها صحة العبادة ، فمن لم يغتسل ولم يغسل أطرافه الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَةَ (١) لا تصحّ صلاته . وقد جعلها أيضاً من الإيمان صراحة فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ النّظافَةُ من الإيمان ﴾

نعم ان حض الشارع المؤمنين على النظافة وان كان مراعًى فيه الغرض الديني وهو صحة العبادات ، والغرَض الشخصي والاجتماعي وهو أن يُصبح المرء مكرّماً بين اخوانه محبّباً الى قلوبهم ـ رُوعي فيه أيضاً الغرض الصحي لأن علاقة الصحة بالنظافة لا تخفى على الجاهل البليد فضلا عن الشارع الحكيم

وجاء في حديث آخر :

﴿ أَخْرِجوا مِنْديلَ الغَمَرِ مِن بيوتِكم : فإنه مَبيتُ الخبيثِ ومَجْلِسُهُ ﴾

يأمرهم بأن لا يبيّتوا معهم في مخادع نومهم المناديلَ التى يتمسّحون بها من الطعام ، ويكون قد علق بها الوَضَرُ والدسم وهو « الغَمَر » . ثم علّلَ ذلك بأن «الخبيث» يبيت في تلك المناديل : ويكمن فيها للأَذى والشر وما أشبه ان يكون المرادُ بهذا الخبيثِ الجراثيمَ أو الموادّ الضارّة التي تسبب الأمراض المختلفة ؟ فسماها الشارع بهذا الاسم « الخبيث » كما سماها الطب الحديث « الميكروب » وقد قال بعض كبار المؤلفين المعاصرين : « ان الطب الحديث أيد باكتشافاته

---

(١) اي المرة بعد المرة

الأكيدة صحة قول من قال « النظافة من الايمان » و بين لنا حكمته والسرَّ فيه . فقد تحققنا الآن أن كثيراً من الامراض كالـكوليرا والُجدَري تنشأ عن جراثيم تعلق بالجسم . فلذا أصبح أمرُ النظافة ضروريا في المنازل التي نسكنها ، والملابس التي نكتسى بها ، والماء الذي نشربه ، والهواء الذي نستنشقه »

وقد عقدنا في هذا الـكتاب فصلا خاصا للنظافة والطهارة بحثنا فيه عنهما من الوجهة الأدبية والاجتماعية . أما البحث في النظافة في هذا الفصل فمن وجهتها الصحية : إذ قد تقرّر في الفن أن النظافة هى مهد الصحة الذي تنام فيه آمنة مطمئنة قريرة العين

ومما جاء في النهي عن غشيان أماكن الأوبئة والطواعين قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اذا وَقعَ الطاعونُ بأرضٍ وأنتمْ بها فلا تَخرُجوا منها فِراراً منه ، وإذا وَقعَ بأرضٍ ولستمْ بها فلا تهبِطوا عليها ﴾

وكلّ ما عرف السلف عن هذه الأوبئة وسوء تأثيرها في الصحة العامة أنه ناشيء عن فساد في الهواء ، أي عن موادَّ عفنة تنتشر فيه ، ثم تؤذى من يستنشقها ، فهم كانوا يهجرون ذلك الهواء الفاسد الى الجبال والمنازه حيث الهواء الطلق النظيف ، النقى من تلك المواد العفنة . وقد تبين في الفن الحديث أن هذه المواد العفنة التى تفسد الهواء قد تعلق بالماءِ أيضاً فتفسده وتسبّب أمراضا سارية للذين يشربونه ، ثم بعد طول البحث والاختبار وَجدوا أن المواد المذكورة هي كائنات حَيَّة ـ نباتية أو حيوانية ـ تنمو وتتكاثر وتتناسل وتنتقل من جسم الى جسم كما هو شأن صغار الحشرات مثل : القمل والبراغيث ، غير أن هذه ترى بالعين المجرّدة وتلك لا ترى . وليس في تصديق هذا الأمر ومراعاته حسب ارشاد الأطباءِ ما ينافى ارشاد الشارع ، بل إن كلاً منهما يحضّ على

النظافة ، وتجنّب المكان القذر ، والهواء القذر من حيث انها كلها تسبب الامراض

أمّا أمر الشارع لنا بعدم الفرار من أرض الطاعون فلما فيه من تضييق دائرة المرض وحصره في بقعة واحدة يُمكن تلافيه فيها ، أما اذا فرّ الموبوءون وانتشروا هنا وهناك فانهم قد يحملون الوباء الى الجهات الأخرى فيفشو مكروبه ، ويستشري فساده ويعود يعسر تلافيه على الأطباء ورجال الصحة ، ولا بدّ أن يكون هناك فوائد أخرى من مثل تهدئة قلوب الناس : فلا يستولى عليهم الوهم والهلع اذا رأوا اخوانهم يفرون فتستعد جسومهم لتقبّل المرض وعلوق جراثيمه بهم ، ومن ذلك التعاون العام على استئصال الداء : ففى فرار الفارّين تخاذل وتواكل وترك طائفة من أبناء الأمة في حلة هم أشدّ ما يكونون احتياجاً فيها الى رحمة إخوانهم ومساعدتهم ، على أن مسائل حفظ الصحة وتناول الأدوية والعلاجات وسائر ضروب الاحتياطات الصحية أمور دنيوية محضة ، وقد أرشدنا الشارع الى الرجوع في مثلها الى الصالحين من أهلها ، الخبيرين بأسرارها . فأصبح من واجباتنا الشخصية العمل بما يشير به الطبيب الحاذق من تلك الامور . فلا ينبغي إهمال ذلك والإعراض عنه . ولا سيما أنه هو نفسه ﷺ كان يتناول الدواء ، ويأمر بتناوله ، ويشير على المرضى أن يذهبوا الى الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور وكان يقول في الردّ على من يحتج بالقدر وأنه لا فائدة من الدواء

﴿ الدَّوَاءُ مِنَ القَدَرِ ، وقد يَنفَعُ بِإذْنِ اللهِ ﴾ [1]

فانظر كيف نبّه الى حفظ العقيدة مع بيان ان الدواء سبب ، وان الاسباب من جملة القدر الآلهي الخفيّ عنا ، وإنما يتجلّى لنا في مظاهر نواميس هذا الكون وقوانينه العامّة وارتباط أسبابه بمسبّباته : فهي التى إذا راعيناها مع استنبطان

(١) ويروى ان رجلا جاء علي بن ابي طالب رضى الله عنه ومعه ناقة جرباء وقال له اقرأ لي دعاء على هذه الناقة كى يشفيها الله فاجابه هل ادلك على دعاء خير من هذا ؟ قال نعم . قال : خذ لها قليلا من القطران واطلها به فانها تشفى .

التوحيد كانت تأثيراتها الظاهرة فينا هي أحكام القدَر الذي كان خفياً عنّا . فما معنى التعلل اذاً بالقدر في ترك هذه الأسباب واهمالها ، والتعرّض للأمراض وأهوالها ؟ ومما قاله صلى الله عليه وآله وسلم في الحثّ على التداوي :

﴿ إنَّ اللهَ أنزَلَ الداءَ والدَّواء ، وجَعَلَ لِكلّ داءٍ دَواءً ﴾

ولا نطيل الاستشهاد على هذا فقد أصبح أمره متعالَماً مشهوراً ، كنهى الشارع ﷺ عن المسكرات كلها ، صيانةً للأمة عن أضرارها وشرورها الاجتماعية والصحية . والأحاديث في ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اُجتَنِبُوا الخَمْرَ ، فإنَّها مِفْتاحُ كلّ شَرّ ﴾

ويشبه هذا ماجاء في الحِكَم الاسرائيلية القديمة : « اذا أراد الشيطان أن يدخل مكاناً عسر عليه الوصول اليه ـ أرسل أمامه الخمرة » وقال بعض الحكماء « ليست الخمور سوى مصائب مجمعة في الكؤوس » وقد حضّ الشارع على العناية بالصحة ، واتخاذ الوسائل الموصّلة اليها حتى مالا يخطر بالبال منها : كقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ سافِروا تَصِحُّوا ﴾

فهو يحضّ على السفر لاستفادة الصحة ، فوق ماينويه المسافر من الفوائد الأخرى : كالمال والعلم . أما كون السفر مفيداً للصحة فلأنّ المسافر في تَنَقله وضربه في البلاد كثيراً مايصادف مكاناً عَذِيّاً[1] ، ويتنشق هواءً نقيّاً . ومن أمثال قدماء اليونان « الصحة في الهواء » . والمسافر في تنقله وركوبه ومشيه أحيانا يرتاض جسده ويتحرك عضله ، ولا يخفى مافي ذلك من الفائدة للصحة . ومجمل القول ان مراعاة صحة الجسد ، وحياطته بالادوية والعلاجات ، من أهم الواجبات ،

---

(١) المكان (العذي) بالذال المعجمة هو الطيب الموافق ويقول العامة (عدي) بالدال المهملة

التي يكلف بها المرء بحكم الشرع والعقل والاختبار ، ومن وفقه الله اليه ، ورزقه صحة حسنة ، ومزاجاً معتدلا ، كان حائزاً لأعظم ركن من أركان السعادة ، إذ لا سعادة في هذه الحياة من دون صحّة بل إن كان شيء فوق الحياة فهو الصحة

النظافة والطهارة

ذكرنا في بحث « الصحّة والتداوي » ما للنظافة من التأثير البيّن في صحة الانسان وسلامته من الأمراض ، ونذكر في هذا البحث مبلغ ما للنظافة من التأثير في كرامة الشخص ورفع منزلته في نفوس إخوانه ومعاشريه ، وأحسن ما قيل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أحْسِنُوا لِباسَكم ، وأصْلِحُوا رِحالَكم ، حتى تكونوا كأنّكمْ شامةٌ في الناس ﴾

وتحسين « اللباس » كما يشمل جَوْدَته ونفاسته يشمل نظافته من الأوساخ والأدران ، والاّ فان الثوب الديباج اذا كان وسخاً قذِراً لا يصحّ أن يقال عنه انه حسن . أما « الرِّحال » فالمراد بها المنازل والمساكن : فالشارع يحضنا معشر المسلمين على أن نكون ممتازين عن سائر الطوائف بحسن الثياب ونظافتها ، وحسن المنازل وطهارة غرفها وأفنيتها ، بل وترتيب أدواتها وأمتعتها ، حتى نُصبح في الناس كأننا شامة في الوجه تزيده كمالا ، وتزينه حسناً وجمالا . وكانت عرب الجاهلية أيضاً يلبسون الثياب القذرة الوسخة فحضّ الله نبيّه في القرآن على مخالفتهم في ذلك فقال تعالى له :

﴿ وَثِيابَكَ فطَهِّرْ ﴾

يأمره أن يتطهّر ويطهّر ثيابَه ، وهذا بالطبع تشريع له ولأمته كافة ، فانهم ما داموا مسلمين كان عليهم أن يراعوا هذا الواجب : لأن دينهم مبنيّ عليه

كما جاء صراحة في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ بُنيَ الإسلامُ على النّظافة ﴾

﴿ النّظافةُ مِنَ الإيمانِ ﴾

﴿ الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان ﴾

وقال بعض علماء الأخلاق المعاصرين « ليس من المروءة ولا الفضيلة في شيء أن يلبسَ الانسان الوسخَ الرثَّ من الثياب ، وأن يعيش في القاذورات ، فان هذا نقص في الكرامة ، وقذارة في الظاهر ، وربما دلّت على قذارة في الباطن . فليحذر العاقل من تلطيخ ثيابه ولينتبه للأمركل الانتباه » وأمْرُ الشارع لنا معشرَ المسلمين بنظافة الجسم وتطهيره المرّة بعد المرة ـ اغتسالا ووضوءاً ـ إنما السرُّ الحقيقي فيه تنبيهنا الى تطهير نفوسنا من الرذائل ، ورديء الأخلاق ، والاّ فالمسلم الذي يبالغ في تطهير ظاهره من الأدران ، وهو مُعْرِض عن تطهير باطنه من خواطر السوء ، وفاسد الطباع ، ومساويء الأخلاق لا يكون في عمله ، ولا تطهير جسده ، مرضياً لله ، ولا مهتدياً الى السرّ من شرائع الاسلام وآدابه الرائعة ، التى كان متحلياً بها شارعه عليه الصلاة والسلام ، كما مر بيانه في بحث « الأخلاق والايمان » وبحث « الأخلاق والعبادات »

ثم إن النظافة أنواع :

(١) « نظافة الأطراف » وهي واجبة على المسلمين معروفة بينهم يمارسونها مراراً في اليوم

(٢) « نظافة مجموع الجسد » وقد أوجبها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

﴿ طهِّروا هذه الأجسادَ طهَّركم الله ﴾

(٣) « نظافة الفم » بمضمضته من الدَّسم وإزالة ما يعلق بين ثناياه من

الطعام ، وفي الحديث :

﴿ مَضْمِضُوا مِنَ اللَّبَنِ فإنَّ له دَسَماً ﴾

فاذا أُمرنا بتنظيف الفم من اللبن الحليب كنا مأمورين بالعناية بتنظيفه من غيره بالطريق الأَوْلى . وقال ﷺ أيضاً :

﴿ السواكُ مَطْهَرَةٌ للفمِ ، مَرْضاةٌ للرّبّ ﴾

والسواك اسم للعود الذي تدلك به الأسنان وتنظف . ولكنه غَلَبَ على عود الأراك الذي يكثر شجره في الحجاز . والأصل في ذلك تنظيف الفم بأية أداة منظفة يُشير بها طبيبُ الأسنان

﴿ تخلَّلوا فانَّه نَظافة ، والنظافةُ تدعو الى الايمان ، والايمانُ مع صاحبه في الجنة ﴾

ومعنى « تخلَّلوا » استعملوا الخِلالَ وهو العود اللّيّن الرفيع يُدْخَلُ بين الثنايا فتَنَظَّفُ به ممَّا عَلِقَ بها من بقايا الطعام

(٤) « نظافة الشعر » بتسريحه وغَسْلِهِ بالماء والصابون وترطيله [١] بالطيوب والأدهان . ولا يضرّ هذا التكريم في كرامة الشخص وإنما يضرُّ الإغراق فيه ، والتكلف له بأكثر من اللازم الى حد التشبه بالنساء . وجاء في الحديث الشريف :

﴿ إنِ اتَّخذْتَ شَعَراً فأكرِمْهُ ﴾

وإكرامُه يكون بما ذكرنا حسبما عُرِفَ من فعله ﷺ : فقد كان يغسل رأسه الشريف بماء السدْر ، ويُكثر دَهْنَه ، ويسرّح لحيته . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ اللهَ يبْغِضُ الوَسِخَ الشَّعِثَ ﴾

---

(١) اي تلينه وتجعيده

والشَّعِثُ : هو الذي يترك شعر رأسه مُغْبرًّا متلبّداً . فلا يتعهّده بالغسل والدّهْن والطيب والتحلاق

(٥) « نظافة الثوب » وحسبك فيها الآية السابقة :

﴿ وثِيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾

وصفْوة القول أن الشريعة الإسلامية ترشد الإنسان الى العناية بنظافة جسمه وثوبه وأثاثه ومسكنه وفِنائه وكل ما له تعلّق به ، وأن لا يُرِيَ من نفسه إلاّ كلّ حسن جميل في العيون ، مقبول محبوب الى القلوب

العلم والعقل

ان الإسلام دِين علم وعقل قبل كل شيء : فهو قبل أن يكلّف أتباعه تحْصيل أي غرض من أغراض الدنيا يكلّفهم بأن يكونوا عقلاء صحيحي الفهم ثاقبي الفكر جيدي البصيرة يتدبّرون الامور قبل الشروع فيها ، ويقلّبون وجوه الرأي في موار دها ومصادرها ، ومباديها ومصايرها . فلا تقع الا على مقتضى الحق والعدل والمصلحة والواجب . كما يكلفهم أن يكونوا علماء عارفين بأسباب المصالح ، وطرق المنافع . واقفين على الحقائق الكونية ، مُلمّين بتفاصيل التجارب العملية التى اهتدى اليها البشر فى سابق أدوارهم ، ومختلف أطوارهم مما يتعلق بتصحيح العقائد والعبادات ، وتقويم الأخلاق والملكات ، واتقان أمر المعايش والمعاملات ، وترقية شأن الصناعات والتجارات ، وتحسين سائر مقوّمات الحياة

فالقرآن لما دعا الناس الى الاسلام ، وكلفهم قبولَ تعليمه وهدايته كان يقيمُ « العقل » حكماً بينه وبينهم . ويُعَجِّبُ من انصرافهم عنه ، وإهمالهم له ، وترك

الاستضاءة بنوره . فكان يقول وهو يحاجُّهم :

﴿ كذٰلِكَ نُفصّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يعقِلون ﴾

﴿ فاعْتَبِرُوا يا أولي الأبْصار ﴾

﴿ إنَّ في ذلكَ لَعبرَةً لاولي الأبْصار ﴾

﴿ عِبرَة لاولي الألباب ﴾

﴿ إنما يتذَكَّرُ أُولُو الألْباب ﴾

و « الأبصار والألباب » العقول . وقد تكرّر « أفلا تعلقون ؟ » في القرآن بضع عشرة مرة في صَدَد التوبيخ والتعجيب . وكفَى بهذا مزية ومنقبة للعقل مُذْ جعُلِ للدين أصلا ، ولمصالح الدنيا عماداً . وورد في الحديث الشريف :

﴿ ما تَمَّ دينُ إنسانٍ قطُّ حتَّى يَتمَّ عقلُه ﴾

﴿ دِينُ المرء عَقْلُهُ ، ومَنْ لا عقلَ له لا دينَ له ﴾

وانما حرم الخمر في الاسلام خَشْيَةَ أن يسطوَ على العقل فيفسده أو يضعفه . والعقل مِلاكُ سعادة الانسان ، وقِوام حياته

أما العلم فالقرآن رفع من شأنه ونوّه بمنزلته بما لم يسبقه اليه سابق من الكتب السماوية ، فقد قال تعالى :

﴿ هَلْ يَستَوِي الذينَ يَعلمون والذينَ لا يَعلمونَ ﴾ ؟

بل إذا تدبرّنا أول آيات القرآن نزولا وجدناها تحضّ على العلم . وترفع من مكانة العلم ، وهي قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خلَقَ ، خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ . إقْرَأْ ورَبكَ الأكْرَمُ ، الذي عَلَّمَ بالقلم عَلّمَ الإنْسانَ ما لم يَعْلَمْ ﴾

﴿ نٓ والقلم وما يَسْطُرُونَ ﴾

فقد نوّه في الآيتين بشأن القلم والكتابة ، والعلم والتعلم . هذا الشأن من

شؤون الحياة ومصالح الدنيا هو أوّل ما فاجأ به القرآنُ البشرَ المخاطبين ، وأوقعه في أذهانهم . أفلا يكون معنى ذلك أن الاسلام دين علم ، وأنه لا يرضى للمنتسبين اليه الا العلم . ولا نظن أن كلمة من كلمات القرآن - عدا كلمة « الله » - تكررت فيه بقدر ما تكررت فيه كلمة « العلم » . فالاسلام اذاً هو (دين العلم) كما أنه (دين التوحيد)

ولما أراد الله أن يلقن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم دعاءً يدعو به لقنه أن يطلب في دعائه المزيد من العلم مذ قال له :

﴿ وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾

وورد في الحديث الشريف :

﴿ العِلْمُ حياةُ الإِسْلام وعمادُ الدين ﴾

والعلم اذا أُطلق في لسان الشرع كان المراد به العلم النافع الموصّل الى سعادتي الدنيا والآخرة : ذلك العلم الذي يتعلق بمصالح البشر مباشرة ، وله الأثر البيِّن والنفع الظاهر في إتقان تلك المصالح ، وإحكام أمرها ، وتوثيق عراها . أما العلوم المبنيّة على الوهم والتدجيل فان الشارع لا يقيم لها وزنا

وكذلك حضّ الشارع على فهم مسائل العلم فهماً صحيحاً فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كُونوا لِلعِلْمِ وُعاةً ، ولا تكونوا له رُواة ﴾

أي لا تعتمدوا في العلم على مجرد الرواية والنقل من دون أن تعوه وتحفظوه وتتدبَّروه ، لتعرفوا طريق المصلحة والمنفعة منه

والعلم لا ينمو في نفس صاحبه إلا بالعمل والممارسة والتطبيق : فإنّ العمل بالعلم على هذه الصورة يزيده ثباتاً ورسوخاً ، ويؤدّي الى انكشاف أمور من

ذلك العلم كانت مجهولة ، وانفتاح أبواب الى غوامضه وأسراره كانت مسدودة . وهذا الأصل في العلم ممـا قرّره الاسلام أيضاً في جملة ما قرّر من الأحكام فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ ﴾

فالعملُ بالعلم يتسبَّبُ عنه ـ بتيسير الله ـ علمٌ جديد ، ومعرفةٌ غضَّة لم تكن حاصلةً من قبلُ . وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام « كل وعاء يضيق بما جُعلَ فيه الا وعاء العلم فانه يتّسع » ووعاء العلم هو العقل . ولا جرَم أن العقل يتّسع وينمو كلما مُدَّ بالعلم وغذّي بمسائله . ومِنْ كلام جعفر الصادق عليه السلام « يهتف العلمُ بالعمَل فإن أجابه وإلا ارتحل » . والمسلمون في زمن سلَفهم الصالح كانوا على غير ما هُم عليه اليومَ من أمر العلم والتعلّم ، وحبّ الاستطلاع ، والحرص على تعرف الحقائق ، من غير لَبْس ، والجهر بها من دون ما خشية : فلم يكن أحدٌ من الصحابة ولا التابعين يقبل من آخرَ علماً الا اذا عَقَلَهُ وتدبَّره وفهم السر فيه ، ووجهَ المصلحةِ المتأتّيةِ عنه ، ويقول لراويه : انظر يا هذا ما ذا تقول ، وخَفِ اللهَ واحذره فيما تروي من النقول . أما في هـذه العصور المتأخرة فقد اختلط الحابل بالنابل ، واجترأ الراوي والناقل ، وتراكمت على العقول الأبحاث والمسائل ، وصار من مقتضى الورع أن يذعن المسلم لـكل ما تنقله الرُواة ، وتتداوله الأفواه ، وإن صادم أحياناً أصلا من أصول الاسلام ، ولم يقم عليه دليلٌ ولا برهان . وهذه الفوضى العلميّة التى خالفنا فيها سَلَفَنا الصالح هي من أكبر أسباب انحطاطنا عنهم ، وانخزالنا عن مثل مواقفهم ، وفقْدِنا ما كان لهم من عزّ وصولة ، وملك ودولة ، حتى صَدَقَ علينا مضمون الآية الكريمة :

﴿ إنَّ اللهَ لا يُغَـيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّرُوا ما بأنْفُسِهِمْ ﴾

ذكر السيد (أمير علي) الهندي في كتابه (تاريخ الاسلام) انه كان

يُكتب على مدخل كلّ مدرسة في الأندلس هذه العبارة : « الدنيا تستند على أربعة أركان : علم الأفاضل ، وعدل الأكابر ، ودعاء الصالحين ، وجلال الشجعان . وكما حذر الشارع من العلم الوهميّ الذي لا ينفع حذّر من دُعاته وحَمَلَته ، ونبّه الناسَ الى غوائلهم ، و مَغَبّةِ الانخداع بهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَيْلٌ لأمّتي من عُلماء السُّوء ﴾

وعلماء السوء أنواع : الذين يحلّلون الحرام ويحرّمون الحلال ، أو يتخذون العلم حبالة لحظوظهم ومنافعهم الخسيسة أو وسيلةً للاضرار بالناس . أو يتعلمون من العلوم أوهاماً ينافخون دونها ليستفيدوا من ورائها جاهاً أو حُطاماً : وغيرُ هؤلاء ممن اتخذ العلم آلةَ شرٍّ وضرٍّ وإفساد . هؤلاء علماء السوء نعوذ بالله من شؤمهم . أما علماء الحق فهم الذين قال فيهم صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أكْرِموا العُلمَاءَ : فإنهم ورَثَةُ الأنبياء ﴾ .

﴿ العُلماء مصابيحُ الأرض ، وخُلَفاء الأنبياء ﴾

﴿ إنَّ مثَلَ العُلمـاءِ في الأرض كمَثَل النجومِ في السماء : يُهْتَدَى بها في ظُلُمَاتِ البَرِّ والبحر ، فإذا انْطَمَسَتِ النجومُ أوْشَكَ أن تضلَّ الهُدَاةُ ﴾

﴿ خُيِّرَ سُليمانُ بينَ المـال والمُلْكِ والعِلْم ، فاختارَ العلم ، فأُعطيَ الملك والمـال لاختيارهِ العلم ﴾

﴿ أقربُ الناسِ من دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ أهلُ العلم والجهاد ﴾

﴿ يُوزَنُ يومَ القيامة مِدَادُ العُلماء ودَمُ الشُّهَداءِ فيرْجَحُ مِدَادُ العُلماء على دم الشهداء ﴾

وهاك طائفة من الأحاديث التى تحض على طلب العلم وتبيّن مزايا طلابه وأنه لا خير فيمن عداهم :

﴿ لِكلِّ شيءٍ طريقٌ ، وطريقُ الجنَّة العلم ﴾

﴿ الناسُ رَجُلان : عالمٌ ومتعلّم ، ولا خيرَ فيما سواهما ﴾

﴿ مَنْ أرادَ الدُّنيا فعليه بالعلم ، ومَنْ أراد الآخرةَ فعليه بالعلم ، ومَن أرادهما معاً فعليه بالعلم ﴾

﴿ أُطلُبِ العلمَ ولو بالصين ﴾

﴿ إذا جاء الموتُ لطالبِ العلم وهو على هذه الحالةِ ماتَ وهو شهيد ﴾

ومن الأحاديث الواردة في آداب طلب العلم قوله ﷺ :

﴿ حُسْنُ السؤَال نِصفُ العلم ﴾

أيْ إن مَن رُزِقَ مقدرة على إفراغ سؤاله في قالب سهل بحيث يفهمه أستاذه المسئول بسرعةٍ كان ذلك مساعداً على تحصيله علماً جمّاً

﴿ تَناصَحوا في العلم ، ولا يَكْتُمْ بعضكم بعضاً . فان خيانةً في العلم أشدُّ مِن خِيانةٍ في المال ﴾

أيْ كما لا يجوز لك أن تخون من ائتمنك على ماله فتكتم منه شيئاً كذلك أنت مؤتمن على ما لديك من العلم : فلا يجوز أن تكتم منه شيئاً عن السائلين ، فكلا الكتمانين خيانة .

﴿ تَواضَعُوا لمن تَتعلَّمون منه العلم ، وتَواضعوا لمن تُعَلّمونه العلم . ولا تكونوا جبابرة العلماء ﴾

أي اذا لاق الكِبْرُ والعُجب بالجبابرة فإنه لا يليق بأهل العلم . وإنما على الطالب أن يتواضع لاستاذه تواضع إجلالٍ واحترام ، وعلى الاستاذ أن يتواضع لتلميذه تواضع رفقٍ ورحمة وتأنيس

﴿ الحكمةُ تزيد الشريف شرفاً ، وترفعُ المملوكَ حتى تُجلِسَهُ مجالسَ الملوك ﴾

﴿ الحكمةُ ضالّةُ المؤمن : أينما وَجدَها التقطَها ﴾

﴿ خُذِ الحِكمةَ : لا يضرُّكَ من أيّ وعاءٍ خرجتْ ﴾

يعني لا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر فلا يطلب علماً الا من العلماء أرباب المظاهر ونحوهم ، بل عليه أن يلتقط لؤلؤه الرطب من أيّ مكان ، ويتناول زلاله العذب من أي ينبوع كان . والمراد بالحكمة في هذه الأحاديث العلم النافع

ومما أُثر عن الحكماء في الحضّ على طلب العلم وقد اشتهر بين الناس أنه من كلام النبوة قولهم « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

(العقل) * أما وقد استوفينا الكلام على الأحاديث الواردة في العلم والتعلّم فلنأت على ذكر أحاديث العقل ، وما ورد فيه من المزيّة والفضل . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ العقلُ نورٌ في القلب يُفرّقُ به بين الحقّ والباطل ﴾

﴿ ما اكتسبَ المرءُ مثلَ عقلٍ يَهْدي صاحبَه الى هُدًى ، أو يردُّه عن رَدًى ﴾

﴿ لكل شيءٍ دِعامةٌ ، ودِعامةُ عملِ المرءِ عقلُه : فبقدرِ عقلِهِ تكونُ عبادته لربه . أما سمعتم قول الفجّار : لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحاب السعير ﴾

ورَوى أنس رضي الله عنه قال : أُثْنِيَ على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير فقال لهم : كيف عقله ؟ فقالوا : يارسول الله إنَّ مِن عبادته . . . إن من خُلُقه . . . إن من فضله . . . إن من أدبه . . . فقال كيف عقله ؟ قالوا يارسول الله نُثْني عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إنَّ الأحمقَ العابدَ يصيب بجهله أعظمَ من فجور الفاجر . وإنما يرتفع الناسُ في دَرَجات الزُلْفى من ربّهم على قدر عقولهم ﴾

﴿ أفلحَ من رُزِقَ لُبًّا ﴾

و « اللبّ » العقل : أي أن العاقل يكون مصيره النجح والفلاح في معظم أعماله ، وأعمّ أحواله

﴿ ليس الأَعمىٰ مَن يعمْى بَصَرُهُ إنما الاعمْى من تَعمْى بصيرته ﴾

و « البصيرةُ » العقل

﴿ كادَ الحليمُ أنْ يكونَ نبيّاً ﴾

﴿ الحليم سَيدٌ في الدنيا سَيدٌ في الآخرة ﴾

و « الحليم » العاقل الوقور

ومن آيات وفور العقل في الانسان ـ كما ورد في بعض الأحاديث ـ :
تَدَبُّرُ العواقب . والأخذُ بالحزم في كل الأمور . وتركُ الأماني والتعِلّات الفارغة . والتوددُ الى الناس . ومداراتُهم . والحياء . وحسنُ الخُلُق . وصدقُ الفِراسة . ومخالفةُ هوى النفس . والاعتبارُ بحوادث الزمان * وقيل لعليّ عليه السلام: صف لنا العاقل فقال : هو الذي يضع الشيء مواضعه . فقيل : صف لنا الجاهل قال : قد فعلت

الصبر والشجاعة

هما من الواجبات الشخصية التي ينبغي للمرء أن يتدرّع بها ويروّض نفسه عليها منذ زمن الحداثة . والصبرُ في أصل معناه اللغوي الحبس . وهو باعتبار متعلّقه ينقسم الى ثلاثة أقسام : (الصبر عن . . .) و (الصبر على . . .) و (الصبر في ...) :

(فالاول) حبس النفس وردعها (عن) فعلِ السوء والشرّ ودواعي الهوى والشهوة وكل ما يمس كرامة الانسان ويشوّه سمعته

و (الثاني) أن يحبس نفسه ويوطّنها (على) المكروهِ والألم وتحمّل الرزايا

والمصائب وكل ما يقلق الراحة وينغص العيش . ومن ذلك الصبر (على) ما يفوت الانسان من المآرب والحظوظ الدنيوية

و (الثالث) أن يحبس نفسه ويمنعها عن التقهقر (في) مواطن الخوف والذعر بل (في) مواطن الخطر أحياناً ، وذلك دفاعاً عن حق ، أو حماية لمصلحة ، أو وقاية لعرض وشرف . وهذا النوع من الصبر يسمى الشجاعة والاقدام . فالشجاعة مما يشمله الصبر بدليل قوله تعالى في صفة طائفة من الابرار :

﴿ والصابرينَ (في) البأساءِ والضرّاءِ وحينَ البأس ﴾

(فالبأساء والضراء) الضيق والفقر والمرض ، و (البأس) الحرب . فهؤلاء الابرار كانوا يصبرون لدى المصائب والآلام والكروب ، كما يصبرون في المخاوف واشتداد هول الحروب .

وقال بعض الحكماء « ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب ، لأن هذا تشاركه فيه الدابة . ولكن أن يكون للنفس غلوباً ، وللخطوب حمولا ، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطاً » أي مالكاً نفسه عند الغضب

وهذا الخُلق (أعني الصبر والشجاعة) من دعائم الاسلام ومن أخص الصفات التي يجب أن يتخلق بها المسلم . واذا أردنا أن نعزو نجاح الاسلام وظهور أمره وانتشار كلمته في العالم الى خلق من الاخلاق وجب أن يكون هذا الخلق هو خلق (الصبر والشجاعة) اللذين تَشَبَّعَتْ بهما نفوس سلفنا الصالح ، وأبطالنا الأقدمين . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه « خمسٌ خذوها عني : ألا لا يَرْجُوَنَ أَحدٌ إلاَّ رَبَّهُ . ولا يخافن إلا ذنبه . ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده . واذا سُئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم . والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد » ه . وقال أيضاً : « لا يعدم الصبورُ الظفرَ

وإن طال به الزمان »

وإن أعز شعوب هذا العصر، وأرفعها شأناً، وأوسعها سلطاناً، هو الشعب الذي عُرف من أخلاقه الصبر والثبات في مواطن الاخطار، وَلَدَى اشتداد الاهوال: فهو يُعِدُّ للأمور عدتها، ويهيء لها أسبابها ووسائلها. ثم يصبر صبراً بعد صبر حتى يحين الوقت، وينضج الأمر. وإذ ذاك يجنى ثَمَرَتَه، ويحتجن فائدته. هذا الخلق يصح أن نسميه (الخلق القرآني) لكثرة ماذكر في القرآن من التنويه به، والحض عليه، في أكثر من سبعين آية. من ذلك قوله تعالى:

﴿ واصبرْ على ما أصابَكَ: إنَّ ذلك من عَزْمِ الأمور ﴾

ومعنى كون الصبر من عزم الامور انه مما يتأكد طلبه وتتحتم على الشخص ممارسته من أمور الأخلاق. لأن هذا معنى العزم في اللغة. ويكون ذلك شاهداً على صحة اطلاق كلمة « الواجبات الشخصية » على الاخلاق والسجايا النفسية.

وقوله تعالى:

﴿ وانْ تصبروا خيرٌ لكم ﴾

﴿ انَّ اللهَ مع الصابرين ﴾

﴿ وجعلنا منهم أئِمةً يهدونَ بأمرِنا لَمَّا صبروا ﴾

أي انما كان أولئك القوم من المفلحين، والأئمة المهتدين الهادين، لانهم كانوا متصفين بالصبر في عامة أحوالهم. وقال تعالى:

﴿ كأنهم بُنيانٌ مَرصوص ﴾

أي أنه تعالى يُعجبه من أولئك المدافعين عن الحق أن يكونوا في موقف دفاعهم متساندين متلازّين بما وَطَّنُوا نفوسهم عليه من الصبر والثبات حتى يصبحوا كالبنيان الذي تراصّت أحجاره، وتماسكت جنادله

وأحاديث الصبر والشجاعة كثيرة: منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم – يبين

مكانة الصبر ، ومنزلته من سائر آداب الاسلام – :

﴿ الصبرُ من الايمانِ بمنزلة الرَّأس من الجسد ﴾

﴿ الصبرُ سترٌ من الكروب ، وعونٌ على الخطوب ﴾

﴿ إن الله يحبُّ الشجاعةَ ولو على قتل حية ﴾

أي يجب الصبر في مواقف دَرْءِ الأخطار والإقدام على دفع أذَى كلّ مؤذ حتى ما كان قليل الشأن كالحيَّة . فكيف ترى الشارع الاسلامى يُحب شجاعة الشجاع في المواطن العظام كما إذا كان يدافع عن حق مقدس عامّ يَنتج عن الجبن فيه ، والنكوص عنه ، ضياعُ أمّةٍ برمّتها مثلا

﴿ آفَةُ الشَّجاعةِ البَغْيُ ﴾

يحذّر في هذا الحديث الشجاعَ من استعمال شجاعته وجلادته في الشر والفساد فَيَبغي على غيره أو يبخسه حقاً من حقوقه

﴿ الصبرُ عندَ الصَّدْمَةِ الأُولى ﴾

في هذا الحديث أيضاً تنبيه للشجاع أو كل مَنْ كان في حالةٍ تستدعى ثبات القلب والصبر أن يُوطِّن نفسه ويُنعش فيها خُلق الصبر والثبات لأَوَّلِ مفاجأة العدوّ أو الكارثة أو البلاء ، حتى اذا تيسَّر له الصبر في ذلك الوقتِ واستمرَّ عليه لا يلبث حتى يلْقي في نفس خصمه أو مؤذيه الهيبةَ والاكبار . وربّما اضطره بصَبره هذا الى الهزيمة والفرار . أما إذا لم يَصْبر لدى الصدمة الأولى واستسلم للخوفِ والجَزَع أطمع خصمه فيه وجَرَّأه عليه . ثم صعُب عليه بعد ذلك أن يرجع الى قوّته ويَملك عنان نَحِيزَتِهِ (نفسه)

وقد اتفقت كلمة أهل الأدب على أن أبلغ ما قيل في الحض على الصبر والشجاعة قول قَطَرِي بن الفُجاءةِ البطل العربي المشهور :

أقول لها وقد طارتْ شَعاعاً   من الأبطال ويحك لن تراعي [١]

فانكِ لو سألت بقاءَ يوم   على الأجل الذي لك لم تُطاعي

فصبراً في مجال الموت صبراً   فما نيلُ الخلود بمُستطاع

ولا ثوب البقاء بثوب عزّ   فيُطْوَى عن أخى الخنَع اليَرَاع [٢]

سبيلُ الموت غاية كلّ حَيٍّ   فداعيه لأهل الأرض داعي [٣]

ومن لم يُعْتَبَطْ يَسْأَمْ ويَهْرَمْ   وتُسلمه المنونُ إلى انقطاع [٤]

وما للمرء خيرٌ من حياةٍ   إذا ماعُدَّ من سقط المتاع [٥]

وكأنَّ الشاعر الافرنسي عقد هذا المعنى الذي قاله شاعرنا العربي فقال ماترجمته:

« اذا خسر المرء كلَّ شيء »

« ولم يَعُدْ له أَمَلٌ في استرجاع مافقَدَ »

« كانتْ حياته عاراً عليه »

« وأصبح الموتُ أحَدَ واجباته »

---

(١) الضمير في (لها) يرجع الى النفس (طارت شعاعا) كناية عن انتشار النفس وتفرقها هلعا بحيث لا يعود يمكنها ان تستجمع قوتها

(٢) « الخنع » الذل: و « اليراع » الجبان. ومعنى البيت أن ثوب البقاء وطول الحياة لوكان ثوب عز وشرف لطوى وابعد عن الذليل الجبان فلم يلبسه. لكننا لما رأيناه قد لبسه وتباهى به علمنا أنه ليس بثوب عز ولا فخار

(٣) اللام في قوله « لأهل الأرض » متعلق بداعي في آخر البيت أي ان داعي الموت يدعو اهل الارض كلهم ولا يستثني منهم احداً

(٤) « ومن لم يعتبط » اي ومن لم يمت شاباً صحيحاً مات بعد هرم وسام من الحياة. فالموت واقع على كل حال

(٥) « سقط المتاع » رديئه وما لا قيمة له منه: اي اذا علم المرء انه سيحيى ذليلا في هذه الدنيا لم يعد يبقى لحياته معنى، ولم يعد له فيها خير وفائدة. ومثل هذه الابيات قول قطرى ايضاً:

(الا ايها الباغي البراز تقربن   اساقك بالموت الزعاف المقشبا)

(فما في تساقي الموت في الحرب سبة   على شاربيه فاسقني منه واشربا)

بقي أمرٌ جدير بالذكر : وهو أنه يشترط في النوع الثاني من أنواع الصبر الذي سميناه « الصبر على الآلام والمصائب والكوارث » شرطٌ لابدّ من مراعاته وتحققه : ذلك ان المصائب والمكاره التى تنزل بالشخص قسمان : قسم لايكون فيه حيلة ، ولا لدرئه وسيلة ، كما إذا مات للشخص ابنٌ أو أخ عزيز أو عَمِيَ أو إيف بعض أعضائه [1] فالصبر الجميل إذ ذاك على المصيبة أمر محمود

والقسمُ الآخر أن ينزل بالشخص نازلة أو مصيبة يكون له حيلة في تفريجها أو وسيلة في تخفيفها . فالصبر على هذا المكروه محمود أيضا : لكن يشترط مع هذا الصبر الاجتهادُ والعملُ على اتخاذ السبب في دفعه ، والتخلّص من أذاه وشره ، فلا يلبث أن يجد من القدَر مسعفا ، ومن الدهر مواتيا

(الدهرُ لايبقَى على حالة لابدّ أن يُقبل أو يُدبرا)

(فإن تلقاك بمكروهه فاصبر فإن الدهر لن يَصبرا)

أما الاستسلام الى المكروه ، والصبر على المصيبة ، والتقاعد عن دفعها بالطرق والوسائل المشروعة الداخلة تحت الطاقة فليس ممّا يرضاه الشرع ولا العقل لنا ، ولا يكون الصبر عليه صبراً محموداً ، ولا خلقا مشهوراً :

ينزل بالمرء فقر أو ضائقة وله عيال يتضوّرون جوعاً وأسباب الرزق ممهّدة بين يديه فيعرض عنها ويقول : انهُ صابر وان الصبر مفتاح الفرج

يُصاب المرء بمرض مؤلم ويكون له علاج أو دواء ناجع أو مخفف باذن الله فيتقاعد المريضُ عن تناول ذلك العلاج ويقول عن نفسه انه صابر وان الصبر سلاح المؤمن

يعتدي مُعتدٍ عليك . أو يغتصب بعض حقك ويكون في مكنتك كفّ أذاه بإحدى الطرق والوسائل ، لكنك لاتفعل بل تذلُّ وتخضع وتدعي أنك صابر

---

(١) ايف اصيب بآفة او عاهة

وان الله مع الصابرين ، في نظير ذلك من أحوال الناس وأطوارهم التى تتكرّر مشاهدها تحت مواقع أبصارنا من وقت الى آخر . وكلّ هـذا لايقال انه من الصبر المحمود ، ولا ينبغي أن يقرّظ صاحبه عليه . وانّ استنكار ذلك وبُعْده عن الأخلاق ومنافاته للواجبات الشخصية ـ أمرٌ ظاهر لايحتاج الى استدلال بل يكاد يكون الشعور باستنكاره من الوجدانات الطبيعيّة وكثيراً ماسُمّي هذا الصبر الممقوت باسم « التوكل » واشتبه به : فتذِلُّ أمّةٌ أمةً وتدوس حقوقها ثم يقال للامة المُستذَلّة « اصبري وتوكلي ، إن الله مع الصابرين والله يحب المتوكلين » وهذا في الحقيقة خداع وتغرير ، وانّ صَبْرَ هذه الامة وتوكلها ـ اذا تظاهرت بالصبر والتوكل ـ ليسا من الصبر والتوكل الاسلاميين في شيء مادام في طاقتها الاستعداد واتخاذُ الأسباب لدفع الشرّ ، واسترداد الحقّ ، والاحتفاظ بالكرامة .

وقد مُني المسلمون في أُخْرَياتِ أيامهم بشيء من هذا الصبر والتوكل الممقوتين بحيث التبس أمرهما عليهم أو لبّسوه على أنفسهم بالصبر والتوكل الشرعيين ، وليس المقام يتّسع للافاضة في هـذا البحث بأكثر ممّا ذكرنا ، ولا للاستشهاد عليه من النصوص الشرعية وأعمال النبي ﷺ والصحابة والتابعين بأكثر مما أشرنا . وانما نكتفى ببيت من الشعر قاله تابعي جليل من أصحاب سيّدنا علي رضي الله عنه ـ وهو أبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو ـ وهو قوله :

إذا كنت مَعْنِياً بأمرٍ تريده ... فما للمَضاءِ والتوكل من مِثْلِ

يقول اذا كان يهمُّك قضاء أمر من الامور فلا طريقة للوصول اليه أحسن من المضاءِ والتوكل ، والمضاء النشاط وصدق العزيمة في طلب الأمر

فانظر كيف قرن التوكل وهو الاعتماد على الله بالمَضاء والجدّ فيكون التوكل في اعتبار سلفنا الصالح هو ما اقترن بالسعي والعمل ، لا بالتقاعد والكسل ، وفي هذا الآن بلاغ ، وربما عدنا الى بحث التوكل في مناسبةٍ أخرى

الغضب والاعتدال

من أهمّ الواجبات التي يجب على المرء ممارستها والتخلق بها، تطهير النفس من خلق الغضب وبوادر الحدّة. وان من يتساهل في ذلك ويدع هذا الخلق الذميم يستولي عليه كان كمن ترك الثعبان ينساب في جنبات داره، أو وضع برميل البارود على مقربةٍ من سرير نومه: فهو في كل وقت معرض للخطر والوقوع في الهلكة. وقد أشار القرآن الحكيم الى ان الغضب من أخلاق الكافرين وسماه « الحمية الجاهلية » وجعلَ الرفق والاعتدال من خصال المؤمنين وسماه « السكينة » فقال تعالى:

﴿ اذ جَعلَ الذين كفَرُوا في قُلُوبهمُ الحميَّةَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ فأنزَل اللهُ سَكينَتَه على رَسُوله وعلى المُؤمنين ﴾

ومن أحسن ماورد في السنّة النبوية من النهي عن الغضب أن رجلا قال: « يارسول الله: مُرْني بعمل وأقلل » طَلَبَ أن يأمره بشيء قليل الكلفة يُفْهَم بسهولة، ويُمارس بسهولة. فقال له صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ لاتَغْضَبْ ﴾

فأعاد عليه الرجل السؤال مراراً والنبي صلى الله عليه وسلم في كلّ مرّة يجيبه بقوله « لاتغضب » فهو كأنه يقول له: اضمن لي من نفسك ترك الغضب وأنا أضمن لك كل خير

واعلم أن الغضب يفقد المرء عقلَه، ويملك عليه رشده. فلايعود يهتدي الى وجه الحق في الأعمال والاقوال، ثم لايلبث حتى يتورّط في الشرّ والوبال. وإن تأثير الغضب ونتائجه في نفس الشخص وفي أعماله ومصالحه يشبه من كل الوجوه تأثير الخمر والمسكرات. وكما قالوا في الخمرة « إنها مفتاح كل شرّ » قالوا

هذا القول نفسَه في الغضب « انه مفتاح كلّ شر » فكلٌّ منهما غولُ العقل [1] ، وآفة الفضْل . قال عليٌّ عليه السلام « الحدَّة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فان لم يندم فجنونه مستحكم » وكم في الناس من ذي مواهب عالية ، ومراتب في الذكاء والنبوغ سامية ، لم يقدر أن يملك عنان غضبه ويسكّن من حدَّة مزاجه . فكان ذلك مُسقطاً لُحرمته ، مقللاً في النفوس من قيمته . وكثيراً ما حال خلقه هذا بين الناس وبين الإطافة به ، والانتفاع بعلمه ومواهبه . بل طالما هَدمَ بحدّته ، ما كان بناه من الاعمال والمشاريع بنيِّر فطنته

ومن الأحاديث الواردة في ذَمّ الغضب ، ومدح الرفق والاعتـدال ، قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« لاتغْضَبْ ولكَ الجنَّةُ »

« ألا أدُلُّكم على أشدِّكم ؟ أمْلَكُكم لنفسِه عند الغَضب »

« أشدُّكم مَنْ غَلَبَ نفسَه عندَ الغضب ، وأحْلَمُكم منْ عفا بعـد المقْدرَةِ »

ويعنى بقوله (أشدّكم) أقواكم وأقدركم على الغَلَبة . والعفو بعد المقدرة من أكبر علامات الرفق والاعتدال وامتلاك نَزَواتِ النفس وبوادر الغضب . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

« وجَبتْ محبَّةُ اللهِ لمَنْ غَضبَ فَحلِم »

« مَنْ يَغْفرْ يَغفِرِ اللهُ له . ومَنْ يَعْفُ يَعْفُ اللهَ عنه . ومَنْ يَكظِمِ الغَيظَ يأجُرْهُ اللهُ »

« مَنْ يكظِمْ غيظاً وهُوَ يَقدِرُ على إنْفاذِه ملأَ اللهُ قلبَهُ أَمْناً وإيماناً »

و « كَظْمُ الغيظ » كنايةٌ عن كفّ الغضب وإطفاء

(١) (ولم ار في الاعداء حين اختبرتهم عدواً لعقل المرء اعدى من الغضب)

﴿ إذا غَضِبَ أحَدُكُمْ فلْيَسكُتْ ﴾

﴿ ألا إنَّ الغَضبَ جَمْرَةٌ توَقَّدُ في جَوْفِ ابنِ آدمَ : فإذا وَجَدَ أحدُكم شيئاً مِنْ ذلك فالأرضَ الأرض ﴾

في هذين الحديثين وصفٌ لما به يسكن الغضب . وذلك بأن يشتغل الغضبان بما يَصْرِفُه عن التفكير فيما كان سبباً لإثارة غضبه : فيسكت بتاتاً أو ينهض عن جلوس ، أو يجلس عن قيام ، أو يتوضأ بالماء البارد ، أو يباشر غيرَ ذلك مما يُنسيه غَضَبَهُ ويُرجعه الى حالة السكينة والاعتدال . وقال بعض الحكماء « لاتدع عزَّةَ الغضب تصير بك الى ذِلَّة الاعتذار » يعني أن الغضبان المسترسل في غضبه قد يشعرُ في نفسه بشيء من العزة والتعالى غير أن هذه العزَّة الحمقاء تؤول أحياناً كثيرة الى الندم على ماكان فرَط منه ، فيُضطَرُ الى الاعتذار ، وطلب العفو . وكفى بهذا ذِلةً ومهانة . وقال آخر « الغضب على من لاتملك عجز ، وعلى من تملك لؤم » والمعنى أنك اذا غضبت على شخص لاتملك القدرة عليه ولا البطش به كان غضبك عجزاً لافائدة منه ، ولا تأثيرَ له . واذا غضبت على شخص هو في قبضة يدك ، وتحت سلطتك ، فمثل هذا يحتاج الى عطفك ورحمتك . فاذا غضبتَ عليه ، ونلتَ منه كان عملك لؤما ودناءة : اذ ليس من الكرم عقوبة من لم يجدْ امتناعاً من السطوة

بقيتْ ملاحظة جديرة بالتدبّر : ذلك أننا اذا نهيناك عن أن تضع باروداً في غرفة نومك ليس معناه أن لايكون عندك بارود تضعه حيث تأمن عليه الانفجار وخراب الديار . وتدّخره لوقت الحاجة التي اخْتُرِع البارود من أجلها . وهكذا غضبك ينبغي أن تكظمه فلا تغضب على أحد من أجل سفساف الأمور ومحقراتها . وفي أحوال لامعنى للغضب فيها بل تكون مما يسهل تسويته بالرفق واللين والحسنى . أمَّا اذا رأيت أمامك جريمة تقْتَرَف ، أو ظلماً يُرتكب ،

أو عرضاً ينتهك ، أو كرامة تمتهن ، أو حقاً يُداس ، أو عهداً يخاس ، فانه اذ ذاك لايكون معنى للرفق واللين ، ولا يكون كفّ الغضب من أخلاق الانبياء والمرسلين . بل بالعكس يجب الغضب في وجوه الظالمين المعتدين . والشدّة والغلظة على الآثمين الجاهلين

« ولا خيرَ في حلم اذا لم تكنْ له بوادر تحمي صفوَهُ أن يكدّرا »

وَيُسَمَّى الغضب الشريف إذ ذاك شجاعة أدبية وأنفة وحمية

الصدق والكذب

نسبةُ الصدق والكذب الى حياة الشخص وقيمته الأدبية في هذا الوجود كنسبة الأساس الى القصر المشيد فوقه : فاذا كان الاساس محكم الوضع ، متين الصُّنع استمر البناء الى ماشاءَ الله وأمنَه أصحابه : فسكنوا فيه وأوَوْا الى ظِلّه ، وإلا حذروا منه ، وأوصى بعضهم بعضاً بالابتعاد عنه . ثم لايلبث أن ينهار ، وتعفو منه الآثار . وهكذا المرء إذا اعتاد الصدق في أقواله وأفعاله أحبَّه الناس ووثقوا به ، وائتمنوه في المعاملة والمعاقدة ، وكان عضواً عاملا في خدمة قومه ووطنه . وإذا عُرِفَ منه الكذب زهدُوا فيه ، ومَلُّوا مجلسه ، وشكُّوا في كل قول يصدر منه . كما يرتابون في كل عمل يزْمعُه أو يدعو اليه . ثم يُصبح في المجتمع كالعضو الأشلّ لا يُنتفع به ، ولا يُعتمد عليه . فعلى الصدق والكذب يؤسس مستقبل المرءِ ومركزه الشخصيّ . وبمقياسهما تحدَّدُ درجة اعتباره ونجاحه في هذا الوجود . فلا غروَ إذاً أن يستمسك العاقل بعروة الصدق ولو أدّى به الى الضرر ، أو وقف معه موقف الخطر . كما يتجنّب الكذب ، ولا ينخدع بزخرف عاجله ، ونشوة باطله . . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

« تحرَّوا الصدقَ : وإنْ رأيتم فيه الهلَكَة فانّ فيه النّجاة . وتجنبُوا

الـكَـذِبَ وإنْ رأيتم فيه النجاةَ فإن فيه الهلَـكَةَ ﴾

وقد شدَّد الاسلام في النهى عن الـكذب ، وتعيير الكاذبين . والحضّ على الصدق وتقريظ الصادقين في غير ما آيةٍ وحديث من آياته وأحاديثه . من ذلك قوله تعالى :

﴿ إنما يَفتري الـكَذِبَ الذينَ لا يُؤْمِنونَ بآيات اللهِ وأولئك هم الكاذبون ﴾

أي إنما عذّبوا ذلك العذاب القاسي بما كان منهم من الـكذب والافتراء . وقال تعالى على لسان طائفة من الابرار يَبْرَأون الى الله من أن يكونوا ارتكبوا مانسب اليهم من الـكذب :

﴿ ما يَكونُ لنا أنْ نتكلَّمَ بهذا . سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عظيم ﴾

ويُروى أن قائلاً قال : يارسول الله أيكون المؤمن جبانا ؟ قال « نعم » . قال أفيكون بخيلاً قال « نعم » . قيل : أفيكون كذّابا ؟ قال « لا » فانظر كيف جعل الـكذب لا يجتمع مع الإيمان أبداً . ويشبه هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يُطْبَعُ المؤْمِنُ على كلِّ خُلُقٍ إلاَّ الخيانة والـكَذِب ﴾

﴿ لا تجْتَمِع خَصْلَتانِ في مُؤْمِنٍ : البُخْل والـكَذِب ﴾

﴿ آيةُ المُنافِق ثلاثٌ : إذا حدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وعَدَ أَخْلَفَ ، وإذا ائْتُمِنَ خان ﴾

﴿ كَبُرَتْ خِيانةً أنْ تُحَدِّثَ أخاكَ حديثاً هُوَ لكَ به مُصَدِّق وكُنْتَ له به كاذب ﴾

﴿ عليكُمُ بالصدْقِ فإنه مع البِرّ وهما في الجنَّة . وإياكم والكَذِبَ فإنه مع الفُجور وهُما في النار ﴾

﴿ أعظمُ الخطايا اللسانُ الـكَذُوب ﴾

﴿ أحبُّ الحديثِ الىَّ أصْدَقُه ﴾

﴿ ويْلٌ للَّذي يُحَدِّثُ فيكْذبُ ليُضْحكَ به القومَ ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ لهُ ، ويلٌ له ﴾

﴿ إيَّاكُمْ والـكذِبَ : فإِنَّ الـكَذِبَ لا يَصْلُحُ في الجِدِّ ولا الهزْل . ولا يَعِدِ الرجلُ صبيَّهُ ثم لا يفي له ﴾

نهاك الشارع عن الكذب مطلقا حتى مع طفلك الصغير فهو لم يجوّز لك أن تعِدَه بشيءٍ ثم تخلف . فإِنك بذلك تدرّبُه على الـكذب من جهة ، وتفتح على نفسك باب تعب من جهةٍ ثانية : فان حاجات الصغير لا تنفذ وتكليفه لك لا ينقطع . فاذا كذبتَ عليه مرة لم يعُد يصدّقك . فهو يلحُّ عليك بطلب حاجاته . وكلما وعدته شك في وعدك وكرّر الطلب والاستيثاق منك الى ما لا نهاية .

(كذَبْتَ وَمَنْ يَـكْذِبْ فإِن جزاءه إذا ما أتى بالصدق أنْ لا يُصدَّقا)

ويُرْوى أن ليلى بنت أبي خيشمة نادتْ ابنها الصغيرَ قائلةً « ياعَبْدَ الله ! تعالَ هاكَ » أي خذ . فقال لها ﷺ « وما تعطِينه » ؟ قالت « تمْراً » فقال :

﴿ أمَا إنَّكِ لو لمْ تعطيه كُتِبَتْ عليك كذبة ﴾

وان ما نصح لنا به ﷺ من النهْي عن الـكذب على الصغير (ومثله المرأة) هو الحقُّ والخيرُ في راحة البيت ونظام العائلة . وإن المرأة أرفع شأناً من أن يُكذب عليها ويُنظر اليها كالطفل الصغير . وهى متأهلة اذا اعتُني بتربيتها أن تبلغ أعلى درجات الـكمال والفضيلة والقيام بالواجبات الشخصية والاجتماعية معاً . على أن ربّة البيت والطفل والخادم اذا آنسُوا من ربّ البيت كذبا وخداعا جارَوْه في هذا المِضْمار ، وغنّوا بأبشع الأنغام على هذا المزمار . ولا شيء يضمن الراحة والهدوّ في العائلة مثل أن يجعل رَبُّها عماد معاملته لافراد أسرته الصّدْق والاخلاص وتحرّي الحق في القول والعمل . فان الأمور بينهم

إذ ذاك تمشي على السَداد ، ويتقلّص من البيت ظل الشرّ والفساد . وجوّز بعضهم الكذب في الحرب لأن الحرب كما ورد خدعة . غير أنه ينبغي التورية والتعريض في ذلك وتجنب الكذب الصريح . ومثله الكذب في إصلاح ذات البين ، بين الأخوين أو الصديقين : استحسنوا ذلك مع مراعاة التورية والتعريض في القول والنقل . ويدخل في بحث الصدق والكذب الوفاء بالوعد ، والنكثُ به ، والفرق بينهما أن الاولين يكونان في الأخبار الماضية ، والأخيرين في المواعيد الآتية . وجميعُ ماوَرَدَ في القرآن والحديث مما يتعلّق بالصدق والكذب حضاً ونهياً ينطبق على الوفاء والخُلف ويشملهما : فإنها كلها تتشعّب من أصل واحد ، وتنتهى الى أثر واحد . قال الجاحظ : « الصدقُ والوفاء توأمان ، وفيهما صلاحُ الدين والدنيا . والكذب والغدر توأمان ، وهما سبب كلّ تفرقة وفساد » وانظر في الحديث السابق كيف نهى ﷺ عن الكذب وأتبعه بقوله :

﴿ ولا يَعد الرجلُ صَبيَّهُ ثم لايفى له ﴾

فجعل الوعد والوفاء من شُعَبِ الصدق أو من أنوَاطِه

ومن أحسن أبيات الحِكَم في الحضّ على الوفاء بالوعد والاحتياط في أمره قولُ أبي الأسود الدُؤلى رضي الله عنه وهو :

(واذا وعدتُ الوعدَ كنتُ كغارمٍ دَيناً أقرّ به وأحضر كاتبا)
(حتى أنفّذَه على ماقلتُه وكفى عليّ به لنفسيَ طالبا)
(واذا منعتُ منعتُ منعا بيّنا وأرحتُ من طول العناء الصّاحبا)

يقول إنه إذا وعد آخَرَ التزمَ وعده واكّده على نفسه كما يلتزمُ المديونُ أداء دينه بالإقرار به ، وتسجيله في صكّ عن يد كاتبٍ حتى ينفذه في أجله المعلوم . وانه هو لايحتاج الى مَنْ يذكره بالوعد ، ولزوم الوفاء به فانّ نفسه

هي الكفيلة بذلك . ثم إنه إذا أحسّ من نفسه العجز عن الوفاء لصاحبه بالوعد الذي وعده بيّنَ له من أول وهلة أنه غير قادر على الوفاءِ والإنجاز ويكون بذلك قد أراح صاحبه من التعب والعناء وطول المراجعة . فنعم هذا الخلق الكريمُ من أبي الأسود وحبّذا لَوْ قلده فيه الكثيرون من الناس

ونختم هذا البحث بما رواه القاضى عياض فى الشفا. عن عبد الله بن أبى الحمساء قال :

بايعتُ النبى صلى الله عليه وآله وسلم ببيعٍ قَبْلَ أن يُبْعَثَ وبَقيَتْ له بقية (أي من المبيع) فوعدته أن آتيَه بها في مكانه أي حيث عُقد البيع فنسيتُ ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام فجئت فاذا هو في مكانه فقال :

﴿ يافتى لقد شَقَقْتَ عليّ : أنا هٰهُنا منذ ثلاثٍ أنتَظِرُكَ ﴾

الحياء والاحتشام

« الحياء » ومثله « الاحتشام » انقباض النفس من الشيء وتركه حذَراً من اللوم فيه . أما « الخجل » فهو الإفراط في « الحياء » بحيث يضطرب المرء ويتحير من شدة « الحياء » أو بحيث تنقبض نفسه من فعل الشيء الذى لاينبغى الاستحياء منه . « فالحياء » هو الاعتدال في الخلق ، وهو محمود . والخجلُ الافراط أو تجاوز الحدّ فيه ، وهو مذموم . وهذا ككثير من الأخلاق التى يتجاوز فيها حدّها المحمود الى ضده : كالسّرفِ بالنسبة الى الجود ، وكالتهور بالنسبة الى الشجاعة ، وكالحرص بالنسبة الى الكسب . وقد قال الحكماء « حياء الرجل في غير موضعه ضعف » وقالوا أيضا « الحياء يمنع الرزق » ويشبه أن يكون خلُق « الحياء » أثراً من آثار العقل في الانسان أو هو مظهر من مظاهره الكبرى : اذ أنهما كليهما يعقلان المرء ويحبسانه عن فعل السوء والشرّ . قال

الامام الغزالى : إذا رأيتَ الطفلَ يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل في نفسه . وهذه بشارة تدلّ على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب فيه : فالصبيّ المستحى لا ينبغي أن يُهمل بل يُستعان على تأديبه بحيائه . وقد جعل الشرع الاسلامى هذا الخلق أيضاً من الأخلاق المقوّمةِ للإيمان ، والمتممة له . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الحياء شعبةٌ من الايمان ﴾

﴿ الحياء نظامُ الإيمان ﴾

و « النظام » السلك الذي يُمْسِكُ ويَضُمُّ لآلىء العقد، فالحياء يَضُمُّ اليه جميع أخلاق الإيمان وفضائله السامية وإذا زال زالت هذه الأخلاق والفضائل . كسلك العقد إذا انقطع تبدَّدَتْ اللآلىء ، وتناثرت في كل وجه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الحياء والإيمانُ مقرونان : فاذا سُلب أحدُهما تبعه الآخر ﴾

﴿ قلّةُ الحياءِ كفر ﴾

أي انه يحمل صاحبه على ارتكاب ما لا يرضى الله وما يوجب سخطه وهو كفر . أو المعنى أنه آية من آيات الكفر . وليس هذا فقط بل إن الشارع صلى الله عليه وآله وسلم جعل الحياء خُلُقَ دين الاسلام الخاص به فقال :

﴿ لكل دينٍ خُلُق وخُلُق الإسلام الحياء ﴾

ولا غَرْوَ فإن هـذا الخلق هو الذي يحملُ الانسان على فعل أو ترك ما يريده الاسلام من الانسان في هذا العالم : فاذا استحكم هذا الُخلق في نفس الانسان صَدّه عن كلّ قبيح ، وقاده الى كل حسن . وعلى العكس إذا ضعف أثره واضمحل ، وحلّتْ محله الوقاحة والسفَه سَهُلَ على صاحبه إذ ذاك ارتكاب كل منكر . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿إن مِمَّا أدرَكَ الناسُ من كلامِ النبوّةِ الأُولى : يا ابنَ آدمَ اذا لم تَستَحِ فاصنَعْ ما شِئْتَ﴾

أي ان هذه الوصية من بقايا ما أوصى به الأنبياء أممهم في سالف الأحقاب.

وقوله « فاصنع ما شئت » ليس أمراً بارتكاب ما شاء من الرذائل وانما هو من أساليب بلاغة اللغة العربية : فهو يفيد أن المرء بعد فقده الحياء يُصبِح مأيوساً منه ، وجديراً بارتكاب كل رذيلة

ويُروى أن علقمة بن عُلاثة رضي الله عنه قال : عِظني يارسول الله . فقال له:

﴿استحي من الله استحياءك من ذوي الهيبة من قومك﴾

أي اترك ما يسخِطُ ربك عليك حياءً منه تعالى مثلما انك تستحي أن تفعل شيئاً قبيحاً في مجلس ضمَّ عظماء عشيرتك والموقّرين المحترمين من قومك ، وان الله خالقك أحق وأجدر بهذا الاحترام منهم . فالحياء من الناس حسن ولكن الأحسن منه بل الأنفع لك أن تستحي من الله الذي تعتقد أنه مطّلع عليك في جميع حالاتك وخلواتك ، إذ أن الحياء منه تعالى يأخذ بحُجْزتك عن فعل كل قبيح في كل وقت ، وفي كل مكان ، لا أمام الناس فقط . ومثلُ الحياءِ من الله في النفع والفائدة استحياء الانسان من نفسه أي أن يكون لنفسه في نفسه قيمة وحرمة فيترك القبيح حياءً منها ، وفراراً من توبيخها ، كما يتركه حياءً من الناس وفراراً من تعييرهم . وإن لم يفعل سَجَّلَ على نفسه بنفسه الذلّ والصَغار مذ جعل نفسه في منزلة أحطّ وأسفل من منازل جميع الناس . والعاقل يَرْبَأُ بنفسه عن مثل هذا الموقف . وهذا ما عَنَاه الشاعر بقوله :

(فَسِرِّي كإعلاني وهذي خليقتي وظُلْمةُ ليلي مثلُ ضوءِ نهاري)

ومن اللطائف ما حُكي أن اخواناً دعوا رفيقاً لهم الى بعض مجالس لهوهم فلم يُجبهم وكتب اليهم « اني دخلتُ البارحة في الأربعين من عمري وأنا أستحي

من سنّي » . وكان أبو بكر رضي الله عنه يتمثل بهذا الشعر كثيراً :

(إني كأني أرى مَنْ لا حياء له   ولا أمانة وسط القوم عُرْيانا)

أي أن الوقح الذي لا أمانة له على سرٍّ تحمِلهُ وقاحتهُ وقلةُ حيائه على معالنة كل شيء والجرأة على ارتكاب كل قبيح على مرأى ومسمع من الناس فيعلمون من سرائره وخلائقه ما كان ينبغي أن يبقى مكتوماً ، ويصبح فيهم كأنه عُريان مجرّد لا يواريه شيء . ومن الكلمات المأثورة عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في هذا المعنى قوله « مَن كساه الحياء ثوبه لم ير الناسُ عيبه »

الأمل واليأس

علمتَ مما ذكرناه في بحث « الصبر والشجاعة » ما لهما من الفضل والمزية والاثر البين في حياة البشر ونجاح مساعيهم أفراداً ومجتمعين . وقد بقي أنْ تعلم أن الصبر والشجاعة والثبات في الأعمال لا يحييها في نفس المرء الا « الأمل » ولا يميتها الا اليأس . كن آملا فأنت شجاع صبور ثابت ، وكن يائساً فأنت جبان جزوع مضطرب . « الأمل » قَبَس من نور يمشي أمامك في مسارب هذه الحياة ، أما « اليأس » فسَدْفة من حلك الظلام تتكاثف أمام عينيك فتعمى عليك السبل ، وتسدُّ في وجهك أبواب النجاح . الأمل روح العمل وكل عمل لا يتخلله أمل كان كالجسد الذي ليس فيه روح ، فسُرعان ما ينحلّ ويدركه الفساد . فكيف لا يكون « الامل » إذن من أكبر الفضائل النّفْسية ، وأعظم الواجبات الشخصية . وإن من طلب من نفسه الجَلَدَ والثبات في العظائم وحين اشتداد الأهوال والمصائب وهو يائس قانط كان كمن يزاول عملا بيد مشلولة . أو يرفع ثقلًا بعَتَلَةٍ (مُخْل) غير مستندةٍ على نقطة ارتكاز

ومن ثمّ شدّد القرآن الحكيم في النهي عن (اليأس) وجَعَلَهُ من سِمات الجاحدين فقال تعالى :

﴿ ولا تيأسُوا مِنْ رَوْحِ الله : إنَّهُ لا ييأسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاّ القومُ الكافرون ﴾

والمراد من (رَوْح الله) رحمته وإحسانه ومعونته ، وقال تعالى :

﴿ ومَنْ يقنطُ مِنْ رحمةِ ربه إلاّ الضَّالون ؟ ﴾

﴿ يا عِبادِيَ الذين أسْرَفُوا على أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله ﴾

فاذا كان اليأسُ منهيًّا عنه أو محرَّماً في الاسلام كان ضدّه وهو (الأمل) مأموراً به ، ومعدوداً من كريم خصال الاسلام . وفي معنى الأَمل « الثقةُ » و « الرجاء » و « التوكّل » . ومع هذا فلا بدّ من أن نشترط لهذه الكلمات الأربع شرطاً حتى يكون لمدلولها اعتبارٌ وقيمة في نظر الشرع والعقل ، ذلك أن يكون لك ـ وأنت « واثق » « راج » « آملٌ » « متوكّلٌ » ـ عملٌ أوسعي أو سوابق أو أسباب تستند اليها تلك الثقة ويبتني ذلك الأمل . والاّ فان كنتَ مفرّطاً مهملا متقاعداً عن العمل والسعي ومراعاة سنن الله ونواميسهِ في خلقه وقلت في نفسك إنك « واثق » « راجٍ » « متوكل » « آمل » كان هذا منك « تمنّياً » و « غروراً » و « خداع نفس » وهي صفات مذمومة في الشرع والعقل . قيل للحسن البصري : قوم يقولون « نرجو الله » ويضيعون العمل . فقال « هيهات هيهات ! تلك أمانيُّهم يترجّحون فيها ، مَنْ رَجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً اجتنبه » وقوله (يترجّحون) أي كانهم يتشبثون بأُرْجوحة يتذبذبون فيها ، ويتمايلون يَمْنَةً ويَسْرَةً . فمحمود الأمل هو ما قارنه محمود العمل . قال تعالى :

﴿ المالُ والبَنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا . والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند

رَبك ثَوَاباً وخيرٌ أملاً ﴾

أي ان الأعمال الصالحة خيرُ ما يعتمدُ عليه الآمل في أمله . وقال تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا والذينَ هاجَروا وجاهَدُوا في سبيل الله أولئك يرجونَ رحمة الله ﴾

فانظر كيف ناط رجاءهم وهو أملهم بما سَبَق لهم من الأعمال الصالحة .

وفي هذا النوع من الأمل المحمود قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إن الأمَلَ رَحمةٌ من اللهِ لِأُمَّتي : لَولا الأمَلُ ما أرضعت أمٌّ ولَدَها ، ولا غَرَسَ غارسٌ شجراً ﴾

فقد قرن الأمل بسعي الأمّ في الارضاع وسعي المزارع في الغرس . وقال بعض مشاهير الكتّاب المعاصرين « كم أنت أيها الأمل محبَّب الى النفوس . أنت وحدك الذي تنقذ البشر من المحن والنكبات مهما تراكمت » وقال كاتب آخر « الحياةُ أن تعرف وتؤمّل وتحبّ وتعجب بكل ما هو جميل » وقال آخر « الحياةُ من غير أمل كالبيت من غير نافذة ، وهذا هو الاختناق بعينه » . وقال بعض الحكماء : أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء . وقال الطغرائي :

(أعلّلُ النفسَ بالآمال أرقبها ما أضيق العيشَ لولا فُسْحَةُ الأمل)

وكلُّ هذا محمول على الأمل الشرعي المحمود . أمّا اذا تجرّدَ الأمل عن العمل ، وتجلببَ بالتواني والكسل ، فهو التمنّي المذمومُ . وقد جاء الاسلام وصريح القرآن بالنعي على أصحابه فعلّمهم وطريقتهم مذ قال تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يأكلوا ويَتمتَّعوا ويُلهِهمُ الأملُ فسَوْفَ يَعلمون ﴾

﴿ ولكنكم فتنتُم أنفُسَكُمْ وتَرَبَّصْتمْ وَارْتبتمْ وغَرَّتْكمْ الأماني حتى جاءَ أمرُ الله ﴾

﴿ يَعِدُهمْ ويُمنّيهمْ ومَا يَعِدُهمُ الشيْطانُ إلاَّ غُرُوراً ﴾

ومحصَّل القول أن الأمل المحمود هو انتظار أمر قد بذرت له البذور التى تُنبته ، ونُصبتْ من أجله الشباك التى تُمْسكه وتثبته . إغرِس وآمُل الثمرة . تزوّج وآمُل الولد . اكتسب وآمُلْ الرزْق ، أمّا إذا أمّلت فيها من دون غرسٍ ولا زواجٍ ولا كسبٍ كان فعلك باطلا ، وأملك كاذِباً

واذا تعاطيت الأسباب كان من واجباتك حينئذٍ أن تقوي في نفسك الامل في النجاح ولا تجعـل لليأس سبيلاً اليها . وأكمل ضروب الأَمل وأوثقها أن تؤمل بالله تعالى الذي بيده الامر كله . وهو الذي منحك القوَى والمشاعر ، ويسَّرَ لك الأَسبابَ والوسائط ، وأقدرك على اتخاذها ، وطُرق التوسل بها . هناك أقوام يذهلون عن هـذا الضرب الـكامل من الامل فلا يستشعرونه لحين التفكر في المستقبل . وإنمـا يجعلون كل ثقتهم وأملهم في عزائمهم ، وقوَى نفوسهم . أو في إحكام ما دبّروه من الوسائل والأَسباب وفي مُواتاة الأَقدار والمصادفات . وهـذه الثقة العميـاء على قصورها ونقص كفايتها خيرٌ من اليأس والقنوط وتوقّع الخيبة والحرمان من وقت الى آخر .

ومن أقبح ضُروب (اليأس) أن يتقاعد المرء فلا يتعاطى سبباً في جلب خير ، أو دفع ضرٍ ، توهُّماً منه أن ذلك غير مُجْديهِ نفعاً ، ولا مُنجيهِ مما هو فيه فيعيشُ كاسفَ البال حزيناً . وليس هذا يأساً بل هو في الحقيقة نوعٌ من الوسواس والخبَل إذا تفشّى في الامم ، واستحكم في نفوسها ـ حتى صرفها عن النظر في مستقبلها ، والعناية بمصالحها ـ كان من أقوى العوامل في تقويض بنيانها ، وتعفية آثارها ، وإدالة غيرها منها . أعاذنا الله منه ، ووقانا شرَّ عواقبه . وربما كان هـذا النوع من اليأس هو الذي سمّت الآيات السابقة أصحابه كافرين وضالّين . وليس عاراً على الانسان أن تصيبه نائبة من نوائب الدهر ، وانما العار

عليه أن يستسلم لليأس ويقنط ، حتى اذا سقط لم ينشط، واذا رقد لم ينهض. وقد أشار القرآنُ الى أن خُلق اليأس والجزع مما رُكّب في فطرة البشر ، لكنّ الموفق منهم مَنْ عاجله فعالجه بتربية نفسه ، وتقويم ما اعوجّ من أخلاقه . من ذلك قوله تعالى :

﴿ إن الإنسانَ خُلِقَ هلوعا : اذا مَسَّهُ الشرُّ جَزوعا . واذا مسّه الخيرُ منوعاً ، الا المصلين ﴾

والمعنى أن الله تعالى خَلَق الانسان ، وغرس في نفسه هذا الخلق الذي هو الهلع . فهو « اذا مسه الشرّ » ونزل به المكروه : من فقرٍ أو مرض أو خوف كان « جزوعا » فيستولى عليه اليأسُ والقنوط ، ويحسب أن مانزل به غير مُقلع عنه : فالفقرُ لا يعقبه غنى ، والمرض لا تخلفه صحّة ، والخوف لا ينسخه أمْن . وكثيراً ماقاده يأسه الى ارتكاب معصية أو منكر أو قتل نفسه أحياناً . «واذا مسه الخير» وتيسّرت له أسباب الرغد ، وغضارة العيش فأصبحَ غنيا ، موسعا عليه في الرزق ، صحيح الجسم معافي ، موفورَ الكرامة ، نافذ الكلمة ، ذا جاهٍ ومنصبٍ كان اذ ذاك « منوعاً » يمنع الناس رفده وماله ومعونته والانتفاع بجاهه . ثم استثنى القرآن في تتمة هذه الآية [١] أقواماً طبعوا نفوسهم بطابع التربية الصالحة ، والقدوة الفاضلة ، فقوّوْا فيها عاطفة التدين وحبّ الخير والتزام الحقّ والعدل ، فآمنوا وأحسنوا وعفُّوا ووفوا ، وعملوا الصالحات وكفُّوا عن السيئات حتى نالوا أرفع الدرجات

العمل والسعى

ليس بين الواجبات الشخصية ماهو أعزم وأوكد من واجب السعي

(١) راجع تتمة هذه الآية في سورة المعارج (سأل سائل) الآية الثانية والعشرين فما بعدها

والعمل . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ان الله كَتَبَ عليكم السعيَ فاسعوا ﴾

ومعنى « كتب » عزم وأوجب وألزم . واذ كانت حياة الانسان الادبية أو قيمته الأدبيـة متوقفة على واجب الصدق فان حياته المـادية أو قيمته المـادية متوقفة على واجب السـعي والعمل ، سواء في ذلك الانسان باعتبار شخصه منفرداً أو فرداً عائشا في أمة . وقد قال بعض كتاب الغرب « ليست الحياة يوم عيدٍ ولا يوم حداد ، وانما هي يوم عمل » وان عظمة الأمم انما تقاس بمقدار سعي أبنائها ، ومحصول أتعابهم . وكل أمة أنفتْ من الأعمال واستحلت طعمَ الراحة والبطالة اسرع اليها الفناء والاضمحلال ، وخلفها غيرُها من الأمم العاملة النشيطة : فالرومانيون مثلاً لم يبيدوا ويذهب سلطانهم الآ حين احتقروا العمل وأخلدوا الى البطالة واللهو والترف ، حتى كانوا يرون أن الاعمال لا تليق الا بعبيدهم : وقد جعل الشرعُ الاسلامي حظّ كلّ انسان في حياتيه : الدنيوية والاخروية ، منوطاً بعمله ومتوقفا على مقدار سعيه لهما . فقال تعالى :

﴿ وأنْ ليسَ للانسانِ الآ ماسعىٰ وأنَّ سَعيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثمَّ يُجزاهُ الجزاءَ الأوفىٰ ﴾

أي ان حظه من المـكافأة والنجح في الدنيا والآخرة سيكون على قدر مايبذله من العمل والسعي : خيراً أو شراً قليلاً أو كثيراً . وجاء هذا المعنى أيضاً في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ انَّ اللهَ يُعطى العبدَ على قدر همتهِ ونهمته ﴾

« همته » كدّه واجتهاده . و « نهمته » حرصه ورغبته

ومما ورد في السُّنّةِ من التنويه بشأن العمل أن النبيّ ﷺ كان جالساً مع أصحابه ذات يومٍ فنظروا الى شابٍّ ذي جَلَدٍ وقوةٍ قد بكر يسعى فقالوا « وَيْحَ هذا لو كان شبابُهُ وجَلَده في سبيل الله » أى في الطاعات البـدنية من صلاةٍ

وصيام وجهاد . فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لاتقولوا هذا : فإنه إنْ كان خرج يسعى على ولده [1] صغاراً فهو في سبيل الله ، وإنْ كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإنْ كان خرج يسعى على نفسه ليعفها فهو في سبيل الله ، وإنْ كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو سبيل الشيطان ﴾

وسبيلُ الله كما يُفهم من هذا الحديث كلّ طريق يسلكه الانسان في تحصيل مابه خيرهُ وسعادته وهناؤه ، بشرط أن يكون سعيه مرتكزاً على نية صالحة ، وقصد كريم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ في التحذير من البطالة وسوء نتائجها ـ :

﴿ البطالةُ تُقسّي القلبَ ﴾

﴿ إذا قصّر العبْدُ في العملِ ابتلاهُ اللهُ بالهَم ﴾

لا جرم أن الهموم والاكدار والأماني الباطلة وقسوة القلب وجرأته في ارتكاب المحرمات والآثام والعدوان على الغير ـ كل ذلك إنما يكون من ذوي البطالة والفراغ والعطلة عن العمل . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أخشى ما خشيتُ على أمّتي كِبَرُ البطن ، ومُداومةَ النوْم والكَسل ﴾

« كِبَرُ البطن » كنايةٌ عن انتفاخه وامتلائه بالطعام مما يكون مجلبة للكسل ، والعجز عن متابعة العمل . فالشارع عاب الكسل عن العمل ومايؤدي اليه من الافراط في النوْم والأكل

﴿ سافِروا تصحّوا وتَغنَموا ﴾

يعني أن الغنم والربح والمنافع الدنيوية اذا كانت تتوقف على السفر والضرب في البلاد فسافروا لأجل الحصول عليها ، فانكم اذا فعلتم تنالون ما

---

(١) كلمة (ولد) تكون مفرداً وجمعا كما هنا

تريدون منها ، وتستفيدون فوق ذلك صحة وقوة جسم . ولا تكسلوا فتلزموا بلدكم مفضّلين الراحة والبطالة والإعدام ، فان هذا ليس من دأب ولا أدب أهل الاسلام

﴿ إعمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له ﴾

يشبه أن يكون أراد صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الردَّ على الكسالى المتقاعدين عن العمل ، المتعلّلين بأن الله تعالى يُيسّر لكل إنسانٍ من حظوظ الدنيا وخيراتها ما كان سبق وقدّره له في لوح علمه وتقديراته : فهو ينهاهم عن هذه الفكرة الممقوتة المنافية لصحيح تعاليم الاسلام . ويقول لهم : أنتم اسلكوا الطرق الموصلة عادةً الى خيرات الدنيا والآخرة ، واللهُ تعالى يُيسّرُ لكل منكم ما قضاه وقدره له . يعني أن ما قضاه وقدّره لكم هو غيب عنكم ، أما أسباب ذلك فظاهرة مبسوطة بين أيديكم ، فلماذا تعرضون عن هذه الأسباب الظاهرة القريبة من متناول هممكم ، وتشغلون أنفسكم بقدر الله الغائب عن متناول حواسّكم . وما أحسن ما قاله الامام جعفر الصادق من أئمة آل البيت رضي الله عنهم في هذا المعنى « إن الله أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً : فما أراده بنا (وهو القدر) طواه عنّا ، وما أراده منا (وهو العمل وأسبابه) أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منا »

وبالجملة فان أعدى أعداء العمل التوكّل الكاذب المقرون بالاهمال والتقاعد وترك السعي . وأقوى أنصار العمل وأشد أركانه التوكل الصحيح الشرعي المقرون بالسعي والحركة والنشاط ، واتخاذ الأسباب الظاهرة التي أمرنا الله ونبيه صلى الله عليه وسلم بمراعاتها ، والسير على سنَنها . ويوضح ذلك ما كان من إرشاده صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابي الذي أراد أن يسرّح ناقته فلا يعقلها ولا يوثقها اتكالا على الله مذ سمع ما للمتوكلين من الفضل ، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم مفسّراً معنى هذا الاتكال بأوجز عبارة وألطف إشارة :

﴿ اعقِلْ وتوكلْ ﴾

أي اجمع بين الأمرين : بين اتخاذ السبب ، و بين الاتكال عليه تعالى في أن يجعل ذلك السبب مؤدياً الى حفظ الناقة : فلا يَعْمَدُ اليها لصٌّ يسرقها أو غلام عارمٌ يحلُّ وثاقها و يُطلقها

هذا هو التوكل الشرعي الصحيح : أن توجدَ أيها العامل عملك باتخاذ أسبابه . ثم تنفخ فيه روح التوكل على الله فلا تقنط من توفيقه ، وكريم عنايته ، وخَفيِّ لطفه . فاذا فعلت هذا شعرت إذ ذاك ببرد الأمل في قلبك ، ولذة العمل في نفسك . أما التوكل من دون عمل ، والعمل من دون توكل فكلاهما ناقص التركيب ، ليس له من الفائدة والقيمة الشرعية أدنى نصيب

وللأعمال والمساعي شروط وآداب : منها المحافظة على الوقت واعتباره رأس مال عظيم : فلا ينبغي أن يضيع منه جزء من دون عمل يُملأ به . وان الوقت بالنسبة الى العمل كالأرض بالنسبة الى الزرع : فكما يجب عليك أن تحافظ على تلك أرضك لأجل بذر زرعك الذي هو مادة معيشتك كذلك يجب عليك أن تحافظ على وقتك من أجل ممارسة عملك الذي هو مادة حياتك . وقد نوّه القرآن بالوقت ، وأشار الى قيمته مذ أقسم تعالى فقال :

﴿ والعَصْرِ إنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ﴾

جعَلَ كل البشر في خسران ، ثم استثنى منهم المؤمنين الذين يعملون الخير . ولما كان العمل لا يمكن أن يقوم بنفسه من دون وقت يقع فيه أقسم بالوقت فقال (والعصر) منبهاً الى وجوب مراعاته والاحتفاظ به . وكلمة (العصر) في أصل معناها اللغوي مطلق الوقت ، ثم شاعت في أحد معانيها وهو الوقت المتوسط بين الظهيرة والغروب

ومن شروط العمل أيضاً الثباتُ عليه من دون مَلَلٍ ولا ضجر . وانَّ عملا

قليلا دائماً ترافقه الهمة والنشاط خيرٌ من عمل كثير يؤدّي الملل منه الى تركه والانقطاع عنه بتاتاً . وهذا ما أراده صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ أحبُّ الأَعْمالِ الى اللهِ أدْوَمُها وإنْ قَلّ ﴾

ليست العبرة بالكثرة في العمل الذي يعقبه تراخٍ وكسل وإنما العبرةُ في المثابرة عليه ، وإن كان قليلا ، حتى يبلغ العامل الغاية منه ، ويجتني ثمرته

ومن شروط العمل اختيار الأعمال النافعة ذات القيمة والأثر الحسن في مصالح الانسان الشخصية والاجتماعية . أما السعي والجدّ في أعمال عقيمة لا تفيد ولا تنفع أحداً فهو من الجهل أو الحمق . كما يحكى أن أحد الملوك الأقدمين كلف نقاشاً ماهراً أن ينقش صورته في الجليد ففعل بعد كدّ وتعب ، ثم ما لبث أن ماع الجليد وغابت الصورة . وهكذا أعمالنا التي لا نراعي فيها المصلحة الثابتة : لا تلبث أن تضمحلّ وتزول آثارها ، لكن قد يبقى علينا عارها

بقيت مسألة شديدة التعلق بموضوعنا هذا : وهي أنه إذا كان للانسان من الرزق أو الارث ما يكفيه مؤونة العمل والسعي جملةً واحدةً أو يحتاج اليه في وقت دون وقت : فبعض الأقدمين من علمائنا يرى أنه ليس من واجبات هذين الشخصين العمل والسعيُ في كل وقت أو في بعضه ما داما غير محتاجين اليه

فالأوّل يبقى في البطالة طولَ أيام حياته والثاني معظمها . لكنّ هذا القول إن كان يلائم حالتهم الاجتماعية في ذلك العهد فان الحال اختلفت في زماننا . وأصبح العمل والسعي واجباً شخصياً أو اجتماعياً على كل فرد من أبناء مجتمعنا . حتى إذا كان الشخص نفسهُ مستغنياً عن الفضل والزيادة الناتجة عن عمله وسعيه فان الوطن ومجموع الامة غير مستغنين عن ذلك . وكل وطني مَدين لوطنه وأمته بوجوده وحياته وأمْنِه على نفسه وأملاكه وكرامته . ومن جهة ثانية فان عظمة

كل أمة وارتقاءها وثبات قدمها في هذا المعترك الهائل وسبقها ولو أشواطاً في هذا الميدان ـ الذي تتسابق فيه أمم العالم ـ كل ذلك يتوقف على عمل كل فرد من أفراد تلك الامة ومبلغ سعيهم في ايجاد المشاريع العمرانية والاقتصادية . فقوة الأمة إنما تنتج عن شدة تعبها في أعمال حياتها ، والقيام بواجباتها . كما أنّ قوة الأسد الجسمية ما نتجت إلا عن شدّة تعبه في تحصيل قوتِهِ وضرورات معيشته

(وما غلظت رقابُ الأسْد حتى بأنفسها تَوَلَّتْ ما عناها)

ومُحصّلُ القول أن العمل ركنٌ من أركان سعادة الفرد والجماعة وأنه ينبغي للمُرَبّين والمعلمين أن يقولوا للصغار : إن الطريق المفروش بالأزهار ، لا يوصل الى المجد والعز والفخار . وان نجاحكم ونجاح وطنكم منُوطان بعمل كل واحد منكم ومتوقفان على مقدار ما يبذله من الحركة والسعي والنشاط ، وانه ليس من الانصاف ولا العدل أن يعيش الانسان على حساب غيره من بنى وطنه فيتمتع بخيرات الوطن الناتجة عن تعب أبنائه ومجهوداتهم المختلفة ثم لا يشاركهم في عمل ما هو واجب عليه من هذا القبيل ليستفيدوا منه كما استفاد هو منهم بالمقابلة . وقد أوعد الشارع هذا العاطل الكسلان أشد وعيدٍ بقوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أشَدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ المَكْفِيُّ الفارغ ﴾

ويعنى « بالمكفيّ » الذي يكفيه غيرُهُ ضرورات حياته ، و « بالفارغ » العاطلَ عن العمل ، المُخْلِدَ الى البطالة والكسل . ومما يحسن إيراده في ختام هذا الباب ما جاء في كتاب (كشف الغمة) عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه أنه قال: جِعْتُ يوماً فخرجتُ أطلب العمل فى عوالي المدينة فاذا أنا بامرأةٍ قد جمعت مدَراً تريد بَلّه فقاطعتها : كلّ ذَنوب[1] على تمرة فملأتُ ستة عشر ذَنوبا حتى

---

(١) الذنوب بفتح الذال الدلو

مَجَلَتْ يداي (١) ثم أتيتها فقلت بكفي هكذا بين يديها (يعني انه بسطهما لها لترى مَجَلَهما فتوفيه أجرته) فعدّت لي ستّ عشرة تمرة فأتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرتُه فأكَلَ معي منها

الزراعة والصناعة

هما أيضا من جملة طرق العمل والسعى كالكسب والتجارة . بل هما الأصل الذي بنى عليه نظام معيشة الانسان منذ يوم استقل انسانا مدنياً على وجه الارض . ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أفضَلُ الكَسْبِ الزِراعةُ ، فإنَّها صَنْعَةُ أبيكم آدم »

والإنسان بعد ان مارس الزراعة تحصيلاً لقوته زمناً طويلا عاد فاشتغل في تحصيل ضرورات حياته الاخرى كالكساء والإناء والبناء من طريق الصناعة على أبسط حالاتها ، حتى اذا ارتقى في الصناعة والزراعة بعض الارتقاء ، وتكاثرت محصولاتهما بين يديه ، انتبه الى لزوم نقلها والمقايضة بها . فنشأت التجارة ، ثم نشأت الامارة للحماية والدفاع عن الحوزة . وعلى هذه الآساس تكوّنت الجماعات ، وقامت المدنيّات ، حتى بلغت حالاتها الحاضرة . ولا يعلم إلا الله كيف يكون مصيرها ، والى أي حدّ ينتهي كمالها . ولما كان من دأب الشرائع السماوية العنايةُ بسواد البشر وعامتهم ، وتهيئة أسباب السعادة والراحة لهم ؛ وكانت الزراعة والصناعة الموردَيْن الأغزرين لتوفير ثروتهم ، وتحصيل مواد معيشتهم - نوّه الشرعُ الاسلامي بشأن هذين الموردين وحضّ على ممارستهما ، في غير ما نصّ من نصوصه . وقد كان معظم عمل الصحابة من أهل المدينة الزراعة والشغل في الحقول والبساتين ، كما كان معظم عمل الصحابة من أهل مكة

(١) اي صلبت فظهر فيها ندوب من متابعة العمل

التجارة والرحلة الى الأقطار من أجلها . وما كانوا رضي الله عنهم يأنفون من عمل ، ولا يزهدون في صناعة مهما كان أمرها : فكان أبو بكر بزّازا ، وكان عمر سمساراً ، وعمرو بن العاص جزاراً ، وهكذا غيرهم . ومما ورد في القرآن من التنويه بالزراعة قوله تعالى :

﴿ والأَرْضَ فَرَشناها فنِعْمَ الماهِدُون ﴾

« فرشناها » أي بسطناها ومهدناها بين أيديكم ليسهل عليكم العمل فيها ، والانتفاع بثمراتها وخيراتها

﴿ وفَجَّرْنا فيها مِنَ العيون لِيأ كُلوا مِنْ ثَمَرِه ﴾

أي انه تعالى انما أجرى العيون والينابيع في الأرض لنسقى بها الأراضى الزراعية ، ثم نجني من ثمراتها ، وننتفع بغلاتها . وقد ذكر الله ذلك في صدد الامتنان على البشر ، وتذكيرهم بالنعمة . وشكرُ النعمة إنما يكون بالانتفاع بها ، لاباهمالها على مرأى من المنعم . وإنَّ شكر نعمة الأرض التي فرشها الخالق تحت أرجلنا ، وأجرى في جنباتها العيون القريبة من متناول أيدينا ، إنما يكون بالحرث والزرع والسقي والاستغلال . بهذا كله نكون شاكرين للربّ تعالى ، معترفين بفضله وسابغ نعمته . ومن الأحاديث الشريفة في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ احْرُثوا : فإِنَّ الحرْثَ مُبارَك ﴾

﴿ مامِنْ مُسْلِمٍ يزْرَعُ زَرْعاً أَوْ يَغْرِسُ غَرْساً فيأ كل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صَدَقة ﴾

﴿ مامِنْ رَجلٍ يَغْرس غرسا إلا كتَبَ اللهُ له مِنَ الأَجْر قَدْرَ مايَخْرُجُ مِنْ ثمَر ذلكَ الغرْس ﴾

﴿ مامِن امْرِيءٍ يُحْيِي أرْضاً فيشرَبَ منها ذو كبدٍ حَرى ، أو تصيب

منه عافية الا كَتَبَ الله له بها أجراً ﴾

و (العافيةُ) هنا كل طالب رزق من انسان أو بهيمة أو طائر . فالشارع يقول للزارع : ان لك من وراء منفعتك الخاصة الحاصلة من احياء الارض منفعة أخرى عامة خفية عنك وهي الأجر والثواب على ماتتناوله الطيورُ والدوابُّ من ماء أرضكَ وثمارها . وان كنت أنت أحيانا تكره ذلك ولا تريده ، على حدٍّ ماورد في الأثر : يؤجر المرء رغماً عن أنفه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أحيا أرْضًا مَيتةً ثِقةً باللهِ واحتسابًا كان حقـاً على اللهِ أن يُعينه وأن يُباركَ له ﴾

﴿ ان قامَتِ الساعةُ وفي يَدِ أحـدِكم فَسيلةٌ فإنِ استطاعَ أن لايقومَ حتى يَغرسَها فليَغرِسْها ﴾

و (الفسيلةُ) شُجَيرَةٌ تنقَلُ من منبتها الأصلي لتزرع في الأرض المهيأة لها . وفي هذه الأحاديث حض على نقْبِ الأرض ، وغرس الأشجار ، وبذل الجهد في ذلك من دون تراخ ولا اهمال حتى ولو قامت القيامة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اطلبوا الرزْق في خبايا الارض ﴾ يعني من طريق الفلاحة والزراعة فان بهما استخراج كنوز الأرض . وقد يدخل في طلب الخبايا استخراج المعادن المختلفة والانتفاع بها بالطرق المتعددة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ النَّخلُ والشَّجَرُ بَرَكةٌ على أهله وعلى عَـقِبِهم ﴾

ذَكَرَ النخل أولا لأنه الاصل في ارتزاق العرب المخـاطبين . وقوله « بركة » أي نفع وخير لهم ولأولادهم من بعدهم

﴿ مِنَ الله لامِنْ رَسُولِهِ : لَعنَ قاطِعُ السِّدْرِ ﴾

قوله « من الله لامن رسوله » أي ان هذا الزجر عن قطع السِّدر من أمر

الله لا من أمره صلى الله عليه وآله وسلم . والسِّدر شجر في الحجاز له ظل وورق وثمر يسمى النبْق . وفي قطعه واتلافه مضرَّة عظيمة للناس الذين يستظلّون به ويأكلون من ثمره وينتفعون بورقه وأغصانه . وان قوانين أهل المدنية اليوم تعاقب أشد العقاب من يسطو على الاشجار فيتلفها أو يفسدها من دون سبب.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتَّخِذُوا الغَنَم فإنها بَرَكة ﴾

ولا يخفى أن تربية المواشي والدواجن أصبحت اليوم فرعاً من فروع الزراعة ، وعليه يتوقف موردٌ عظيم منْ مواردها

أما ماوَرَدَ بشأن الصناعات والحرف والتّنويه بأربابها فكثير أيضا ، من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الحِرْفَةُ أمانٌ مِن الفَقْر ﴾

﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المؤمِنَ المُحْترِف ﴾

﴿ أطيبُ الكَسْبِ عَمَلُ الرَّجُلِ بيَدِه ﴾

« عمل الرجل بيده » كناية عن ممارسة الصناعات اليدوية فإنّ كسبها من أطيب الكسب

« وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ إذا صحّح التقوى وان حاك أو حجم »

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أمْسَى كالاًّ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أمْسَى مَغْفوراً له ﴾

« كالاًّ » أي تعباً من طول ماعالج من شغل يده في نهاره حتى أمْسَى .

وقد خصّ صلى الله عليه وآله وسلم بعض هؤلاء الصناع بالذكر فقال :

﴿ أكرموا الخيَّاطِينَ والخطَّاطِين : فإنهما يأكُلان من أعْماق عيونِهما ﴾

ومعنى أكرموهم أعطوهم حقهم كَمَلاً وافياً من دون بَخْسٍ ولا نقص. أو ان المراد لاتحتقروهم. ثمّ علَّل ذلك بأن صنعْتهم مُنصبة متعبة تحتاج الى صبر وتحديق واجهاد بَصَر، في تبيّن مواقع الأقلام ومغارز الإبر. ولا جرَم أن التحديق اذا استمر طويلا أتعب العينَ وعرّضها أحياناً كثيرة للعطب: ولعمري ان مرتبي الحروف في المطابع جديرون أن يدخلوا في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الخياطين والخطاطين » وأن تشملهم الوصيةُ النبوية في إكرامهم وتوفير حقوقهم

الكسب والتجارة

هـذا الواجب شعبةٌ من شُعَب واجب « العمل والسعي ». فالكسب تحصيل المال من أيّ طريق كان. والتجارةُ تحصيل المال من طريق تقليب البضائع والسلع بيعاً وشراءً. أو هي شراء الشيء بأرخص ما يمكن من الثمن ثم بيعه بأغلا ما يمكنُ منه

واشتغالُ فريق من أبناء الأمة في هذا النوع من العمل واجبٌ شخصيٌّ عليهم، مادام أمر معاشهم متوقفاً عليه بحيث يستغنون به عن التسول واحتياج الناس. فمهما كان في طلب المعاش والكدّ في تحصيل الرزق تعَب ومشقّة، فإن التعرُّض لصدقات الناس وانتظار صِلاتهم أشقّ على النفس وأصعب. وجاء في الحديث الشريف:

﴿ لأَنْ يأخُذَ أحدُكم حَبْلاً ثمَّ يَغدو إلى الجبَلِ فيَحْتَطِبُ فيَبيعُ فيأكُلُ ويتصدّقُ خيرٌ له من أنْ يسألَ الناس ﴾

ولم يكتف الشرع بهذا بل جعل طلبَ الرزق الحلال تعففا عما في أيدي الناس فرضاً دينياً، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ طَلَبُ الحلالِ واجبٌ على كلِّ مُسْلِمٍ ﴾

والفرض والوجوب بمعنىً واحد في أصل الاستعمال الشرعي، ثم فرق الفقهاء بينهما. وأثنى الصحابة رضي الله عنهم ذات يوم على رجل فقالوا: يارسول الله إن فلاناً يصوم النهار، ويقوم الليل، ويكثر الذكر. فقال «أيكم يكفيه طعامَه وشَرابَه؟» قالوا: كلُّنا يارسول الله، فقال:

﴿ كلُّكم خيرٌ منه ﴾

فهذا يدل على أن الانقطاع للعبادة اذا كان يشوبه شيء من الضيق والحاجة الى الناس لا يكون فضيلةً دينية مالم يعْضُدْها فضيلة كسب المال، والاستغناء به عما في أيدي الناس. وهكذا كان دأب الصحابة والسَّلَف رضي الله عنهم: فهم يعتبرون الكسب وطلب الحلال من المال من واجبات المرء الشخصية التي لامندوحة عنها. ناهيك أن أبا بكر رضي الله عنه سعى يوم بُويع بالخلافة الى السوق طلباً للكسب حسب عادته، ولم ير الخلافة بالتي تمنعه عن السعي حتى عارَضَه الصحابة في ذلك خشيةَ أن تشغله أمور تجارته عن القيام باعباء الخلافة، وفرضوا له كفايته من بيت المال. وقال عمر رضي الله عنه: إني لأرى الشابَّ فيعجبني، فأسأل: هل له من كسب؟ فيقال: لا. فيسقط من عيني. وكان لأبي الأسود الدُؤلي ابنٌ يقال له أبو حرب، فلزم منزل أبيه في البصرة لاينتجع أرضاً، ولا يطلب رزقا. فعاتبه أبوه في ذلك فقال: «إن كان لي رزق فسيأتيني» فقال أبو الاسود:

(وما طلب المعيشة في التمني ولكن ألقِ دلوَك في الدِلاءِ)

(تجيء بملئها طوْراً، وطوراً تجيء بحمأةٍ [(١)] وقليل ماءِ)

لاحظ أبو الأسود ان ابنه انما يخدع نفسه بالتوكل الكاذب المنهيّ عنه في الشرع فأرشده في هذين البيتين الى حقيقة التوكّل وان المعيشة لا تكون بالتمني

(١) الحمأة الطين الاسود

والتعلّل بالقدر ، وإنما تكون بإلقاء الدلو بين الدلاء . وهو كناية عن الدخول في غمار التجّار ومشاركتهم في أعمالهم : فطوراً يكسب المرء كثيراً ، وطوراً قليلا . ثم انه بالصبر والثبات وحسن المعاملة والمهارة في الاحتيال على الكسب ينال منه بتوفيق الله ما أحب

وروى الامام أحمد في مسنده قال : كانت للمقدام بن معدي كرب الصحابي جارية تبيع اللبن ويقبض هو ثمنه . فقيل له : سبحان الله ! أتبيع اللبن وتقبض الثمن ؟ فقال : نعم وما بأسٌ في ذلك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

﴿ لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زَمانٌ لا ينفعُ فيه إلا الدِّرْهَمُ والدِّينار ﴾

عابوه رضي الله عنه بما كان منه من هذا الكسب ، فأجابهم بأنه لا ضرر في ذلك ما دام المال شيئاً لا بد منه للانسان ولا سيما في آخر الزمان الذي تتغير فيه حالة الاجتماع وتتنوع أساليب المعيشة وتتعدد تكاليف الحياة . قال رضي الله عنه هذا القول في صدر الأسلام وسماه آخر الزمان . وقد كان العمران الاسلامى إذ ذاك في طور التكون والنشوء ، فكيف لو رأى زماننا هذا وتفنّنَ أهله في أساليب كسبهم وطُرُق معايشهم . لا جَرَم أن ميدان العمل للكسب أصْبَح اليوْمَ أرْحَب ، وطلبُ المال والتجمّل به بين الناس صار أوكد وأوجب

وقال الأمام الشافعي رضي الله عنه ليونس بن عبد الأعلي « والله ما أقول لك إلا نصحاً : إنه ليس الى السلامة من الناس سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله »

وحكى مقاتل أن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه قال « يارب حتى متى أتردد في طلب الدنيا ؟ » فقيل له : « أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا » يعني ليس هو من طلبها المذموم

ولما نَسخ القرآنُ وجوبَ قيام الليل على الصحابة ذكر لذلك أسباباً ، ومن تلك الأسباب المشاقّ التي يقاسيها التجار في أسفارهم ، وقد قرنهم بالذكر مع المجاهدين المدافعين عن الحوزة ، فقال تعالى :

﴿ وآخَرونَ يَضْربونَ في الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله ، وآخرونَ يُقاتلونَ في سَبيلِ الله ﴾

أي ان منكم معشر الأمة من يتنقل في البلاد للتجارة ومنكم من يحارب من أجل الدفاع عن الحق ، وتكليفكم قيامَ الليل مع نُشوء هذه الطوائف في هيئة اجتماعكم أصبح شاقاً عليكم غيرَ داخل تحت طاقتكم ووسعكم ، فاقتضت العناية الالهيّة تخفيف ذلك عنكم . وقد قدّم الوحيُ فريق التجار في الذكر على فريق المحاربين : لأن التجار كثيراً ما كانوا طلائع للمحاربين ينسلون أولا الى البلاد الأجنبية بقصد التجارة فيها وبذلك يُمَهّدون السبيلَ أَمامَ الغازين الفاتحين . وقد عهدنا مثل ذلك في تاريخ الفتح الاسلامي في قارة افريقيا وأقصى الشرق ، كما عهد مثله في تاريخ الاستعمار الأوروبي في سائر القارات منذ أربعمائة سنة الى اليوم

أما السنّة الشريفة فقد جاء فيها أحاديث كثيرة تحضّ على التجارة وكسب المال الحلال، من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنّ أطْيَبَ الكَسْب كَسْبُ التّجارِ الذينَ إذا حَدّثوا لمْ يكْذِبوا ، وإذا ائْتمِنوا لم يَخونوا ، وإذا وَعَدُوا لم يُخْلِفوا ، وإذا اشْتَرَوا لم يَذُمّوا ، وإذا باعُوا لم يُطْروا ، وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا ، وإذا كان لهم لم يُعَسّروا ﴾

مَدَحَ صلى الله عليه وآله وسلم التُّجار وشَرَط أن يكونوا متصفين بما ذكر من الصفات . وقوله « إذا حدثوا » أي بشأن أشغالهم ومتاجرهم، إذ كثيراً ما أدخلوا الغش على الآخرين بمثل هذه الأكاذيب فورطوهم معهم في معاملات

كانت عاقبتها الخسار والافلاس . وقوله « وإذا اشتروا لم يذموا » أي البضاعة التى اشتروها إظهاراً لتفضلهم على البائعين في شراء تلك البضاعة . وقوله « وإذا باعوا لم يطروا » أي لم يبالغوا في مدح بضاعتهم التى يريدون بيعها غشاً وتغريراً . وقوله « وإذا كان عليهم » أي حق للآخرين « وإذا كان لهم » أي حق عند الآخرين « لم يعسّروا » أي لم يلحّوا في طلب حقهم بحيث يُدخلون عليهم العسر والضيق بل يمهلونهم ويحسنون تقاضيهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً :

﴿ إنّ اللهَ يُحبُّ أنْ يرَى عبْدَهُ تعِباً في طلبِ الحلال ﴾

﴿ مَنْ باتَ كالاً من طلبِ الحلال باتَ مَغْفُوراً له ﴾

ومعنى (كالاًّ) تعباً خائر القوة

إنّ مِنَ الذّنوبِ ذُنوبا لا تُكفِّرها الصّلاةُ ولا الصّيامُ ولا الحجُّ : تُكفّرها الهُمُومُ في طلَبِ المعيشَة ﴾

و « الهموم » جمع همّ يحتمل أن يراد به الغم والكدر كما هو الأشهر في استعماله اليوم ، أو يراد به معناه الآخر وهو الجدّ والاهتمام بالأمر والعزم عليه ومنه الحديث الشريف :

﴿ كلكُم حارثٌ وكلكُم همّام ﴾

« حارث » أي كاسب للمال ، و « همام » أي يجدّ في مصالحه ويهتم بطلبها

﴿ العِبادةُ عشْرَةُ أجْزاء ، تِسعَةٌ منها في طلَبِ الحلال ﴾

﴿ العافِيَةُ عشْرَةُ أجْزاء : تِسْعَةٌ في طلَبِ المعيشَةِ وجُزْءٌ في سائر الاشياء ﴾

والمراد بالعافية هنا أن يكون المرء في معافاةٍ من الناس ومتاركةٍ : لاهُمْ يقلقون راحته بطلب حق منه أو ثأر ، ولا هو يقلق راحتهم بشيء من ذلك . ولا جرم أن من كان مشتغلا بتحصيل الرزق ألهاهُ ذلك عن الفضول وفعلِ مايضر الناس . وهم بالمقابلة لايضرونه . ومعظمُ متاعب الشخص إنما ينشأ عن

بطالته : فإن البطالة والاعراض عن الكسب يمهد السبيل الى الفضول والتعرّض لما لا يعني من أمور الناس ، ومن هنا ينشأ النزاع والخصام معهم

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الكاسِبُ حَبيبُ الله ﴾

﴿ أفضَلُ الأعمالِ الكَسْبُ الحلالُ ﴾

﴿ طلبُ الحلالِ جهاد ﴾

﴿ نِعْمَ المالُ الصالح للرَّجل الصالح ﴾

﴿ منْ طَلَبَ الدُّنيا حَلالاً اَستِعفافاً عَنِ المسئَلَة ، وسَعيا علَى عياله ، وتَعَطُّفاً على جاره ، لَقِيَ اللهَ ووَجهُه كالقَمَر ليلة البدْر ﴾

يذكر في هذا الحديث شيئاً من آداب الكسب وشرائطه : منها (حسنُ النية) فلا يقصد في جمع المال التباهي على غيره ، أو التوصّل به الى ارتكاب مالا يحلّ ، وانما يقصد صيانة كرامة النفس عن سؤآل الناس ، والتوسعة على عائلته ، فتعيش في خفض وراحة بال . ثم يهتم بعد عائلته بأمر المعوزين من سائر الخلق . وخصّ الجار بالذكر لأن العناية به أوكد من المعوزين الآخرين والا فغيرُ الجار كالجار في وجوب مواساتهم ومدّ يد المعونة اليهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا صَلّيتُمُ الفجرَ فلا تَناموا عن طَلَب أرْزاقِكم ﴾

﴿ باكروا في طلَب الرزق والحوائج ، فانَّ الغدُوَّ بَرَكَةٌ ونجاح ﴾

هذه الأحاديث في بيان أدب آخر من آداب الكسب ، وهو المبادرة اليه منذ الصباح : اذ يكون الجسم أنشط ، والنفس أطيب ، وحال الهواء ملائماً ،

والجَلَب متراكما [١] . فيختار منه ما يناسبه ، و يظفر بحاجته من أطايبه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَجْمِلُوا في الطَّلَبِ : فإن كلاً مُيَسَّرٌ لما كُتِبَ له ﴾

﴿ أيُّها الناسُ ، اتقوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطلبِ : فان نفْساً لن تموتَ حتى تَستوْفِيَ رزْقها وإنْ أبطأَ عنها . فاتقوا اللهَ وأَجْمِلُوا في الطلب ، خُذوا ماحَلَّ ودَعُوا ماحَرُم ﴾

وهذا من آداب الكسب أيضًا وهو الاجمال والتأني وترك الحرص الشديد والنهم المفرط الذي يؤدي بالكاسب تارةً الى الحرام من المال ، وطوراً الى الحسد وكره منافسيه في التجارة مذ يراهم أحسنَ حالاً ، وأوفر مالاً منه . وربما أدّاهُ حرصه وحسده الى الهمّ والغمّ أو الى المرض واعتلال الجسم . والشارعُ إن كان يمدح الهِمة والنهْمة في طلب الرزق أحياناً فانما يراعي في خطابه هذا حالة بعض الكسالى المتقاعدين عن الكسب اتكالا على الاقدار ، ومصادفات الليل والنهار ، فهو يُرشدهم الى وجوب السعي ، وأن رزقَ كل إنْسانٍ على مقدار سعيه ونهمته وهمّته كما جاء في بعض الأحاديث . أما في هذا الحديث الذي يتضمّن الأمر بالاجمال فيخاطب من أفرط في الحرص وجمع المال الى حدّ أن يلوّثَ ذمّته ، أو يُفسد صحته ، أو يقوده حسده لمنافسيه في التجارة الى مبادأتهم بالشرِّ ومصارحتهم العداوة . فلمثل هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتّقِ اللهَ وأَجْمِلْ في الطلب ﴾

﴿ لنْ تموتَ نفسٌ حتى تستوفيَ رزقَها ﴾

وأمثال ذلك مما يسكّن نفس المفرط في الحرص ويقلّل من أطماعه . وقال

---

(١) الجلب : ما يجلبه أهل القرى والبادية من بضائعهم وسلعهم الى اسواق المدن والحواضر فيتسابق اليه التجار والمشترون

صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الجالِبُ مرزُوق ، والمُحتكرُ مَلعون ﴾

﴿ بئْسَ العبدُ المُحتكِرِ : إنْ أرْخصَ اللهُ الأسعارَ حزن ، وإنْ أغلاها فرح ﴾

« الجالب » الذي يجلب البضائع الى بلده من البلاد الأخرى فيسهّل على الناس أسباب المعيشة بإكثار موادّها بين أيديهم . وضدّه المحتكر الذي تكون لديه السِلعُ ومواد المعيشة متوفّرة فيحجزها عن الناس رجاء ارتفاع أسعارها ثم يبيعها عليهم وفيهم الفقير وذو الحاجة . فالاحتكار ليس من الأخلاق الاسلامية ، ولا الآداب الاجتماعية . وقد مقته الشارع أشدّ مقت كما سمعتَ . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ليسَ مِنَ المرُوَءة الربْحُ على الإخوان ﴾

أي ليس من الفضائل الانسانية أن يأخذ البائع ربحاً كثيراً من إخوانه في البضاعة التي باعهم إياها . ولعل ما قلناه هو المراد في الحديث أي الربح الكثير الفاحش ، لا أصلُ الربح . وإلاّ فان في ذلك ضرراً بيناً على الباعة الذين لهم اخوان كثيرون . ويمكن أن يقال أيضاً انه ليس من المروءة للمشتري أن يكلف صاحبه البائع أن لا يربح عليه أصلاً . لم نظفر بحديثٍ في هذا المعنى ، لكنه مما يلتحم مع آداب الإسلام ، ومع ميزان العدْل العام ، الذي نصبه الشارعُ بين أهل الإسلام . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَن اشتَرَى سَرِقَةً وهو يَعْلَمُ أنها سَرِقة فقد شَرِكَ في عارها واثْمِها ﴾

سرقة أي بضاعة أو متاعا مسروقا ، فإن له نصيبا مع سارقه في العار والذنب

﴿ التاجرُ الجبانُ مَحْرومٌ، والتاجرُ الجسور مرْزوق ﴾

﴿ سافروا تَصحّوا وتُرْزَقوا ﴾

في هذين الحديثين حضٌّ التاجر على الجراءة وقوة الارادة في الأشغال ، فلا يكون جبانا ولا متردّداً : فإن ذلك يؤدّي به الى الخيبة والحرمان غالبا . واذا احتاج الامر الى السفر والضرب في البلاد البعيدة من أجل الرزق والربح فليفعل ولا يجبُنْ فإن في السفر صحةً ورزقا

ومما يحسن ايراده هنا هذه القطعة الشعريّة في الحثّ على الكسب وطلب المال من طريق السفر والرحلة . وهو ما ينبغي انشاده للاحداث ، وتلقينهم اياه وتفهيمهم معناه :

(اقذفِ السرج على المُهْ ... روقرّطْه اللجاما)

(ثم صُبَّ الدرع في رأ ... سي وناولني الحُساما)

(فمتى أطلبُ ان لم ... أطلبِ الرزقَ غلاما ؟)

(سأجوبُ الأرض أبغ ... يه حلالاً لا حَراما .)

(فلعلَّ الظعن يُقصي الْ ... فَقْرَ أو يُدني الحِماما)

(قرِّطه اللجاما) أي ضع اللجام من رأسه موضع القُرط وهو الزينة المعروفة التي تعلَّق في شحمة الاذن . وقوله (صُبَّ الدرع الخ) أي ألبسني اياه . وقد أشار بذلك الى أنه يريد أن يتعرّض للاخطار في سبيل انفاذ مقصده ، فهو يستعد لدفعها بتقلده السلاح . و (أجوب) أقطع . و (يُقصي) يُبْعد . ويروى (ينفي الفقر) مكان (يقصي الفقر) . ومعنى (يُدني) يقرّب . و (الحِمام) الموت

الاقتصاد والاسراف

وممـا له تعلق بـأمرٍ من المباحث بحث « الاقتصاد والاسراف » .

(الاقتصاد) باعتبار أنه علم هو تدبير المال ، وتقليبه في الوجوه المختلفة ليغزُر وينمو . وهو من أشهر العلوم العصرية ، ومن أهمّ ما يُعنى به الاجتماعيون والإداريون من بين علوم الحضارة والعمران ، في هذه الأزمان

وأكثر ما يراد (بالاقتصاد) في اصطلاح الكـتّاب ما نريده نحن في هذا الفصل : وهو الإبقاء على شيء من المـال وارصاده لأيام الاحتياج اليه بعد انفاق جملة المال . ومثله (التوفير) لكن هذا المعنى لا يفهم من تينك الـكلمتين في أصل الوضع اللغوي لان (الاقتصاد) في اللغة معناه القصد في النفقة ، وهو العدل فيها والتوسّط بين الاسراف والتقتير . كما أن (التوفير) معناه اللغوي تكثير المال وتنميته وذلك باضافة غيره اليه . غير أنه لما كان الاعتدال في النفقة والتوسط بين التقتير والتبذير من شأنه أن يؤدي الى استبقاء بقية من المال كما يؤدي الى تراكم هذه البقايا وتكاثرها بإضافة غيرها اليها وقتاً فوقتاً وسنةً فسنة سمّوا الاستبقاء على هذه الصورة (اقتصاداً) و (توفيراً) وضدها (الاسراف) (والتبذير) . وهناك كلمة تفيد استبقاء شيء من المال في أصل الوضع اللغوي وحبذا لو يشيع استعمالها بين الكتّاب وهي (الإفضال) ومثلها (الاستفضال) : يقال (أفْضل) الرجل (واستفضل) إذا أبقى فضلا و بقية . وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ رَحِمَ اللهُ امْرءًا كَسِبَ طَيِّباً ، وأَنْفَقَ قَصْداً ، وقَدَّم فَضلا ليوم فقرهِ وحاجتِهِ ﴾

(كسب طيباً) أي من الرزق الحلال الطيب (وأنفق قصداً) أي عدْلا

من غير تقتير ولا إسراف . و(قدّم فضلاً) أي بقية يبقيها من نفقاته يدّخرها الى أن يقدمها لنفسه في أيام عجزه وشيخوخته التي يرافقها غالباً الفقرُ والحاجة . فما أحسن هذا الأدب الشرعي ، وما أشدّ حاجة الناس اليه على اختلاف أدوارهم وأطوارهم

وإن الاقتصاد على هـذه الصورة التي عَلَّمَنا إياها الشارع من الواجبات الشخصية التي ينبغي أن يراعيها الانسان في واجبِ الكسب والتجارة والزراعة والصناعة . فلا يدخل عليه المال من هنا ثم يُطْلِقُ يده فيه فيبدّده ويُتلفه ويخسر الواسطةَ التي يكون بها نيل الخيرات وفعل المكرمات والفوز بالرّغبات . كما يجب عليه من جهةٍ ثانية أن لا يشحّ بما يجمع من المال ، ويحرص عليه الى حدّ التقتير على نفسه وعياله في ضرورات معيشتهم ، فيُصبح كأنه فقير حقيقةً وهو غني اسماً وصورة :

(ومن يُنفق الساعات في جمع ماله مَخافةَ فقر فالذي صنعَ الفقرُ)

ومن الآيات الحاضّة على العدل في النفقة قوله تعالى :

﴿ والذينَ إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْـتُرُوا ، وكان بينَ ذلك قَواما ﴾

﴿ ولا تجْعَلْ يدكَ مَغْلولةً الى عنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فتَقْعُدَ مَلوماً محْسورا ﴾

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَن اقتصَدَ أغناهُ الله ، ومَنْ بَذَّرَ أفقرَه الله ﴾

﴿ ما عال من اقتصد ﴾

ومعنى (عال) افتقر واحتاج

﴿ التّدبيرُ نصفُ المعيشة ﴾

﴿ الاقتصادُ في النفقةِ نصفُ المعيشة ﴾

ومحصّل القول أن الاقتصاد واستفضال شيء من النفقة أساسُ التدبير المنزلي . ومن أول الواجبات الشخصية . وهو الملجأ الأمين الذي يأوي اليه أرباب العائلات ، فيجدون فيه الهدوّ والراحة والسرور وحرية التمتع بالنعم والخيرات التي أفاضها الخالق تعالى عليهم . قال بعض كتّاب الغرب : قد عاينت الأمور وعانيتها ، ثم بعد تفكر عميق في الحياة لم أجد سوى أمرين ربما جلبا السعادة : (الاعتدال في مطالب النفس) و (حسن التَّصرف في الثروة)

وقد سمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الذي يحرص على ماله فلا ينفقه ولا ينتفع به (عبداً ملعوناً) مذ قال :

﴿ لُعن عبد الدرهم ، لُعن عبدُ الدينار ﴾

أي طُرد من رحمة الله ذاك الذي كأنه يعبد درهمه وديناره من فرط حرصه عليهما ، وملازمته لهما . ومما ورد في الحثّ على التمتع بالمال والانتفاع به قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا آتاكَ اللهُ مالا فليُرَ عليك : فانّ الله يُحبُّ أن يُرى أثره على عبده حسناً ، ولا يُحبُّ البؤس ولا التباؤس ﴾

و (البؤس) شدة الاحتياج . و (التباؤس) أن يُظهر ذلك من نفسه بقوله أو فعله ، كأن يلبس خشناً ، ويأكل تافها . فالمال وحده لا يكون سبباً للسعادة ما لم ينضم اليه عقل يساعد صاحبه على حسن التصرّف في المال ، وطرق الانتفاع به . وقد قال أحد الاقتصاديين « إن أوقية ذهب تحتاج الى قنطار عقل » . وكم من الأغنياء من كانت ثروتهم سبباً في خمولهم وموتهم الأدبي ، بل كم منهم من يجد في قصوره أتعاباً وآلاماً لا يجدها الفقير في كوخه . وقد ينظر صاحب الكوخ الى قصر الغني الذي بجانبه فيشعر بلذة في النظر اليه لا يشعر بها صاحب القصر نفسه . فعلينا إذن قبل أن نسأل الله مالاً أن نسأله عقلا نهتدي به الى

حسن الانتفاع بالمال . ومن جملة ما علّمنا إياه الشارع من الآداب الاقتصادية ما جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أقْلِلْ مِنَ الدَّيْنِ تَعِشْ حُرًّا ﴾

أي اجتهد في الاقتصاد والاستفضال والموازنة بين دخلك وخرجك : فلا تدع نفسك تحتاج الى الدَّين فتعتاده فتترا كم عليك الديون فيطاردك الدائنون ويعسرونك فتفقد حريتك وتصبح عبداً لهم . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

﴿ الغَفلةُ في ثلاثةِ أشياءَ ﴾ وعدَّ منها ﴿ غَفلَةَ الرجلِ عن نفسهِ في الدَّيْن حتى يَرْكَبَهُ ﴾

ومن وصاياه ﷺ ـ المفيدة في حفظ الثروة وعدم التفريط فيها ـ الاحتفاظ بالعَقار : فلا يبيعه صاحبه ، واذا باعه كان عليه أن يبادر الى شراء غيره : لأن المال النقد سريعُ الفرار وشيك الضياع فقال :

﴿ مَنْ باعَ داراً أو عَقاراً فلم يَرْدُدْ ثمنه في مثله فذلك مال قَمِنٌ أن لا يُبارَكَ له فيه ﴾

قوله (فذلك) الخ أي فذلك المال النقد الذي أخذه ثمنا (قَمِنٌ) أي جدير أن يضيع ويخسر صاحبه بركته والانتفاع به

ومن محاذير بيع العقار للأجنبي خاصةً ضياع الوطن وإفلاته من يد أبنائه شيئاً فشيئاً فان الوطن يبقى لهم ما داموا يملكون أرضه

وقال بعض كبار الاقتصاديين : الناس فريقان : فريق اقتصد وفريق أسرف . فجميع السفن التجارية ، والسكك الحديدية ، والمعامل الصناعية ، وسائر المشروعات الاقتصادية التي تأسست عليها هذه المدنية العبقرية ـ هي كلها من أعمال الفريق الذي اقتصد . أما الفريق الذي أسرف ثم اضطر أن يستدين لسدّ حاجاته فقد أصبح على تمادي الأيام رقيقاً للفريق الأول ، وهي سنة الله في خلقه .

الواجبات العائلية

الأهل والعيال

ذكرنا في الفصول السابقة واجبات الشخص منفرداً . ونريد أن نذكر في الفصول التالية واجباتِهِ مجتمعاً بغيره من أبناء جنسه . وأول اجتماعٍ له من هذا القبيل اجتماعه بأهله وعياله . وأهلُه زوجته ، وعيالُه أولاده . واذا كانوا أغنياء انضم اليهم خادم يكفيهم مؤونة العمل . ويقال للمجموع المؤلف من هؤلاء الأفراد في اللغة العربية (عَيِّلُ الرجل) وفسروه بقولهم هم أهل بيته الذين يتكفّل بهم ويمونهم من أزواج وأولاد وأتباع . وقد اصطلح كتاب هذا العصر على تسميتهم بالعائلة مع أن كلمة (عائلة) في أصل وضعها اللغوي بمعنى فقيرة . تأنيث (عائل) فقير . و (عَيْلة) فقر . و (عال) افتقر

وبحث الواجبات العائلية يتضمن بيان ما يجب على الشخص نحو أفراد عائلته المذكورين ويدخل فيهم أحياناً من يعوله من غيرهم كأبيه وأمه . أوْ يتيم يكفله . أو امرأةٍ تأوي الى كنفه وتعيش على نفقته

وقد وُجدت العائلة على وجه البسيطة من يوم وجدت المرأة بجانب الرجل وَوَلَدَتْ له أولاداً . والأعمال يزاولها كل من الرجل والمرأة في عائلتهما تختلف باختلاف حال الأمة التي يعيشان فيها بداوة وحضارة ، رُقيًّا وانحطاطاً ويغلب في الامم المتحضرة أن تكون وظيفة المرأة إدارة الأعمال البيتية كما تكون وظيفة الرجل العمل خارجه : فهو يشتغل ثمة ويتعب ويستثمر أتعابه ثم يلقي بهذه الثمرات الى زوجته . ويتكل في هنائه العائلي وراحته المنزلية عليها . فلزوجة هي

الرئيسة العاملة في المنزل ، أما الزوج فهو بمثابة رئيس شرف له . وقد جاء التصريح بذلك في الحديث الشريف مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كلُّ نفسٍ من بني آدم سيّدٌ : فالرجل سيّدُ أهله ، والمرأة سيّدةُ بيتها[١] ﴾

فانظر كيف جعل سيادة البيت للمرأة وخصّها بها وان كان لرجلها سيادة أخرى لا تنكر

واذا كانت المرأة هي سيدة البيت ورئيسته كان من أول واجبات الزوج أن يحسن انتخاب تلك الرئيسة : فيختارها من ذوات العقل والدين والتربية الصالحة . فانها اذا توفرت فيها هذه الشروط ، أصبح المنزل فردوس الرجل ، ومظهر كرامته في قومه ، والمنبت الخصب لذريته وأولاده . ومن ثمّ كان للمنزل والعائلة المقام الأول في نظر علماء الاجتماع حتى جعلوا نظام الحياة المنزلية أساساً لنظام الحياة الاجتماعية في الأمة كلها : فاذا فسد النظام الأول فسَدَ النظام الثاني وانحطّت الامةُ على أثره ، والعكسُ بالعكس . قالوا : واذا دَخَلتَ احدى المدن كان لك أن تحكم على ارتقاء العائلة بمجرد نظرك الى حالة سكانها ، وماهم عليه من الأطوار والأخلاق في أسواقهم وحوانيتهم ومحافلهم وقهاويهم وسائر مظاهرهم الاجتماعيـة : فاذا رأيتهم هُنا على نظامٍ أدبيٍّ ثابت حكمت باستحكام النظام الأدبي في بيوتهم وعائلاتهم ، لأن هذا أصل ذاك . وإلا ، فلا

قلنا آنفاً إن المنزل هو المغرس الأول للذرّية والأولاد ، فهم يُنقلون منه الى المغرس الثاني أعني المدرسة ، ومنها الى ساحة التجارب والعمل والسعي في خدمة أمتهم ووطنهم ، كما يُنقل الفسيل من أرض الى أرض : فاذا طابت تربة المغرس الأول (العائلة) طابت إذ ذاك ثمار أبناء الأمة وغزرت محصولات

---

(١) ومثل هذا في جعل المرأة سيدة بيتها قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي مر في ص ٤٠ « والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها »

عقولهم وأخلاقهم . وإن خَبُثت تلك التربة خَبُثت الثمار ، وقبُحت الآثار ، وساءت الأخبار . وقال بعض علماء الاجتماع المعاصرين : إن أحقر المنازل إذا تولّت رئاسته امرأة مدبّرة بشوشة كان ملؤه الراحة والهناء والسعادة ، كان فيه أشرف العواطف العائلية ، كان عزيزاً لدى الرجل لما يستلزمه من دواعي السرور ، كان مَلاذاً للقلب ، وملجأ من عواصف الحياة ، كان خير مكانٍ للراحة من عناء الأشغال ، ومتاعب الحياة ، كان في الشدة مسلّياً ، وفي الرّخاءِ فخراً ، وفي كل حالٍ نعيماً . فالمنزل الصالح إذن خير معاهد التربية لا للشاب وحده بل للكهل أيضاً . وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والصبر وضبط النفس وتدرك روح الحياة ومعنى الواجب اهـ . فلتنظر الأمم كيف تَضَع نظام عائلاتها على أساس وطيد ثابت ، ولينظر الآباء واجبهم الشرعي والاجتماعي من هذا القبيل . وأول واجب عليهم حسن اختيار سيدة المنزل كما قلنا . وقد ورد في الاحاديث النبوية الحضّ على العناية باختيارها لينجُب أولادها ، ويطيب العيش معها . وقد امتنّ حكيم من حكماء العرب على أولاده في قيامه بهذا الواجب نحوهم فقال :

﴿ وأولُ إحساني اليكم تخيّري لماجدة الأعراق بادٍ عفافها ﴾

ومن الواجبات العائلية أيضاً العناية بتربية الأهل والعيال وتعليمهم ما به صلاح أمرهم ، وتثقيف عقولهم . وفي هذا المعنى ورد قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ارجعوا إلى أهْليكم فعَلّموهم ﴾

يخاطب بذلك قوماً يريدون ممارسة بعض الأعمال فهو يأمرهم بالانصراف عنها الى ماهو أهمّ منها : أنْ يرجعوا الى نسائهم وأولادهم فيعلموهم ماهم في حاجةٍ اليه من ضروب العلم النافع . أمّا أحاديث الحضّ على حسن معاملة الأهل والعيال والرفق بهم ، وترك الغلظة عليهم ، فكثيرة : منها قوله صلى الله عليه

وآله وسلم :

﴿ خِيارُكم خِيارُكم لنسائهم ولبناتهم ﴾

﴿ خيرُكم خيرُكم لأهله ، وأنا خيرُكم لأهلي ﴾

﴿ إن مِن أحسَنِ المؤمنينَ إيماناً أحسنهم خُلقاً ، وألطفَهم بأهله ﴾

﴿ خيرُ الرجالِ مِن أمتي الذين لا يتطاولون على أهليهم ويحسنون إليهم ولا يَظلمونَهم ﴾

﴿ كان صلى الله عليه وآله وسلم أرحمَ الناسِ بالصِّبيان والعِيال ﴾

﴿ مَنْ كان له صَبيٌّ فَليَتَصابَ له ﴾

أي ليتنزّل الى أنْ يفعل في ملاعبته فعلَ الصبيان تطييباً لنفسه ، وإدخالاً للسرور على قلبه

وروي أنه صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه يوماً الى طعام دُعوا له ، فاذا بابن بنته الحسين وهو صبي يلعب مع صِبْيَةٍ في السكة . فاستَنْتَل رسول الله أمام القوم (أي انفرد عنهم وتقدّمهم) واقبل على الحسين فطفق يفرُّ مرةً ههنا ومرة ههنا ، ورسول الله يضاحكه . ثم أمسكه فجعل إحدى يديه تحت ذَقَنه والأخرى تحت فاس رأسه (أى قفا رأسه من تحت قذاله) وأقنعه (أي رفعه) وجعل يقبّله وقال :

﴿ أنا من حُسينٍ وحُسينٌ مني ، أحبَّ اللهُ من أحبَّ حسيناً ﴾

ومن جملة الرفق والعناية بالأهل والعيال ما ورد في الحديث الشريف وهو :

﴿ كان صلى الله عليه وآله وسلم لا يكادُ يدعُ أحداً من أهله في يوم عيد إلا أخرجه ﴾

يعني انه كان في صبيحة أيام الاعياد يُخرج كل واحد من أفراد عائلته الى خارج المدينة حيث يجتمع المسلمون لصلاة العيد في مصلاّها الخاص فيصلون

ويشاهدون الناس في هذا الاجتماع الحافل . فيدخل عليهم السرور والفرح برؤية ذلك . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَشْيُكَ إلى المسجدِ وانصِرافُكَ إلى أهْلِكَ في الأجْرِ سواء ﴾

سَوَّى في الأجر والثواب بين المشيتين ، مشي الرجل الى عبادة ربه ، ومشيهُ راجعاً الى مسامرة عائلته ، وكأنَّ الشارع ﷺ بقوله هذا يعرِّض بأولئك القُساة الذين لايجعلون من أوقاتهم نصيباً مفروضاً لمعاشرة عائلتهم بل ينفقونها جزافاً في أماكن اللهو والبطالة ، وبذلك تسوء عيشة العائلات وتتنغّص حياتها ، بل ربما أدّى بها الأمر أحياناً الى الفاسد والقبيح من الأعمال

ومن الواجبات العائلية ترفيه العائلة والتوسعة عليها بالنفقة واعداد مايلزم لها من وسائل الراحة والهناء ، ومرافق الحياة والعيش . وقد حض الشارع صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك في أحاديث كثيرة منها قوله :

﴿ ليس مِنا مَن وسَّعَ اللهُ عليه ثم قَتَّرَ على عيالهِ ﴾

﴿ شرُّ الناسِ المُضَيِّقُ على أهلِهِ ﴾

﴿ أولُ مايوضَعُ في مِيزانِ المرءِ إنفاقُه على أهلِهِ ﴾

أي ان النفقة عليهم من أول الأعمال التى يثاب عليها يوم القيامة

﴿ أطْعِمْ زوجَكَ اذا طَعِمْتَ ، واكسُها اذا اكْتَسَيْتَ ، ولا تُقَبِّح الوجه ولا تضرِبْ ﴾

ينهى عن ضربها ، وكل مايؤذيها ، وعن تقبيح وجهها : فلايواجهها بقبيح القول ، وفظيع الشتم . أو المعنى لايقول لهـا « قبّح الله وجهك » وهو شتم مألوف بينهم نهى الشارع عنه بخصوصه

﴿ الويلُ كلُّ الويلِ لمنْ تركَ عِيالَه بخيرٍ وقَدِمَ على ربّه بشرٍّ ﴾

في هذا الحديث تحذير لأرباب العائلات الذين يجمعون المال حلالاً وحراماً

سداً لحاجات عائلاتهم، واشباعا لنهماتهم، فهو ﷺ يقول: يالتعاسة ذلك الأب الذي يترك عائلته بعد موته في سعة من الرزق، وبحبوحة من العيش من مالٍ جَمَعَهُ حراماً لهم، ثم يقدّمُ على ربّه يوم القيامة وهو مُثقل بتبعات ذلك المال الذي جَمَعَهُ، وخان الناس فيه. فيعذبه الله عليه. ويكون قد أشبه الشمعة التي تضيء للناس وتحرق نفسها. فاذا كانت التوسعة على العيال واجباً عائلياً على ربّ العائلة فان تحرّى الانفاق عليها من المال الحلال هو أيضاً واجب عائلي عليه، تجدر به مراعاته والانتباه اليه

النكاح والطلاق

مرّ في بحث الأهل والعيال «أن المرأة هي سيدة العائلة» كما شهد بذلك الشارع ﷺ. ومرّ أيضاً أن العائلة هي ملجأ الرجل الأمين والظل الذي يأوي الى برده في المتاعب، وهول المصائب. وليست وظيفة العائلة مقصورةً على هذا فحسب إذ ان من وظائفها أيضاً بل من أقدس وظائفها الاجتماعية على الاطلاق تقديم النسل والذرية الى الأمة: فهي التي تمدّ الأمة بأبنائها الصالحين، وأعضائها العاملين كما يمدّ الجيش المحارب بأفراد الجند من وقت الى آخر. فتأسيس العائلة بواسطة النكاح - أي الاقتران والزواج - واجب اجتماعي مدني يهمّ أمره أساطين الاجتماع وواضعي الشرائع، كما يهمهم أيّ شأن آخر سواه. وما زالوا قديماً وحديثاً يحضّون على الزواج، ويمهدون السبيل بين أيدي طالبيه. كما ينهون عن العزوبة، وينفّرون منها، ويضعون الضرائب أو يضاعفونها على المُخْلِدين اليها. حتى قال بعضُ الحكماء «إن لمجموع البشر على كل فردٍ منهم حقاً لابد أن يقومَ به لهم في مقابل ماقاموا به هُمْ له: أن يبنيَ بيتاً يُؤْوَى اليه، أو يغرس شجرة يُنتفع بها. أو يخلف ولداً يستفاد من سعيه». وليس في الشرائع ما يعادل

الشريعة الاسلامية في الحض على القيام بهذا الواجب . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ النكاحُ سُنتي ، ومَن رَغِبَ عن سُنّتي فليس مني ﴾

أي أن الزواج والاقترانَ مما رضيه لنفسه ولأمته فمن تركه زهداً فيه لم يكن من جماعته ولا عاملا بشريعته

والغرض الأصلي من هذا الحضّ والترغيب النسل والذرية وتكثير سواد الأمة ، لا التمتع وقضاء حاجة الجسد . وأيُّ دليل على هذا أبين وأظهر من قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ امرأةٌ وَلودٌ أحبُّ الى اللهِ من امرأةٍ حسناء لا تَلِدُ : إني مُكاثِرٌ بكم الأُمَمَ ﴾

فالشارعُ إنما حضّ على الزواج لهذا الغرض الاجتماعي الذي يرمي اليه زعماء الأُمم اليومَ . ويرونه أقرب وسيلة الى تكاثر أفراد أممهم ، ولا يهدأ لهم بال إذا رأوا عددها يتناقص أو يقلّ عن عدد الأمم الأخرى التى تسابقها في مضمار الحياة

والشارع يحضّ الشابّ على التبكير في الزواج احتفاظاً بعفته . وصونا له من الأثم . لكنه من جهةٍ ثانية يُوصيه بأن لا يُقدم على الزواج إلا بعد اعداد العدّة ، وتوفر أسباب الهناء العائلي : فاذا كان الزواج واجبا اجتماعيا فان الأوجب منه أن يقع موقعه ، ويُثمر ثمرته ، ويستوفي شرائطه التى من شأنها أن تجعل الزوجين سعيدين ، قريريْ العين أحدهما بالآخر . فلا ينبغي لأحد أن يتزوج وهو منطوٍ على فقر مُدْقع ، أو عاهةٍ منفّرة ، أو خُلق رديء ، أو أية حالة سيئة يجهلها قرينه بحيث لو اطّلع عليها وانكشف أمرها ، تنغّص عيشهما ، وساءت حالهما ، وفات الغرض الأصليّ الذي قرّره القرآن وجعله الغاية المقصودة

من الزواج مذ قال تعالى :

﴿ ومِنْ آياته أنْ خلَق لكمْ مِنْ أنفُسِكم أزواجاً لتَسكنوا اليها وجَعلَ بينَكم موَدَّةً ورَحمة ﴾

فالبارى تعالى يمتنّ علينا معشر البشر بنعمة الزواج التى من آثارها ركون الزوج الى زوجه . وأُلفته لها ، وتبادل عواطف الحنوّ والرحمة بينه وبينها ، فالحبّ والرحمة إذن هما أساس الزواج ، وروح السعادة العائلية

وأحاديث الترغيب في الزواج ، والحضّ عليه كثيرة : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ التَمِسُوا الرزقَ في النِّكاح ﴾

لاجرم ان النكاح وتأسيس العائلة قد يحفِزُ الرجلَ الكسول المتقاعد عن الكسب ، المستكين للفقر - يحفزه الى السعي والعمل والمثابرة على الشغل سَدّاً لحاجة عائلته ، فيغنيه الله ويوسع عليه في الرزق ، فيكون النكاح نعمَ الطريق اليه . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ رَزَقه اللهُ امرأةً صالحةً فقد أعانَهُ على شَطْرِ دينِه : فليتقِ اللهَ في الشطْرِ الآخر ﴾

يشير في هذا الحديث الى ما للمرأة الفاضلة من التأثير في حياة زوجها : فهي بفضل عنايتها به ، ومراقبتها له ، تحول بينه وبين فعل ما يضرُّه أو يشينه . وقد يبلغ ذلك النصفَ من أعماله وأموره . فلينتبه هو الى اصلاح النصف الآخر من أحواله التى كثيراً ما لا يتيسر لزوجته الاطلاع عليها للحكم فيها . وهذا انما يصدق على المرأة التى توفرت فيها التربية الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة

فلينظر المسلمون في الأمر ، وليحققوا ظن الشارع في المرأة المسلمة . وليتّخذوا من الوسائل ما يساعد على تقويم أودها ، واستصلاح أمرها ، كي

يمكنهم أن يجنوا من ثمراتها ، ما ذكره الشارع صلى الله عليه وآله وسلم وأخشى ما يخشى على العائلة أن يتعدّد الزواج أو أن يُعكّر صفوه الطلاق

أما (التعدُّد) فالشارع أباحه بشرط العدل والاعتدال وأن يكون للزوج من الكفاية المالية والاخلاقية والصحية ما يمكنه من ضبط الأمر وسياسة الزوجين أو العائلتين . أما اذا نقصَه شيء من ذلك وأحس من نفسه العجز عن إقامة حدود الله التي أمره بالمحافظة عليها فالشارع إذ ذاك يمقت تَعدُّدَ الزوجات ، وينهى عنه أشدّ النهي . ولا يدلك على هذا مثلُ إمعان النظر في آيات التعدّد وفي مطاوي مفهوماتها . وهي :

﴿ فإنْ خِفتم أنْ لا تَعْدِلوا فواحدةً .. ذلك أدنى ان لا تعُولوا ﴾

أي ان اكتفاءكم بالواحدة يمهد لكم سبيلَ العدل ويُبعدكم عن الجور. فقوله (تعولوا) من (عَالَ) إذا جار ومال عن الحق . أو المعنى ان اكتفاءكم بالواحدة يمهّد لكم سبيلَ إعاشة العائلة والانفاق عليها . أما اذا تعدّدن وتعدّد أولادهن فانْ الرجل يقع في الضيق والأفْلاس . ذلك هو معنى قوله تعالى « أدنى ألا تعُولُوا » مِنْ (عال الرجل) إذا كثرت عياله وثقل عليه أمر معيشتهن . وقال تعالى :

﴿ ولنْ تَستطيعوا أنْ تَعْدِلوا بينَ النساءِ ولوْ حَرَصْتم ﴾

هذه الآية في فحواها تدلّ على ان تعدّد الزّوجات مما يصعب القيام به ومراعاة شروطه : فهو اذن ضرورة تقدّر بقدرها . أو هو إشارة الى العدول عن التعدد بالمرّة

وكذا (الطلاق) فان الأسلام أباحه في حالة ما اذا كان بقاء النكاح ودوامه يؤدي الى فساد نظام العائلة وتعرُّضها لخطَر الفوضى ، والنكد الدائم . ومع هذا فان الشارع حضّ على الصبر ومدافعة الطلاق ما أمكن : من ذلك

قوله تعالى :

﴿ وعاشروهنّ بالمعروفِ : فإنْ كرهتموهنّ فعسى أنْ تكرهوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيراً ﴾

يقول : اصبر على ماتراه في زوجِك ، ولا تيأس من استصلاح حالها ، ورجوع حسن التفاهم بينك وبينها ، ويكون لك منها ـ بعدَ الكُره الكبير ـ الخيرُ الكثير . وقال ﷺ في التنفير مِن الطلاق :

﴿ تزوّجوا ولا تُطلّقوا : فانَّ الطلاقَ يهتزُّ منه العرش ﴾

واهتزاز العرش أسلوب بليغ يُراد به أن الطلاق مما يُبغضه الله تعالى ربّ العرش والعظمة والكبرياء . كما ورد صريحا في قوله عليه السلام :

﴿ أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ الطلاق ﴾

﴿ ما أحلَّ اللهُ حلالاً أحبَّ اليَّ من النكاح ، ولا أحلَّ حلالاً أكرَه اليَّ من الطلاق ﴾

ومعنَى (الحلال) في الحديثين المباحُ الذي يجوز لك فعله وتركه . وليس معناه انه مستحسن في نظر الشرع مثابٌ عليه يومَ القيامة كما يفهمه العامة من كلمة (الحلال) . وقد نهى الشارع عن الحلف بالطلاق حتى لايعتاده اللسان كما هو دأبُ بعض مَنْ لاخلاقَ لهم من العامة ، فقال ﷺ :

﴿ ماحَلَفَ بالطلاقِ مؤمنٌ ، ولا استحلفَ به الا مُنافق ﴾

أي أنك اذا قلتَ قولاً فلم يُصدّقك به الآخر وكلّفك الحلف بالطلاق عليه كان ذلك الآخر منافقاً : إذ ان الكذب من آيات المنافق وعلاماته الدالة عليه ، فهو يكذب ويظنّ أنّ الناس يكذبون مثله ، فاذا حدّثوه لم يصدّقهم مالم يحلفوا بالطلاق

الذرية والاولاد

الولدُ ثمرةُ الحياة ، وريحانة البيت ، وأملُ العائلة ، والغاية المقصودة من الزواج . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ بَيتٌ لا صِبيانَ فيه لا بَرَكةَ فيه ﴾

﴿ ريحُ الوَلدِ من ريحِ الجنَّة ﴾

﴿ الوَلدُ من رَيحانِ الجنَّة ﴾

لكن ينبغي للآباء والامهات أن يعلموا أن أولادهم ليسوا مِلكاً لهم كملكهم أشياءهم، وأنه لم تمنحهم اياهم العناية الآلهية ليكونوا بمثابة متاع أوقطعة زينة في البيت يُنافَسُ فيها ، ويُحْرَص عليها ، وتتلذذ النفس بالنظر اليها فقط . وانما خُلقوا ليقضوا زمن الصبوةِ في حجر العائلة ثم يخرجوا منها أحراراً مستقلين . ويضافوا مَدَداً الى الرجال العاملين . فالعائلة اذاً مكلفة تربيةَ الطفل وتهيئته جسماً ونفساً وخُلقا للقيام بوظائفه المختلفة في خدمة قومه ووطنه . وان العناية بالأولاد وتربيتهم هذه التربية الصالحة من اكبر واجبات الأبوين التي يفرضها الشرعُ ونظام الاجتماع عليهما ، كما أنَّ إهمالهم والتفريط في تربيتهم من اكبر الجنايات التي يمقتها الشرعُ ، وتُعاقب عليها القوانينُ المدنية ، قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أكرِموا أولادَكم وأحسنوا آدابَهم فإن أولادَكم هديَّة الله اليكم ﴾

ولا يخفى أن الشكر على الهدية إنما يكون في تقبلها بفرح ثم العناية بها ، والمحافظة عليها ، كما أن التفريط فيها كفرانٌ لحق من أهداها ، وباعثٌ على غضبه ونقمته . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ حقُّ الولدِ على الوالد أن يعلّمه الكتابةَ والسباحة والرماية وأن لا يرزقه

الا حلالا طيبًا ﴾

هـذه هي أهم علوم الشبان في ذلك العهد : الـكتابة والسباحة والرماية بالسهام . أما اليوم فقد اختلفت الأحوال ، وتبدلت الأوضاع ، واستجدّت علوم غيرُ ماذكر ، لم يكنْ يُعتنى بها من قبل . فالواجبُ على أولياء الأحداث اليوم أن يعلموهم من ذلك جميعه ماهمْ في حاجة ماسّةٍ اليـه ، وإن الاسلام ليقدُر هذا الاختلاف الزماني قَدْره كما ورد في الأثر « خلّقوا أولادكم بغير أخلاقكم فقد خُلقوا لزمان غير زمانكم »

فاذا كانت الأخلاقُ تختلفُ بينَ زمن الأب وابنه فكيف يكون مبلغ اختلافها بين زمن السلَف وزمننا هذا ؟ وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أيُّما امرأةٍ قعَدَتْ على بَيتِ أولادِها فهي معي في الجنَّة ﴾

يُرشد الشارع المرأة في هذا الحديث الى واجبها في تربية أولادها وهي أجدر بهذا الخطاب الشرعي من الرجل : فهو يقول لها إنّ تركها الاشتغال بما لاينفعها ، والعكوفَ على تربية أولادها في بيتها خيرُ وسيلةٍ الى دخول الجنان

﴿ إنّ اللهَ يُحبُّ أنْ تعدلوا بين أولادكم حتى في القُبَل ﴾

و (القُبلُ) جمع قبلةٍ وهي التقبيلة . وفي هـذا الحديث نهى عن إيثار بعض الاولاد على بعض . ومثله :

﴿ ساوُوا بينَ أولادِكم في العطيّة : فلو كنتُ مفضلاً أحداً لفضلتُ النساءَ ﴾

لعلّ السبب في استحقاق النساءِ للتفضيل أنهن سريعات التأثر ، رقيقاتُ الشعور ، شديدات الغيرة . فإنهن لذلك أجدر بالعطايا وأنواع البرِّ واللطَف[1] من إخوتهن الذكور . ومع هذا فالشارعُ ينهى عنه خشية التنافس والتحاسد بين الأولاد . وفي الحديث إشارة لطيفة الى وجوب العناية بالنساء ومراعاة شعورهن وعواطفهن

(١) اللطف بفتح الطاء الشيء الذي تتحف به غيرك وتهديه اليه على سبيل البر والتكرمة

وإن من أهم الأغراض التي جاء الاسلامُ من أجلها هدمَ ما كان عليه أهل الجاهلية من هضم المرأة وإذلالها والتفريط أحياناً بحياتها حتى عابهم القرآن في ذلك وعيَّرهم مذ قال تعالى :

﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنثى ظلَّ وجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظيم . يتوارى من القومِ من سُوءِ ما بُشِّرَ به أيُمْسِكه على هُونٍ أم يدسُّهُ في التراب ألا ساءَ ما يحكمون ؟ ؟ ؟ ﴾

هذا هو حال أهل الجاهلية قبل الاسلام : كانوا اذا وُلد لأحدهم أُنثى اكفهرَّ وجهه واستخفى عن أعين الناس حياءً وخجلا . ثم فكر في كيف يتخلّص من هذا الضيف الثقيل ؟ ! أيصبر عليه ، أو يئده تحت التراب ! ؟ ؟ فجاء الاسلام ناعياً عليهم حالتَهم هذه . وبَشَّرَ بالمرأة ووجوب العناية بها ، واعطائها حقّها من الوجودِ ، وحظّها من الحقوق . ومما قاله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ لا تَكرَهوا البناتِ : فانّهنّ المُؤْنِسات الغاليات ﴾

وكان صلى الله عليه وسلم يصلّي فتتشبَّث به أُمامةُ ابنة ابنته زينب . فكان يحملها على عاتقه . فاذا سجد وَضَعَها ، وإذا قام حملها

وإنما نهى الشارعُ عن تفضيل أحد الأولاد بالعطيّة تفادياً من التحاسد والتحاقد بينهم كما مرَّ آنفاً ، بل قد يحقدون أحياناً على أبيهم نفسِه ، والأبُ مأمورٌ بأن لا يتعاطَى من الأسباب ما يُثيرُ شيطانَ العقوق في نفس ولده ، ومن قوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك :

﴿ رَحِمَ اللهُ والداً أعان وَلَدَهُ على بِرِّه ﴾

﴿ أعينوا أولادَكم على بِرِّكم ، مَنْ شاءَ استخرج العقوقَ من ولده ﴾

أي أنه في امكان الأب أن يحملَ ابنه على العقوق وترك الطاعة ، وذلك

يكون بتفضيل أخيه عليه بوصيةٍ أو عطيةٍ أو تقريظ[١] أو ابتسامةٍ أحياناً ، فليكن الأبُ حكيما فطناً ضابطاً لعواطفه وتوزيعها بالعدل بين أولاده ، وإلاّ جر على نفسِهِ وعائلته من بعده تعباً وبلاَء

وكما يُطالبُ الولدُ ببرّ والدهِ يُطَالَبُ الوالدُ نفسهُ ببرّ ولده أيضاً ، وبرُّ كلٍّ منهما بحسبه . وقد وصف صلى الله عليه وآله وسلم قوماً من الأبرار فقال :

﴿ إنّما سمّاهم الله الأبرار لأنهم بَرّوا الآباء والامهات والأبناء : كما أنَّ لِوَالدَيْكَ عليك حقاً كذلك لِوَلَدِك ﴾

ومن جملة برِّ الوالد لولده ما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ لاَ يَعِدِ الرجلُ صَبيَّه ثم لا يَفي له ﴾

فإن هذا - فضلا عن كونه يحمل الولدَ على احتقار والده ، واعتقاد الكذب فيه - يُسَهِّل أمرَ الكذب على الولد نفسه . ومن شابه أباه فما ظلم ، فينشأ كذّاباً : لا يصدقُ بقول ، ولا يفي بعهد . ومما نبّه اليه الشارع من أمر تربية الأولاد أن لا يتشاءمَ الوالدُ بأحدِ أولاده ، ولا ييأس منه إذا رآه عنيداً شرساً ذا شِرَّةٍ وبَطر . فقد يتحوّل كلُّ هذا فيه إذا أُحسنتْ تربيته الى أخلاق فاضلة : كالشجاعة والثبات وقوة الارادة وكبر العقل والشمم وطلب المعالي : قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ عُرام الصبيّ في صِغَره ، زِيادةٌ في عقلهِ في كِبَره ﴾

و (العُرام) بالعين المهملة الشراسة والأذى والأشَرُ والبطر ومفارقة القصد والخروج عن الحدّ ، وقيل هو الفساد

ومما ورد في فضل الولد قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اذا ماتَ ابنُ آدمَ انقَطعَ عملُه إلاَّ من ثلاث : صَدَقةٍ جارية ، أو علم

(١) التقريظ ان تمدح اخر وتثني عليه . وتخصيصه بمدح الكتب من صنيع المتاخرين

يُنتفَعُ به ، أو وَلدٍ صالحٍ يدعو له ﴾

﴿ إنَّ الرجلَ لتُرْفَعُ درجتُه في الجنَّة ، فيقولُ أنَّى لي هذا ؟ ؟ فيقال له : باستغفارِ وَلدِكَ لك ﴾

والحنوُّ على الولد والرأفةُ به والصبرُ على ما يبدو منه أحياناً من العناد والطيش ودواعي الصبوة أمرٌ طبيعيٌّ في الآباء ، إلا من ندَرَ منهم : فقد رأى الاقرعُ بن حابس رسولَ الله ﷺ يقبّل ولده الحسن ، فقال له : إن لي عشرةً من الولد ما قبّلتُ واحداً منهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ مَنْ لا يَرْحمُ لا يُرْحم ﴾

وقال معاوية رضي الله عنه للأحنف بن قيس : ما تقول في الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! ثمارُ قلوبنا ، وعمادُ ظهورنا . ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة . فان طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم يمنحوك ودّهم ، ويحبُّوك جهدهم . ولا تكن عليهم قُفْلاً ثقيلا فَيَمَلُّوا حياتك ، ويودّوا وفاتك ، ويكرهوا قربك ، فقال له معاوية : لله أنتَ يا أحنفُ لقد أرضيتني عمَّن سخطتُ عليه من وَلَدي . ثم وصله وأكرمه

الام والاب

ان كان الولدُ ثمرَةَ العائلة أو ثمرةَ الحياة فإنَّ الأبوين أصلها وعمادها . وان كان لأحدٍ حقٌّ على الولد بعدَ الله فهو لأبويه . وان كان الله هو خالق الولد فإن الأبوين هما مظهر ذلك الخلق وأداته وواسطته . فلا عجب بعد هذا إذا رأينا الدين الاسلاميّ يهتف من فوق رؤوس الأبناء ، معرِّفاً لهم بحقوق الآباء ، على لسان سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم قائلا :

﴿ رِضا الربِّ في رضا الوالدَين ، وَسَخَطُهُ في سَخَطِهما ﴾

﴿ طاعة اللهِ طاعةُ الوالد ، ومَعصية اللهِ معصية الوالد ﴾

﴿ ألاَ أُنبؤُكم بأكبر الكَبائر ، الاشراكُ باللهِ وعُقوقُ الوالدَين ﴾

وقال تعالى :

﴿ ووصَّيْنا الإِنسان بوالديه إحساناً ﴾

أي ووصّيناه بأن يحسن اليهما إحساناً يكافئُ حقهما وفضلهما عليه . ثم أثنى الله تعالى على ذلك الانسان الذي وصاه تلك الوصية واصفاً من جميل برّه لوالديه مذ يقول في دعائه لهما اعترافاً بحقهما :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْني [1] انْ أشكرَ نِعمتَكَ التي أَنْعَمْتَ عليّ وعلى والديّ وأنْ أعملَ صالحاً ترضاهُ وأَصْلحْ لي في ذُرِّيَّتي ﴾

فهذا الولدُ البارُّ قرَنَ في دعائه لربّه بين البِرّين : برّه بأصله مُذ شكر له تعالى ما سبقَ من إنعامه على أبويه ، وبرّه بفرعه مذ سأله تعالى أن يُصْلحَ له ذريّته . فلا جَرَمَ أن يكونَ داخلاً في فريق الأبرار الذين قال صلى الله عليه وآله وسلم فيهم :

﴿ إنما سَمّاهمُ اللهُ الأبرارَ لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء كما أنّ لآبائكَ عليكَ حقّاً كذلكَ لأبنائك عليك حقٌّ ﴾

وذكر الوحيُ الإِلهي في آيةٍ أخرى واجبات الولد نحو والده بأكثر ايضاح وتفصيل فقال تعالى :

﴿ وقَضَى رَبُّكَ أنْ لا تَعْبُدُوا إلاّ إيّاه وبالوالدَين إحساناً : إمّا يبلغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدهما أو كِلاهُما ، فلا تقلْ لهما أُفٍّ ولا تنهَرْهما وقلْ لهما قولا كريما . واخفضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ من الرَّحْمَةِ ، وقل رَبِّ ارْحَمْهُما كما رَبّياني صغيرا ﴾

نُهيَ الولدُ عن الاساءةِ الى والديه حتى في قول (أُفّ) فما بالك بغيرها

---

(١) اوزعني اي الهمني

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إن من أكبر الكبائر أن يلعنَ الرجلُ والديه ﴾

قيل : كيف يلعنهما يا رسول الله ؟ قال :

﴿ يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فيسُبُّ أباه ﴾

﴿ ما برَّ أباه مَن شدَّ اليهِ الطرْف مِنْ غضَب ﴾

(شدّ اليه الطرف) رفعه (١) و (الطرْفُ) العينُ يعني أنه يكفيه عقوقاً وإساءة الى أبيه أن ينظر اليه نظر المغْضَب الحنق

والاسلامُ وإن أمرَ ببرّ الوالدين معاً فهو يخصُّ الامَّ أحياناً بالذكر عناية بها ، ورعايةً لها . كما هو شأنه في التوصية بجنس النساء والحضّ على تقديمهن في مواطن الرفق والترفيه . وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم يوماً حادياً يحدو بأظعانهن فقال له :

﴿ رِفْقاً بالقوارير ﴾

أي ارفق يا هذا بهؤلاء النّساء اللّواتي يشبهن رقيق الزجاج وإنَّ حُداءك بهذا التلحين العجيب يهيجُ عواطفهن ، ولطيف شعورهن . ويُثير في نفوسهنّ كامنَ الشوق والحنين الى أهليهن وذويهن . كما انه يُتعب أجسامهن ويجهدها مما يحدثه في النّياق من السرعة والكردحة (٢)

وانظر كيف أن الشارع قدّم المرأة على الرجل مذ أوصى ببرّ الأقارب وصلة الأرحام عامة فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ برَّ أمَّكَ ثم أباك ، وأختَكَ ثم أخاك ، ثم أدناكَ فادناكَ ﴾

﴿ أُمَّكَ ثم أُمَّكَ ثم أُمَّكَ ثم أباك ، ثم الأقربَ فالأقرب ﴾

---

(١) لا توجد (شدّ) بهذا المعنى في كتب اللغة فلعل لفظ الحديث هكذا (من شزر اليه من غضب) والنظر الشزر نظر الغضبان

(٢) الكردحة سرعة العدو ، او هى ما يسميه العامة النطنطة وهو ضرب من العدو فيه تقارب خطو

﴿ الجنةُ تحتَ أقدامِ الامّهات ﴾

﴿ إذا دَعاك أبواك فأجبْ أمَّكَ ﴾

يعني أن الأمّ أشدُّ ضعفاً . وأبْيَنُ عَجزاً من الاب عادة فتكون أحقّ بان يُسارَع في التلبية اليها . فليس في الحديث ما يُشعر بمجافاة الأب والتقصير في خدمته ، وإنما فيه تقديم الأهمّ والأحوج الى المساعدة والمعونة

ويقوم مقام الأبوين - في وجوب برّهما وحفدهما (١) والطاعة لهما - الاخُ الأكبر والعمُّ والخالة . فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم فيهم :

﴿ حقُّ كبير الإخوةِ على صَغيرهم كحقِّ الوالِدِ على وَلَدِه ﴾

﴿ العَمُّ والِد ﴾

﴿ الخالةُ والِدة ﴾

لكن من واجب هؤلاء الثلاثة أنْ يُعاملوا الأخ الأصغر وابن الاخ وابن الاخت بالرفق والرعاية والحبّ كما يُعامل الأبوان ابنهما حتى يستحقّوا منزلتهما

ومن أسوأ آثار العقوق أنّ العاقّ أباه يعقّه ابنُهُ ويجرؤ عليه فلا يبرّه ولا يجلّه ولا يطيع له أمراً ، وهذه التجربة معهودة في الناس وطالما مُثّلتْ أدوارها تحت مواقع أنظارهم ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك :

﴿ برُّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم ﴾

وهذه المكافأة التي يتلقّاها العاقّ من ابنه من جملة التعجيل بالعقوبة الدنيوية قبلَ العقوبة الأخروية . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كلُّ الذّنوبِ يؤخّرُ اللهُ ماشاءَمنها الى يومِ القيامةِ إلاّ عقوق الوالدَين : فإن اللهَ يُعجِّله لصاحِبه في الحياةِ الدنيا قبلَ الآخرة ﴾

---

(١) الحفد الخدمة او السرعة اليها ومنه سمي ابن الابن حفيداً لانه يسرع الى خدمة جده ثم لم يعد يلاحظ فيه ذلك واصبح كالاسم الجامد

وقد نبّه الشارعُ الى وجوب الاعتدال في واجب الحبّ الابوي فلا يجعل الولدُ أباه إلهه : يحلف به كلّما قام وقعد ، وأوْعَدَ وَوَعَدَ ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ اللهَ يَنْهاكم أن تَحلِفوا بآبائكم : فمن كانَ حالفاً فَلْيَحْلِفْ باللهِ أو ليَصْمِتْ ﴾

منْ آداب الاسلام تركُ الحلفِ مطلقاً ، فإن الحالف إنما يُهين نفسَه مذ يدلُّ بحلفه على أنه مظنّة الكذب ، فالمؤمنُ يدع الحلِفَ حتى بالله عملاً بظاهر قوله تعالى :

﴿ ولا تَجْعَلوا اللهَ عُرْضَةً لأيمانكم ﴾

غير أنه إذا كانت هناك ضرورةٌ تستدعى الحلف فلْيحْلفْ بالله تعالى وحده ولا يتجاوزْه الى غيره ، كما أوصانا صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق

النساء والايتام

قلّما يخلو أرباب العائلات من وجود نساء أو أيتام ينضوُون اليهم ، ويعيشون في كنَفهم ، فكان البحث فيما يجب لهؤُلاءِ النساءِ والأيتام من العناية والرعاية من جملة (الواجبات العائلية) التى نحن في منتهَى الكلام عليها :

ذكرنا في الفصول السابقة طرَفاً من حضّ الإِسلام على الرفق بجنس النساءِ ، وتقديمه لهن ، وذلك لأنهن موصوفات بضعف الجسم ، ولين الجانب ، ودماثة الأخلاق ، ورقّة العواطف ، فهن يتأثرن من سوءِ المعاشرة ، وتنكسر نفُوسهن عند أدنى معاكسة أو مشادّة ، وإذا قارنّا بين ماجاء به الإِسلام من العناية بهن وتوفير حقوقهن ، وبين ماعليه حالهن في الامم الذين يَتَساءلون عما إذا كان للمرأة نفسٌ ناطقة أولا ، وهل لها حقّ التملّك أولا ؟ وخاصةً عرب الجاهلية

مذ كانوا يدسُّونها في التراب ، ولا تأخذهم بها رأفة ولا رحمة - رأينا أن الإسلام إنما جاء بإنقاذ النساء من تعاستهن وسوء حالتهن ، فقرّر لهن الحق في الحياة والتملّك والعمل وحرية التمتع بكل ماخَلَقَ الله لهن وللرجال في هذه الأكوان ضمن القواعد الشرعية ، والنواميس الأدبيّة والاجتماعية ، وقد هَتَفَ الاسلام بحقوقهن هذه على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها فهي تروي عن زوجها صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

﴿ إنّما النِّساء شقائقُ الرجال ﴾

وهن وإن قدّم عليهن الرّجال في مواطن الخوف والقوة والنّجدة والأعمال الشاقة فقد بقي لهنّ حقّ التقديم في مواطن الدّعة والرفق والادب والحياء والاحتشام ، ولا حاجة للاستشهاد على ذلك من السُنّة وأعمال السّلَف ، فإن الامر بيِّن ، ومادة الاستشهاد غزيرة ، ويكفي فيه مانقل الينا بالتواتر من حسن معاملته صلى الله عليه وآله وسلم للنساءِ واكثاره من مجاملتهنّ والوصاية بهنّ وتصريحه بحبّهن حتى ظنّ أقوام أنَّ حبّه لهنّ كان من قبيل حُبِّ الجسَدِ للجَسَد ، وما هو لعمرى إلاّ من حب الروح للروح ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم هو ومن سبقَهَ من الأنبياء والرُّسل يعطفون على النساء والأيتام والأَطفال والأرامل والأرقاء وكلّ من يؤنس فيه الضعفُ والعجز والتعب تحت أثقال هذه الحياة ، ويعدُّون ذلك من أركان شريعتهم وأغراض بعثتهم

فممّا وَرَدَ عن الشارع بشأن الرفق بالنساء والعطف عليهن قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ استَوْصوا بالنِساءِ خيراً ﴾

﴿ ما أكْرَمَ النساءَ إلا كريمٌ ولا أهانهنّ الا لئيم ﴾

﴿ خيرُكم خيرُكم للنساء ﴾

أما اليتيمُ فقد ورَدَ في الحضِّ على حُسن معاملته والرفق به قوله تعالى :

﴿ فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ ﴾

أي فلا تدُعَّه (١) ولا تؤذِه ، ولا تظْلِمْهُ ولا تأكلْ ماله ، ولا تُهمل تربيته إذا كنتَ وليًّا له فان إبقاءه في الجهل إذلالٌ له وظلم وقهر ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيرُ بَيتٍ في المسلمينَ بيتٌ فيه يَتيمٌ يُحْسَنُ اليه ، وشرُّ بيت في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء اليه ، وأنا وكافلُ اليتيم في الجنة ﴾

﴿ أحَبُّ بيوتكم الى الله بيتٌ فيه يتيمٌ مُكْرَمٌ ﴾

﴿ شرُّ المآكِل مال اليتيم ﴾

أي ان الأموال التي تؤكل بالحرام كثيرة لكن أشدّها حرمة في نظر الشرع مال اليتيم

﴿ منْ ضمَّ يتيماً له أو لغيره حتى يُغنيَه اللهُ عنه وجبتْ له الجنة ﴾

قوله (له أو لغيره) أي سواء كان ذلك اليتيم الذي يكفُلُه من قرابته وذوى رحمه أولا ، وقوله (حتى يُغنيَه الله عنه) أي حتى يستغني ذلك اليتيم ويمكنه الاستقلال في أموره عن كافله . حقاً إنّ اليتيم مُعرّض للضياع في تربيته وآدابه ، وفي مايملك من مال ونَشَب وعقار ، فإذا كفَلَه كافلٌ فرَبّاهُ وأدَّبَه وصانَ ماله ووفّره له حتى بلغ أشُدّه ونزَل بنفسه الى ساحة العمل والسعي ـ كان ذلك الكافل كأنما أحيا اليتيم بعد الموت ، وتلافَى سعادته قبل الفوْت . فلا جَرَمَ بعد أن قام بواجبه هذا أن تجب له دارُ الجنان ، ويُنادى عليه : هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان

(١) الدع : الدفع بغلظة وعنف

الواجبات الاجتماعية

الجماعة والتفرقة

لكل واحد من البشر ثلاثة بيوت أو ثلاث عائلات :

(عائلة صغرى) وهى المؤلفة من أهله وعياله

و (عائلة وسطى) وهى المؤلفة من اخوته في الدين أو الوطن .

و (عائلة كبرى) وهى المؤلفة من اخوته في الانسانية . وقد أتممنا الكلام في الفصول السابقة على العائلة الصغرى وما يجب لها فلننتقل الى الكلام على (العائلة الوسطى) أو (العائلة الوطنية) وذكر الواجبات المطالب بها كلُّ واحد من أبنائها نحوها . وهذه العائلة أيضاً قلّما يتفق أن تكون مركبة من طائفة واحدةٍ ذاتِ ملّةٍ واحدة . وانما هى في الغالب مؤلفةٌ من عائلات أو طوائف متعددة . ذات مِلَل وأديان مختلفة . ولكن هذا لايمنع أن تسمى تلك الطوائف أمةً واحدة أو عائلة واحدة مادام وطنهم واحداً ، ولغتهم واحدة ، ومصالحهم السياسية والاقتصادية واحدة . فمهما فرّق الدينُ والمذهبُ بينهم فإن الوحدات الاخرى تجمعهم ، وتضمّ شتاتهم . فما نذكره في الفصول التالية من أنَّ الانسان مكلف بواجبات اجتماعية تجاه غيره لانريد بذلك الغير أبناء دينه والمشاركين له في معتقده فقط ، وانما نريد كل مشاركيه في الوطن ومصالحه السياسية والاقتصادية من أية مِلّةٍ كانوا

والاسلام دين خاصٌ بالمسلمين من حيث العقائد والشعائر وطرُق التعبّد أما من حيث أحكامه السياسية والادارية والمدنية وتعاليمه الاجتماعية والاخلاقية

والأدبية فهو دينٌ عامّ يقبل أن يدخل تحت أوامره ونواهيه المذكورة أبناء ملته وسائر أبناء الطوائف الأخرى المختلطين بهم ، والمشاركين لهم في وطنيتهم ، فهو إذا أمرَ بوجوب الوفاق والتحابّ والأمانة والعَدل والرحمة والصَّدَقة وفعل الخير وترْك الحسد والتجسّس وسائر الواجبات الاجتماعية ـ لا يريد بذلك أتباعه المسلمين وحدهم لأن المسألة ليست مسألة صلاة وتيمّم واستقبال قبلة ، ولا صوم واعتكاف وطواف حول الكعبة . وإنما هو يريد المسلمين ومن التفّ بهم عَهْداً ووطناً وحكومةً ومصلحة : فَمِنْ أولى تلك الواجبات الاجتماعية التى أمَرَ بها الاسلامُ (الجماعة والتفرقة) أي وجوب الاندماج في الجماعة الكبرى وتجنّب الافتراق عنها . فاذا كانت القرائن تدل على أن الخطاب متعلق بترك التفرقة في العقائد والشعائر كان المخاطبون فيه جماعة المسلمين ، وإن كان الخطاب متعلقاً بمصالح الوطن السياسية والادارية والاجتماعية والاقتصادية كان المخاطبون المسلمين وإخوانهم من أبناء الملل الأخرى المشاركين لهم في تلك المصالح والمرافق . ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الجماعةُ رَحمة ، والفرقةُ عَذاب ﴾

أي اجتماع المسلمين على عقائد دينهم رحمةٌ وتفرّقهم شِيعاً فيها عذاب . أو المعنى أن اجتماع المسلمين ومن شاركهم في المصالح الوطنية على حفظ هذه المصالح رحمةٌ وتفرّقهم فيها أحزابا عذاب . ومثل هذا الحديث أحاديث أُخر : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ فَرَّقَ فَلَيْسَ مِنَّا ﴾

﴿ يدُ اللهِ على الجماعة ، وإنما يأكلُ الذئبُ مِنَ الغنَم القاصِية ﴾

(يد الله) أي نعمته تعالى وبَرَكته على أبناء الوطن الواحد إذا كانوا جماعةً واحدة مُتضامنة على حفظ الحوزة ، وصيانة المصلحة ـ أو على أبناء الدين

الواحد إذا كانوا جماعة واحدة في الوحدة المذهبية لا تفرّق فيهم ولا انقسام . ثم قال انّ الذي ينفرد عن الجماعة ـ هذه أو تلك ـ يُصبح كالشاةِ القاصية (أي البعيدة) عن جماعة القطيع لا تلبَثُ أن يأكلها الذئب . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لا تختلفوا: فإنّ مَنْ كان قبلَكم اختلفُوا فهلَكوا ﴾

يُحيلنا الشارع على أمم التاريخ التي كانت قبلنا وقد اختلفتْ وتفرقت كلمتها فهلَكتْ وبادتْ وأُديلَ منها ، لنعتبر بها ونزدجر عن مثل فعلتها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إثنانِ خيرٌ مِن واحدٍ ، وثلاثة خيرٌ من اثنين ، وأربَعَةٌ خيرٌ مِن ثلاثة . فعليكم بالجماعة : فإنّ اللهَ لنْ يَجمعَ أُمتي إلا على هُدًى ﴾

هذه الأحاديث ترشد الى أن استقرار الحقّ والصواب يكون في الفئة التي زاد عددها على اختها ولو بواحد . ويُشبه أن يكون قد استرشد بهذه الأحاديث الأمم المتمدنة : فانهم في مجالسهم البرلمانية يرون وجوب العمل بقول الفريق الذي يزيد عدده على عدد الفريق الآخر ولو بصوت واحد ـ على أن هذه الأحاديث التي تعتبر الحقّ في جانب الكثرة إنما تعتمد الأعمّ الأغلب من جهة . كما أنها من جهة ثانية تُراعي حال من لم يقدر على تمييز الحق من الباطل بنفسه . فمثلُ هذا ينبغي له أن ينضم الى السواد الأعظم . ويُغلّب الثقة به . أما اذا كان للمرء فكرٌ ثاقب . وقلبٌ مخلص خالٍ من الشوائب ، ورأى الحق في جانب الأقلّية فلا عليه أن ينضم اليها . ويُعوّل في الأمر عليها . وينافح بكل قوته دونها . حتى يهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيّ عن بينة . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لا تزالُ طائفةٌ من أُمّتي ظاهرينَ على الحقّ لا يَضُرُّهم مَنْ خالفَهم حتى

يأتي أمرُ الله ﴾

يؤيد ما قلنا من أن الاقلية يكون في جانبها الحق أحياناً

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المؤمنونَ كرَجلٍ واحد : إنِ اشتكَى رأسهُ اشتكى كُلُّهُ ، وإنِ اشتكى عَينهُ اشتكى كُله ﴾

يعني أنهم من شدة التحامهم وقوة تضامنهم يصبح كلٌّ واحد منهم بالنسبة الى مجموعهم ككل عضو بالنسبة الى مجموع الجسد : فإذا نزل بواحدٍ منهم مكروهٌ شعرَ به كلهم على السواء وعملوا جميعاً على إزالته . كما يسْرِع الجسد كله الى إزالة ما ينزل بأحد أعضائه من وَجع أو ألم

ومن آيات القرآن في الحضّ على الوحدة قولهُ تعالى :

﴿ واعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفرّقُوا ﴾

﴿ ولا تَنازَعوا فتَفْشَلوا وتَذْهَبَ ريحُكم ﴾

(ريحكم) قوتكم وصولتكم : ولا ريب أنَّ اتحاد أبناءِ الأمة واتفاق كلمتهم من أكبر العوامل في ثبات أمرهم ، وبقاء دولتهم . والشواهدُ على ذلك لا يحصيها العدّ . والأممُ التي ذهب تفرّقُ الكلمة بعزّها وسلطانها قريبة تكادُ تلمس باليد . ومن أقوال الاقدمين « كلُّ بيتٍ ينقسم على نفسه يخرب »

وكما حضّ الشرعُ الاسلامي على اتفاق الكلمة أرشدَ الى رأب الصدْع وإصلاح ذات البين اذا اعترى الروابطَ القومية وَهْنٌ أو ضعف . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أفضَلُ الصَّدَقَةِ إصلاحُ ذاتِ البَيْن ﴾

﴿ ما عَمِلَ ابنُ آدمَ شيئاً أفضلَ من اصلاح ذات البَيْن ﴾

وكان المسلمون في سالف عهدهم يتأدّبون بأدب القرآن في توحيد كلمتهم .

وطاعة أميرهم حتى رَوَى الحَسَنُ البصريّ أن الرجل منهم كان اذا عرضت له حاجة وأميره يخطب لم يذهب من دون أن يستأذنه : فيقوم ويمسك بأنفه مشيراً الى أنه أصابه رُعاف ويريد الوضوء فيشير اليه أميره بالخروج واذ ذاك يخرج . وعملُهم هذا تأدّب بقوله تعالى :

﴿ انّما المؤمنونَ الذينَ آمنوا باللهِ ورَسُولِهِ واذا كانُوا مَعَه على أمْرٍ جَامع لم يَذهبوا حتّى يستأذنوه ﴾

(أمر جامع) أي شأن من الشؤون الجامعة العامة كحربٍ حضرت ، أو خطبة تُليت ، أو مشورة اديرت . قال الحسنُ : فاتفق أن رجلا ملَّ الحرب والاغترابَ عن أهله فأحبَّ الرُّجوعَ اليهم . فقام الى أميره (هرِم بن حيّان) وهو يخطب ، فأخذ بأنفه حسب العادة مستأذناً بالانصراف فأذن له . فانصرف ولكن الى بلده وعشيرته . فأقام فيهم أياماً ثم رجع فسأله أميره :

— أين كنت ؟؟

— في أهلي .

— أبإذن ذهبت ؟؟

— نعم : قمتُ اليكَ وأنتَ تخطب فأخذتُ بأنفي فأشرتَ اليّ أن اذهب . فذهبت

— أفاتّخذتَ هذا دَغَلا وخديعة ؟ اللهم أخّر رجال السوء الى زمن السوء

— رَأى (هرم) أنّ زمنهم ليس زمن سوء وأنّ ما عمله هذا الجندي من مخادعة أميره لا ينبغي أن يقع في ذلك الزمن . فدعا اللهَ أن يؤخّره هو وأمثاله المخادعين الى أزمان السوء الآتية

ومحصل القول أنّ من الواجبات الاجتماعية على كل واحد من أبناءِ الامّة أن يتمسّك بعُرى الوحدة الوطنية فلا يَفْصِمها ويحافظ على كعبة استقلال قومه

فلا يهدمها . وليعمل جهده على اصلاح ذات البين . كيلا يؤدّي بهم النزاع الى البلاءِ والحَيْن . ووَطَنٌ كوطننا مؤلف من جماعاتٍ ومللٍ مختلفة لا يمكن نهوضُهُ ونجاحه مالم تتّفق طوائفه . ولا يتّفقون مالم تكن كلٌّ طائفةٍ منهم متّفقةً في نفسها ، غيرَ منقسمةٍ على ذاتها . واذا وقع شقاق أو نزاع في طائفةٍ من طوائف الوطن لا تضرّ نفسها فقط بل يتعدى أثره الى أخواتها ثم الى الوطن نفسه والى مجموع مصالحه : فكان من الخير للطوائف الذين يتألف منهم الوطن الواحد أن يحرصوا على توثيق روابط الألفة بينهم من طريق توثيقها بين أبناءِ كل طائفةٍ منهم . وان النصوص الاسلاميةَ الآمرة بالاتفاق ، الناهية عن الافتراق ، لا تؤثر أثرَها المطلوب مالم يوجه فيها الخطاب الى مجموع أبناءِ الوطن : مسلمين وغير مسلمين ، فان في اتفاقهم وجمع كلمتهم الخيرَ لهم أجمعين

التعاون والتحاب

بحثُ (الجماعة والتفرقة) السابقُ منظورٌ فيه الى تعاون الامة من حيثُ أنّ فيها طوائفَ مذهبيةً وأحزاباً سياسيةً يُخشى أن يؤدّي النطاحُ بينها والنزاع في مصالحها العامّة الى اضطراب الأمر ، وانتكاث الفتل ، وذهابِ الملك جملةً واحدة . اما بحثُ (التعاونِ والتحابّ) هذا فمنظور فيه الى تعاون الامة باعتبار كل فردٍ من أفرادها ازاء قريبه وجاره وصديقه ومعامله : فيُخْلص في حبه ، ويَحْرِص على نفعه ، ويمدُّ اليه يد المعونة في حين ضائقته ونكبته . فيعيشون متوادّين متحابّين ، وعلى البر والعمل الصالح متساندين متعاونين . وقد عاب القرآنُ قوماً من الأشرار يمنعون الناس رفدهم ومعونتهم فقال تعالى :

﴿ ويَمْنَعونَ الماعون ﴾

(الماعون) مشتق من المعونة . فالمعنى أنهم اذا سُئِلوا أيَّ ضربٍ من

ضروب التعاون والمساعدة أبوا وامتنعوا . وخصَّ بعضُ العلماءِ (الماعون) بما يعارُ عادةً من أمتعة البيت ومرافقه كالقِدرِ والفأس

ونُصوصُ الشريعة الواردة في معنى (التعاون والتحابّ) عامة شاملة لكل واحد من أبناءِ الامة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم مادامت مصالحهم مشتركة، ومراميهم متحدة . والإسلامُ بطبيعته يحْرِصُ على هذه المصالح والمقاصد . وهو يأمر بالتحابّ والتعاون بين جميع المواطنين المشتركين فيها . كيلا يؤدي تواكلهم وتباغضهم الى ضياعها وفسادها . أو الى النكد الدائم ، والشقاءِ الملازم . أمّا تخصيصُ المسلمين أو المؤمنين أحياناً بالذكر في بعض النصوص فلأنهم كانوا المخاطبين بهذه النصوص لحين ورودها ، أو لأنهم أربابُ الواقعة التي ورَدَ النص بشأنها . فلا يُفهم منه أنَّ غيرهم من أبناء الملل الاخرى غير داخلين في عموم حكمها المتعلّق بالمصالح العامة ، والمنافع المشتركة . فمثال النصّ المطلق العامّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الخلْقُ كلُّهم عِيالُ اللهِ وأحبُّهم إلى اللهِ أنفعُهم لِعيالهِ ﴾

فهل يريد الشارع بالعيال المسلمين وحدهم بعد قوله (الخلق كلهم) الصّريح في أن مراده كلَّ فردٍ من بني آدم بل كل فردٍ منهم ومن العجماوات أيضاً : فانها مخلوقةٌ له تعالى يأمرُ الشارع بالرفق بها كما سيأتي في بابه الخاصّ : فالاسلام إذاً يحُضّ كلّ فردٍ من الخلق على نفع كل فرد من الخلق . وقرّر أنّ منزلة المرءِ من ربّه تكون على مقدار مايُوصل من النفع والخير الى البشر . وفي معنى هذا الحديث أحاديث أخرى ؛ منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيرُ الناسِ أنفعُهم للناس ﴾

﴿ رأسُ العَقلِ بعدَ الايمـانِ باللهِ التحبّبُ الى الناس ، واصطناعُ الخيرِ الى كلِّ برٍّ وفاجرٍ ﴾

ومن كلام أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه في هذا المعنى : « قلوبُ الرّجالِ وَحشية فمن تألَّفها أقبلتْ عليه » وقال أيضاً : « البشاشةُ حبال المودّة والاحتمال قبر العيوب » وقال : « أعْجَزُ الناسِ من عَجَزَ عن اكتسابِ الإخوان وأعجز منه من ضيَّع من ظفر به منهم » وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لا تَباغَضوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَنافسوا وكونوا عِبادَ الله إخوانا ﴾

﴿ مَنْ عاملَ الناسَ : فلم يَظْلمهم ، وحدَّثهم : فلم يَكْذِبْهُمْ ، ووَعَدهم : فلم يخلفْهُمْ ، فهو ممَّن كمُلَتْ مُروءته ، وظهرَتْ عدالتُه ، ووجَبتْ أُخوّتهُ ﴾

﴿ الانسانُ أخو الانسان أحبَّ أمْ كرِهَ ﴾

ومثّلَ بعضُ الحكماء لذلك فقالَ : أمْسَى عليَّ المساء في الصحراء فلاح لي من بُعْدٍ شبَحٌ أسودُ على رأس رابيةٍ فذُعِرْتُ منه ، ولما أقبلتُ نحوهُ وجدتهُ إنساناً ، ولما صرتُ بجانبه وجدته أُخي ، وهكذا البشر يتعجلون في بغض بعضهم بعضاً وهم لو فكّروا لعلموا أنهم إخوة يستحقون التحابَّ بدل التباغض ، والتصافي مكان التحاقد .

(رُويدكُمُو ، فالدهرُ فيه كفايةٌ لتفريق ذات البين فانتظروا الدهرا)

أمّا الأحاديث التي خصَّت المسلمين بالذكر للاعتبار الذي ذكرناه آنفاً فمثلُ قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اعزلوا الأذى عن طريق المسلمين ﴾

﴿ أفضلُ الأعمال أن تُدْخِلَ على أخيكَ المؤمن سُروراً أو تقضي عنه دينا ﴾

ولا دليل في الشرع الإسلاميّ ينهى عن معاملة غير المسلمين بغير ما ذكر من مكارم الأخلاق بعد قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق ﴿ الخَلْقُ كلهم عيالُ الله وأحبُّهم الى الله أنفعُهم لعياله ﴾ وبعد قوله :

﴿ لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ في الاسلام ﴾

﴿ المؤمنُ آلفٌ مألوفٌ . ولا خير فيمن لا يألفُ ولا يُؤلَف ﴾

وبالجملة فالمسلمُ باعتبار الدين الاسلاميّ هو منْ كان مثال الكمال الإنسانيّ في حبّه لغيره من بني البشر . والمسارعةِ الى معونته ونفعه . وكفٍّ أذاه عنه وتحمّل الأذى منه . ومسامحته على أذاه . بل مقابلته عليه بالبر والاحسان كما قال تعالى في صفة الأبرار :

﴿ ويدرءُونَ بالحسنةِ السيّئةَ ﴾

وكما قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أفضلُ الفضائل : أن تَصِلَ مَن قطعكَ . وتعطي من حرَمكَ . وتَصفَحَ عمّن ظلمكَ ﴾

وإن قيام المسلم بهذا الواجب نحو أبناءِ نوعه هو في الوقت نفسه من جملة قيامه بالواجب نحو خالقه تعالى . والاسلام لا يسمح للمسلم أن يقف موقف صَوْلةٍ أو خصومةٍ بحالٍ من الأحوال ما لم تتعرّض حقوق بني الانسان للضياع أو يلحق المصالح العامّة أو الخاصة غبْنٌ أو فساد ، فانه إذ ذاك يسمح بالمقاومة ضمن شرائط العدْل والاعتدال . ومنْ تتبع الأحاديث الواردة عن الشارع بشأن حبّ الغير وايصال الخير اليه وجدها تربو على النصوص الواردة بشأن الواجبات الاجتماعية الأخرى . وإن مجرّد سردها هنا يستوعب عدّة صفحاتٍ . فلذلك نقتصر على ما هو آت :

﴿ ما تحابَّ اثنانِ في اللهِ إلا كان أحبُّهما الى اللهِ أشدَّهما حُبًّا لصاحبه ﴾

﴿ اصنعْ المعروفَ الى مَنْ هو أهله ، والى غير أهلهِ : فان أصبْتَ أهلَه أصبْتَ أهله ، وإن لم تصبْ أهله كنتَ أنتَ أهلَه ﴾

﴿ إنّ الله أمرني بمُداراةِ الناسِ كما أمرني باقامةِ الفرائض ﴾

ويعنى بمدارة الناسِ التحبُّبَ اليهم . والمسارعةَ الى فعل ما يُرضيهم من دون

ما ذِلّةٍ ولا معصية :

﴿ إنّ اللهَ يُبْغِضُ المُعَبِّسَ في وُجوه إخوانه ﴾

﴿ إنَّ الله يُحِبُّ إغاثة اللَّهْفان ﴾

﴿ إن الله يحبُّ المُداومةَ على الإخاءِ القديم . فداوِمُوا عليه ﴾

﴿ بُلُّوا أرْحامكم ولو بالسَّلام ﴾

(الأرحامُ) صِلاتُ القُربى وأواصرُ النَّسب . يقول تَعَهَّدُوا ذوي قربا كم بالبرّ وصنوف الاحسان ، واذا عجزتم عن ذلك فلا تعجزون عن كلمة سلام وترحيب توجهونها اليهم ، فتُنعشون القرابة بعد الخمود ، وترطبونها بعد الجفاف والجمود . واستعمال (البلّ) هنا من أجلّ الاستعارات وأبدعها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ تعافَوْا تَسقط الضَّغائنُ من قلوبكم ﴾

(تعافَوْا) من العفو أي سارعوا الى أن يعفْوَ بعضكم عن إساءة بعض : فان ذلك يُساعد على محو الأحقاد من صدوركم . وقال أيضاً :

﴿ لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ﴾

﴿ لا تدخلوا [1] الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا [1] حتى تحابُّوا ﴾

﴿ لَانْ أُعينَ أخي المؤمنَ على حاجتِهِ أحَبُّ اليَّ من صِيام شَهرٍ واعتِكافِه ﴾

﴿ مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثلُ الجسدَ : اذا اشتكى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسهَرِ والحُمَّى ﴾

﴿ المؤمنُ للمؤمِن كالبُنْيانِ المرْصُوصِ يَشُدُّ بعضهُ بعْضا ﴾

---

(١) حذفت النون من (لا تدخلوا) ولا (تؤمنوا) لغير ناصب ولا جازم تخفيفا على حد (كما تكونوا يولى عليكم)

﴿ مِنْ أفضل العمل إدخالُ السُّرورِ على المؤمنِ : تَقْضي عنه دَيناً ، تقضي له حاجة ، تنفِّسُ عنه كُرْبة ﴾

﴿ مَنْ أصبحَ لا يَهْتَمُّ بالمسلمين فليسَ منهم ﴾

نزيد هنا في بيان السبب في تخصيص المسلمين بالذكر أن الزمن الذي قيلت فيه هذه الأحاديث الشريفة كان المسلمون فيه فئة قليلة حديثةَ النشأة ، جديدة الأطوار ، غريبة في العالم ، يُحيطُ بها الاعداء من كل جانب . لا جَرَم أنه لا ينجيهم ويضمنُ سلامتهم سوى العمل بارشاد هذه الأحاديث . وهذا ناموس اجتماعي تُضطر الى العمل به كل فئةٍ حديثةِ النشأةِ جاءَتْ من التعاليم الدينية أو الاجتماعية بما ينكره المطيفون بها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أرادَ أن تُجابَ دَعْوتُه وتكْشَفَ كُرْبَتَه فليُفرِّج عن مُعْسِر ﴾

(المعسرُ) المصاب بعُسْرٍ وضيق . وغَلَب استعماله فيمن ضاقت ذات يده عن وفاء ديونه وقضاء حاجات معيشته

﴿ إنَّ أحبَّكم إلى الله الذين يألفون ويُؤلَفون . وإنَّ أبغضكم إلى الله المَشاؤون بالنميمة ، المفرِّقون بين الإخوان ﴾

لا جَرَم أنه بقدر مايكون لتوثيق علائق التحابّ بين الناس في نظر الشارع من الشأن والاعتبار يكون للمجتريء على تقطيعها من المقت والاستنكار . والكلمةُ الجامعة في الحضّ على التعاون والتساند هذه الآية الكريمة :

﴿ وتعاونُوا على البرِّ والتقْوى ، ولا تَعاونوا على الإثمِ والعُدْوان ﴾

ومثلها في الحضِّ على مبادلة عواطف الحب والتوصل اليه من أسهل طرقه قوله تعالى :

﴿ وإذا حُيِّيتُمْ بتَحيَّةٍ فَحيُّوا بأَحْسَنَ منها أوْ رُدُّوها ﴾

الأَفضل أن تقابل صديقك من وسائل الألفة ودواعي التحابّ بأحسن

مما قابلك به . فان لم تفعل كان عليك أن تقابله بمثله على الأقل . ومما روى عن عرب الجاهلية في التعاون ومساعدة الغير قولُ حاتم الطائي :

(إذا كُنتَ رَبّاً للقَلُوصِ فلا تدَعْ رَفيقكَ يمشي خلفَها غيرَ راكبِ)
(أنخها فأرْكبْهُ : فإنْ حَمَلَتْكما فذاكَ ، وإن كان العِقابُ فعاقبِ)

أي وإنْ لم تحملكما معاً وكان اللازم أن تتعاقبا أي تتناوَبا الركوبَ عليها - فتركبها أنت مرةً وهو مرةً - فافعلا

وأفضلُ من هذا ما رواه البيهقي قال : شَتَمَ رجلٌ ابن عباس فأجابه : أتشتِمُني وفيَّ ثلاثُ خصال : إني لأَسْمَعُ بالحاكم يعدلُ في حكمه فأُحِبُّهُ ، ولعلّي لا أُقاضي اليه أبداً . وإني لأَسْمَعُ بالغيْث يُصيبُ البَلَدَ فأفرحُ به ، ومالي به سائمةٌ ولا راعية . وإني لآتي على آيةٍ من كتاب الله فأودُّ أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم »

وقد أخذ أبو العلاء المعرّي المعنى الثاني من معاني ابن عباس فنظمه شعراً فقال :

(ولو أني حُبيتُ الخُلْدَ فَرْداً لَمَا أحببتُ بالخلدِ انفرادا)
(فلاَ هطَلَتْ عليَّ ولا بأرضي سحائبُ ليسَ تنتظم البلادا)

وليس من علامات التحابّ والتعاون بين الإخوان أنْ يرى أحدهم صديقه مقيما على الشرّ والمنكر وفعل السوء فيَتَحبّبَ اليه بالسكوت عنه ، والإغضاء عليه . أو استحسان ما فعل أحياناً . فإنَّ هذا النوع من المجاملة والتّحبب ممقوتٌ في الشرع ، منهيٌّ عنه في الكتاب العزيز . وقد وصف أقواماً كانوا من الحبّ الكاذب على ما ذكرنا فقال تعالى :

﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلوهُ . لَبِئْسَ ما كانوا يفعلون ﴾

ولو كان هؤلاء يتحابُّون حقَّ التحابِّ لَتَلَطَّفَ أحدهم في نهي الآخر عن

سوءِ فعلهِ . وعاتبهُ على ما أتى من مُنكر أمْرِه . فيكون بذلك قد أعانه ، وأخلص في الحبِّ له .

(أنتَ عيني وليس منْ حقِّ عيني غضُّ أجفانها على الأقذاءِ)

وفي الحديث الشريف :

﴿ أُنصرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً ﴾

ولما استشكلُوا نُصرة الأخ الظالم فسَّرَها لهم صلى الله عليه وآله وسلم زجره عن ظلمه . فاذا انتهى وازدجر كنتَ قد نصرتَه على نفسه ، وأنقذته من عاقبة إغوائها له . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ نَصَرَ أخاهُ بِظَهْرِ الغيْبِ نَصَرَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة ﴾

والمعنى أنَّ من رأى شتماً أو ظلماً أو تهمةً باطلة أُلْصِقَتْ بصديقٍ له وصديقُهُ غائبٌ غيرُ شاعر بالأمر فدافعَ عنه ، وصان كرامته ، وحفظ له حقه كان له ما ذكر من الثواب :

﴿ المؤمنُ أخو المؤمنِ : لا يَدَعُ نصيحتَه على كلِّ حال ﴾

وهناك أقوامٌ رَأوْا من الوَرَع الاعتزال عن الناس فلا يسمعون سوءاً ، ولا يَرَوْنَ منكراً . ولكن في عُزلتهم حرمانُ الناس من نصحهم ووعظهم وإرشادهم . ولا سيما اذا كان هؤلاء المعتزلون علماء مسموعي الكلمة ، قادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن ثَمَّ نوَّه الشارع بشأن الذي يخالط الناس ويُعاونهم وينفعهم ولو لحِقَهُ بعضُ الأذى منهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبِرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمن الذي لايُخالط الناسَ ولا يصبِرُ على أذاهم ﴾

ثم إنَّ الشارع نهى عن منازعة الناس وكثرة اللّجاج في الخصومة لهم خَشْيَةَ

أن يؤدي ذلك الى تسلسل العداوات ، فيسوء العيش ، وتتنغص الحياة .
من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أبْغَضُ الرجالِ الى الله الأَلَدُّ الخَصِم ﴾

(الأَلَدُّ الخَصِم) الشديد الخصومة ، الصَّبُور على النزاع ، الذي يظهر له وجهُ الحقّ مع خصمه فيتصامّ عنه ، ويُثابر على مناصبته الى ماشاء الله

ولم يُغفل الشارعُ أمراً متعلقاً بالحب والبغض جديراً بالعناية والاهتمام ذلك ما أشار اليه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحْبِبْ حَبيبَكَ هَوْناً ما ، عَسى أن يكونَ بَغيضَكَ يوماً ما . وأبْغِضْ بغيضَك هوْناً ما ، عسى أن يكون حبيبَك يوماً ما ﴾

(هوناً ما) أى بتؤدة لالجاج معها ، ورفق لاطيش فيه . والمعنى إذا أحببتَ إنساناً فلا تبالغ في حبه والثقة به الى حدّ التملق أو أن تطْلِعَهُ على بواطن أسرارك فرُبما انقلب عليك عدوّا ، فكان أعرف بطرق مضرّتك . وكذلك اذا أبغضته لسبب صحيح شرعي لاتُبالغ في بغْضه والتشنيع عليه ، وهتك أستاره وإذاعة أسراره . فقد يتفق ان يرجع الحالُ بينكما الى الحسنى والمصافاة فتخجل وتندم على ما كان فَرَط منك في حقه

(المُزاح) ومما يساعد على استحكام عُرى التحابّ بين الإخوان وامتزاج قلوب بعضهم ببعض أن يكون لهم في مجالسهم شيء من اللهو واللعب المعتدلين بحيث لايخرجون فيهما عن حدود المطايبة والمفاكهة والمزاح المحمود ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً . وذكروا من مزاحه أشياء غاية في اللطف والصّدق وإدخال المسرة على المخاطبين كالاطفال والنساء والعجائز . من ذلك قوله لغلام مات له طير فحزن عليه :

﴿ ياأبا عُمَيْر : مافعَل النغيْر [1] ؟ ﴾

---

(١) (النغير) تصغير (نغر) كصرد طائر يشبه العصفور احمر المنقار جمعه نغران

وقوله أيضاً لتلك المرأة التي شكت اليه شيئاً من أمر زوجها :

« زَوْجُكِ الذي في عَيْنَيه بياضٌ ؟ »

وإن في المزاح على هذه الصورة تفريجاً للكروب ، وتَسْرِيةً عن القلوب . قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : « إنّ هذه القلوب تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحِكَم » . والمرء الذي يتكلفُ العُبوسَ وفرطَ الوقار في مجالس الناس ، أو يلتزم الجدّ في عامة أحواله يمقتونه ويستثقلونه . بل ربما تجنّبوا مجلسه ، واستحلوا أحياناً غِيبتَه . ومما وَرَدَ عن الشارع في الحضّ على الانتباه لهذا الأمر قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أُلْهُوا والْعَبُوا فإني أكرهُ أنْ يُرى في دينِكم غِلْظَة »

(غلظة) جفاء وشِدّة تُنَغِّص العيش ، وتجعل الحياة مُرّة . ولكن على العاقل أن يتفطَّنَ لما يُريده الشارع من اللهو واللعب ويحسن فهمهما ، وصورةَ استعمالهما ، فلا يتجاوزهما الى مانهى اللهُ ورسوله عنه : مما فيه ضياعُ وقتٍ أو مال ، أو مَس عِرْض أو كرامة ، أو تجديد عداوة أو قطيعة أو تفريطٌ بحقٍ أو فريضة . وكلُّ مافي الأمر مثلاً أن يُرَوِّضَ الأصدقاء في مجالس لهوهم أبدانَهم بالألعاب ، أو يُنْشدوا أناشيدَ لافُحش فيها ولا سِباب ، أو يتطارحوا من النِّكات ماينعش الهِمَمَ ولا يخرج عن الصواب

وحدودُ الاعتدال في المزاحةِ والمداعبة متعالَمة مشهورة قلما يجهلها أحد ، ولكن طريقها عسير ، والوقوف عندها يحتاج الى عقلٍ كبير ، قال سعيد بن العاص لابنه « اعتدل في مزاحك ، فان الإفراط فيه يُذهب البهاء ، ويجرِّئ عليك السُّفهاء . كما أنّ التقيل منه يُبعِدُ عنكَ المؤآنسين ، ويوحش منك المصاحبين » ورُوي أنّ سيدنا صُهَيْباً رضي الله عنه كان يُعجبه أنْ يمزحَ فقال

له النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

«أتأكلُ التمْرَ وبكَ رَمَدٌ؟؟»

فأجابه إنّي أمضَغُ على الناحية الأخرى يارسول الله !! فضحك صلى الله عليه وآله وسلم حتى بَدَتْ نواجذه الشريفة

وقد يكون المراد باللّهو واللّعب في حديث (الهُوا والعبُوا) اباحة إقامة المهرجانات والتقاليس[1] في أيام المواسم والأَعياد والأعراس فيضرب الجواري على الدفوف، ويلعب الفتْيان بالحراب والسيوف. في نظير ذلك مما لاسوْء فيه ولا أذى، وَوردت به السنة والأَخبار الصحيحة

الرحمة والشفقة

واجبُ الرحمة والشفقة ضربٌ من ضروب (التعاون والتحابٌّ). يمارسه المرء ازاء العَجَزَة والضعفاءِ الذين لايستطيعون حيلةً في دَرْء أذى يلحقهم، أو مكروه ينزل بهم. وقد أشرنا في بعض الفصول الماضية الى أن الانبياء انما بُعثوا لأجل هداية البشر الى الحق والعدل. ولما كان ضعفاؤهم معُرَّضين لضياع حقوقهم، ولحاق الظلم بهم من قِبَل الأقوياء — يُعلن الأنبياء (صلوات الله عليهم) في جملة مايُعلنون من أركان دعوتهم — أمر العناية بهؤلاء الضعفاء، والانتصار لهم ممن يُريد ظلمهم. بل انهم فوق ذلك يَعُدُّون أنفسهم منهم، ولا يأنفون من الانتماء اليهم. تطييباً لقلوبهم، وحمايةً لهم من صولة الظالمين. حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) جمع تقليس مصدر (قلس) القوم اذا استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدفوف والغناء واصناف اللهو

﴿ اللهُمَّ أمتني مِسكيناً وأحيني مِسكيناً واحشرني في زُمرةِ المساكين ﴾

وهذا الخلق الشريف أعني (الشفقة والرحمة) لا وطنَ له، ولا حدَّ ينتهي اليه. فالواجبُ أن يتعدّى أثرُهُ الى كلّ مستضعَفٍ من الإنسان والحيوان كما علّمنا صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ في كلِّ ذي كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجرٌ ﴾

(ورطوبةُ الكبد) كنايةٌ عن رطوبته بدم الحياة . وليس للانسان الرحيم أن يفخر على الحيوان بهذا الخُلقِ (خُلق الرحمة والشّفقة) فإن الحيوانات أيضاً تتراحمُ ويواسي بعضها بعضا . وقد رُوي أنَّ طائفةً من علماء الأزهر كانوا يُفطِرون في مساءِ رمضانَ على سطحٍ بعض أروقة الجامع . فغشيهم هِرٌّ ، فكانوا يُلقون اليه من طعامهم المرّةَ بعد المرّة . وهو في كلّ مرّةٍ يغيبُ ثم لا يلبث أن يعود . فرابَهم أمرُه وتبعوه . واذا به يُلقي ما يأخذُ من الطعام بين يدي سنّور كبيرٍ أعمى لابدٍ في بعض الخِرَب . فوقف الشيوخ حيارى ، ومجّدوا الربَّ تعالى الذي رحم العالمين بإيجاد عاطفة الرحمة في نفوسهم . ولولاها لأصبح الكونُ خرابا ، ولكانت الحياة فيه عذابا

ومظاهر الرحمة بالضعفاء تختلف باختلاف هؤلاء الضعفاء ، وتنوّع أسباب ضعفهم وحاجتهم : فمنهم الخدَم والخَوَل الذين يكونون في البيوت يخدمون العائلات لقاء أجرٍ ، فالرحمةُ بهؤلاءِ ومعاملتهم بالحسنى من أوكد الواجبات بل انّ وجوبها ممّا يلتحق بوجوب رحمة أفراد العائلة بعضهم لبعض . وقد نبّه الشارع الى هذا فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ماخفّفتَ عن خادمكَ في عملهِ فهو أجرٌ لك في موازينك يوم القيامة ﴾

ورأى صلى الله عليه وآله وسلم أبا مسعودٍ الصحابيَّ رضي الله عنه يضرب غلاماً له فقال له :

﴿ اعلمْ يا أبا مسعود أنَّ الله أقدَرُ عليك منك على هذا الغُلام ﴾

واغتاظت عائشةُ رضي اللهُ عنها من خادمٍ لها ثم رجعت الى نفسها فقالت:

« لله درُّ التقوى ما تركتْ لذي غيظٍ شِفاء »

تُريد أنَّ التقوى ومخافة الله تحول بين المغتاظ وشفاءِ غيظه ممن غاظه. ووَرَدَ في المأثور « من خاف الله لم يَشْفِ غيظه ». ويدخل تحت النصيحة النبويّة في حقّ الخدم والأُجَراء في البيوت ـ النصيحةُ بحقّ الصُنّاع والعَمَلة المستأجرين لأغراض أُخَر. بل خصهم صلى الله عليه وآله وسلم في قوله:

﴿ أعطوا الأجير أجْره، قبل أن يجُفَّ عَرَقُه ﴾

ومسألةُ (عُمّال المعامل) والمستأجرين في البيوت التجاريّة الكبرى من أكبر مشاكل العمران الحديث: فإن هذا العمران إن كان حظَرَ الاسترقاق الفرديّ فانه مهّد الطريقَ أمام طائفةٍ من أرباب رؤوس الأموال يحشرون الى معاملتهم أُلوفاً من إخوانهم في الانسانيّة فينقادون اليهم صاغرين مسوقين بالحاجة والعوَز. ثم يأخذون في استغلالهم وتسخيرهم في خدمة منافعهم وتوفير ثروتهم، لقاءَ أُجور يوميةٍ زهيدة يمسكون بها رمَقهم، ورمق عيالهم. فالإسلام الذي جعل الرقيق والخادم اخاً أو فرداً من أفراد العائلة لا يبخل برحمته وعطفه أيضاً على (عُمّال المعامل)، فهو بالطبع يُرشد إلى مواساتهم، وعدم تحميلهم فوقَ طاقتهم. وأن يكون لهم نصيب صالح من كسب أيديهم وثمرة أتعابهم. ولذلك قال: أعطوهم أُجورهم من دون مطل ولا تسويف

ومن الضعفاء الذين حضّ الاسلام على وجوب مواساتهم ومعاملتهم بالحسنى (أسرى الحرب) وقد جاءَ في صفة طائفةٍ من الأبرار قوله تعالى:

﴿ ويُطْعِمُون الطَّعامَ على حُبِّهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾

وليس المراد بذكر الطعام أن يُقتصر من ضروب المواساة على إطعامهم. فإن غير الإطعام كالإطعام في الوجوب لكنه خصَّ الطعام لأن سبب نزول الآية كان كذلك. ولأنّ الإطعام أهم ضروب الإحسان، إذ كان به قوام الأبدان كما لا يخفى

والمراد بالأسير في الآية غيرُ المسلم لأن الأسارى وقت نزول الآية انّما كانوا مشركين. وقال الحسن البصري: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُؤتى بالأسير فيدفعه الى بعض المسلمين ويقول له «أحْسن اليه» فيبقى عنده اليوم واليومين والثلاثة، فيؤثِرُهُ على نفسه. وكفى بهذا منقبة للقرآن، وشهادةً على سُموّ آداب الاسلام. ومن قوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك:

﴿ استوصوا بالاسارَى خيراً ﴾

ومن الضعفاء الذين تجبُ على المرءِ الرحمةُ بهم (الأطفالُ الصغار) سواء أكانوا أطفاله، أو اجانب عنه. ومن أجمل ماورد في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ ليس منّا مَنْ لم يَرحمْ صَغيرنا، ويوقّرْ كبيرنا، ويأمرْ بالمعروف وينهى[1] عن المنكر ﴾

أما ماورد بشأن رحمة الفقراء والمُستضعفين عامّةً فكثير. من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ لكلِّ شيءٍ مِفتاحٌ ومفتاحُ الجنّة حُبُ المساكين والفقراء ﴾

﴿ الساعي على الأرْمِلةِ والمِسْكين كالمجاهِد في سبيل الله ﴾

(والسّاعي عليهم) هو الذي يغدُو ويروح في قضاء حاجاتهم، وتهيئة

---

(١) هكذا الرواية باثبات حرف العلة في (ينهى) مع وجود الجازم وهي لغة لبعض العرب وعليها قول الشاعر: (اذا العجوز غضبت فطلقِ ✿ ولا ترضاها ولا تملقِ)

مايلزم لهم من مسكن و كسوةٍ وطعام

﴿ لاتُطعموا المساكين ممّا لاتأكلون ﴾

أي لاتطعموهم مما تأنفُون منه وتتقزّزُون ، فإنكم بذلك تكونون كأنكم لم تعطوهم شيئاً . وَوَصَفَ القرآنُ بعضَ الفُجّار فقال :

﴿ إنَّه كانَ لايؤمنُ باللهِ العَظيم ، ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسْكين ﴾

لم يذمه على عدم إطعام المساكين بل على كونه لايَحُضُّ غيره من الأغنياء على إطعامهم ، ومدّ يد الاسعاف اليهم . وفي هـذا النصِّ دلالةٌ على أنه يجب على أبناء الوطن أن يتداعوا الى العناية بفقرائهم ، وتداركِ الأسباب التى تخفّف البؤس عنهم : من مثل تأسيس ملاجىء لعَجَزَتهم ، ومستشفياتٍ لمرضاهم ، وكتاتيب لأطفالهم . وتخصيصُ الطعام بالذكر اتّفاقيٌ كما مرّ ، والاّ فانّ الشرع يحضّ على إيصال الخير اليهم بمُختلف الوسائل ، وإنَّ حضّ أبناءِ الوطن بعضهم بعضا على ماذكرنا من ضروب العناية بالفقراءِ والمساكين ـ قد يستلزم انقطاع أفرادٍ منْهم لهـذا العمل ، وتوفّرهم عليه . ومن هنا تنشأ (الجمعيّات الخيريّة) و (جمعيّات البرِّ والإحسان) و (جمعيّات التعاون) . ومن أكبر مايُساعد على تأليف هذه الجمعيّات بينَ الاقوام المسلمين وجوبُ الزّكاة عليهم : فإنهـا إذا أُخرجت كما أُنزلت كان منها رؤوس أموالٍ طائلة تُدير ملاجىء ومستشفياتٍ وكتاتيب ومعـاملَ خاصةً بالفقراءِ وأولادهم . وإذا أضفنا الى أموال الزكاة أموال الأوقاف وارتفاع عقاراتها[1] ممّا هو مُرْصدٌ لأعمال البرّ والاحسان وضروب الخير واستُثْمِر كل ذلك بحسب أصول فنّ الاقتصاد الحـديث ـ اجتمع من وراءِ ذلك كله بيت مالٍ طائفي لايبعدُ أن يحدث من ورائه انقلابٌ

(١) ارتفاع العقارات : هو ربعها ودخلها ، ونقول اليوم ايرادها

عظيم في الطوائف الاسلامية و إصلاح كبير في هيآتهم الاجتماعية :

ومن الأحاديث التى حضّ الشارع فيها على الرحمةِ حضاً عاماً قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الرَّاحِمُون يرحَمُهم الرَّحْمٰن ، إرحموا مَنْ في الأرضِ يرحَمْكمْ مَن في السماء ﴾

﴿ خاب عبدٌ وخَسِر : لم يجعل الله في قلبهِ رحمةً للبَشرِ ﴾

﴿ لايَدْخلُ الجنةَ الا رحيم ﴾

فهذه الأحاديث وأمثالها معها يتناول الخطابُ فيها كلّ فردٍ من أفراد الناس إزاءَ كل فردٍ من أفراد الناس ، لا إزاءَ أبناء دينه وملته خاصة . وهذا أمرٌ معروف من دين الاسلام بالضرورة . ويُروى أن الامام الشعبيّ ألقى السلام يوماً على ونيّ قائلاً « السلام عليكم ورحمة الله » فقيل له أتدعوله بالرحمة والرحمةُ استغفار ؟! « فأجابهم : أليْس في رحمة الله يعيش ؟ » !! ظنّ القومُ أنّ طلب المسلم الرحمة لغير أبناءِ دينه لايجوز لاعتباراتٍ قامت في نفوسهم لم يُدركها عقلُ الشعبي ، ذلك الامامُ الكبير ، وإنما أدرك عقله ورأى بعيني رأسه أنّ البَشر كافة : مؤمنهم وجاحدهم ، يتقلبُون في صنُوفٍ من نِعَم ربِّهم ، وضروبٍ من رحمة خالقهم ، يُغْدِقُها عليهم كلّ صباح ومساء . ليحملهم بذلك على التفكّر في عظمته ، ثم الرجوع الى صحيح عبادته ، أو يفعل ذلك تعالى لحِكَم وأسرار هو وحده سبحانه يعلمها ، فما معنى غضب الشعبيّ اذاً عليهم بل ماعساهُ يكون مبلغ تأثير تركه طلب الرحمة سوى التدخّل في أسرار القدر واستبطان البُغْض لعيال الله الذين أمر بحبّهم ، وارادة الخير لهم

الرفق بالحيوان

أشرنا في بحثِ (الرحمة والشفقة) الى أن الحيوان يدخل في عموم من تجبُ رحمته والرفق به . لأنه ذو كَبدٍ رطْبةٍ كما مرَّ في الحديث ، ولأنَّ في القسوة على الحيوان إيلاماً له ، وهو ذو نفس حيَّةٍ تُحسُّ وتشعر بالألم ، فلم يكن ثَمَّ فرق بينه وبين الانسان من هذا القبيل سوى أنَّ الانسان قد يتظلَّمُ أو يعبرِّ بنطقه عن شعوره بالألم مستغيثاً مسترحماً فيرثي له مؤذيه ، ويكف عنه ، أما الحيوان الأعجم المسكين فليست له وسيلة تحميه من أذى الانسان ، وتشفع به لديه سوى شعور الانسان نفسه بأنه ارتكب ظُلماً ، واكتسب إثما ، فمن لنا بإنعاش هذا الشعور الشريف في نفس الانسان المؤذي . فيتأدَّب بآداب الدين ، ويشفق على أخيه في الطين

والحيوانُ الصائل أو المؤذي يُقتلُ دفعاً لأذاه وصوْلته . أمّا غيره فلا يجوز التعرّض له بحالٍ . بل إنَّ منه ما هو نافعٌ للإنسان كالبُوم والخفّاش والغُراب ، فانها تَتَبَّعُ الحشَرَات والديدان في الأرض الزراعية فتأكلها ، وتقطع أثرها ، وبذلك ينجو الزرّاعُ من شرّها . ومع هذا ترى هؤلاء الزرّاع يتتبّعونها ضرباً وقتلا ، ويوسعونها سبًّا وشتما ، ويجزونها على صنيعها كما جُوزي سنمّار

والحيواناتُ ذاتُ الدرِّ والنّسل قلَّما يؤذيها أربابها ومثلُها حيواناتُ الركوب سوى المُسخَّرة في نقل الأثقال . فالويلُ لها اذا وقعتْ في يد منْ لا خلاق لهم من العامة ، ذوي الغلظة والجفاء ، فانهم يجورون عليها ، ولا يرهبون الله فيها . فصار من الواجب على رجال الضبط والأمن أن لا يرهبُوا الله فيهم ، تأديباً لهم وزجراً

والكلابُ والقطط وصغارُ الطير مُعرَّضة لصَوْلة الصبْيان وعُرامهم (١)

(١) اي شرهم واذاهم

فعلى أوليائهم أن يمنعوهم من ذلك ، ويعوّدوهم الرفق بهذه الدواجن ، والعطف عليها ، ويشرحوا لهم ما لها من المنافع في خدمة الناس . وقد أوصى الشارع صلى الله عليه وآله وسلم بالهرّة لكونها تطوف بالليل في البيوت وحولَ النائمين . فتقتل الحشرات المؤذية ، وتلتقط الفضَلاتِ المنتنة . وقد أصغى [١] يوماً بيده الشريفة الإناء الى هرّة بيته يسقيها ، ويُروي عطشها . فدلّ بذلك على أن سؤرها طاهرٌ وإن كانت تأكل النجاسات أحياناً . وقد نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن إيذاء هذه العجماوات ، وتوَعّد عليه في جملة أحاديث . وأشهر الأحاديث في وجوب الرفق بالحيوان قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ في كلِّ ذي كبدٍ حرّى أجْرٌ ﴾

(وحرّى) مؤنث حرّان أي شديدة العطش . ويُروى (رطْبةٍ) كما في الرّواية السابقة . ومن الأحاديث في ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ رَحِمَ ولو ذبيحةَ عُصفورٍ رحمه الله يوم القيامة ﴾

﴿ اتّقوا الله في البهائم المُعْجمة : فاركبوها صالحة ، وكلُوها صالحة ﴾

قوله (المعجمة [٢]) أي العجماء التي لا تنطق ولا تقدر أن تُفصح عمّا في نفسها . وقوله : (اركبوها صالحة) أي اعلفوها وأريحُوها حتى اذا ركبتموها وجدتموها صالحة للركوب ، وجديرة أن توصلكم الى حيث تقصدُون . وقوله (كلوها صالحة) أي أحسنوا خِدْمتها وتعهّدُها بالعلف والريّ وخصب المراعي فتسمن وتصلح للأكل . وقال أيضاً :

﴿ إذا ركبْتُمْ الدّوابّ فأعْطوها حقّها من المنازلِ ، ولا تكونوا عليها شياطين ﴾

أي انزلوا عنها وأريحوها في الطريق المرّةَ بعد المرّة ، ولا تلزَموا ظهورها

---

(١) اي امال (٢) ولعل صواب الرواية المستعجمة بكسر الجيم: وهو من لا يقدر على الكلام اصلا

حتى تتعبوها وتنهكوا قوتها فتكونوا شياطين ، وكل مؤذٍ شيطان .

وأبلغُ ما جاء في الحض على الرفق بهذه البهائم ، وعرفان قيمتها ، وشكر الله على الإنعام بها : من باب وصف منافعها ، وتعديد خدماتها - قولهُ تعالى في كتابه الكريم :

﴿ والأَنعامَ خلقَهَا لكم ، فيها دِفْءٌ ومَنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جَمالٌ حين تُريحُونَ وحينَ تَسْرَحُون [١] . وتحملُ أثقالكم الى بلدٍ لم تكونوا بالغيه الاَّ بشِقِّ الأَنفُسِ إنَّ ربَّكم لرؤوفٌ رحيم . والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبُوها وزينةً ويخلُقُ ما لا تعلمون ﴾

أما إذا أردنا ذبح حيوان أو اضْطرِرْنا الى قتله ودفع أذاه فقد علمنا الشارع كيف نفعل فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنَّ اللهَ كتبَ الإِحسان على كلِّ شيء : فإذا قتلتم فأَحْسِنوا القِتْلَة . وإذا ذبحْتُمْ فأحسنوا الذِّبْحَة وليُحِدَّ أحَدُكم شَفْرَتَه . وليُرِحْ ذَبيحتَهُ ﴾

فالشارع يُكلفنا الإحسان وتوخِّي الخير حتى في تخفيف الألم عما نريد قتلَه أو ذبحهُ من الحيوان

فالكلب العقور مثلاً يُجهَزُ عليه بآلةٍ ماضية لا تُعَذِّبُه . والحيوان المأكول كذلك بعد أن نريحه ونَسقِيَهُ ونشحذ السكين شحذاً ماضياً ، ولا نريه إياها .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لعن اللهُ مَن مثَّل بالحيوان ﴾

والتمثيل به أن تقطع أعضاءه عضواً عضواً تعذيباً له وتشفياً منه ، أو تسلياً وتفكهاً أحياناً . وفي الحديث :

﴿ نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن التحْريش بين البهائم ﴾

---

(١) تريحون: ترجعون بها مساء من المراعي الى الزرائب و (تسرحون) تذهبون بها صباحاً الى المراعي

وهذا كما تفعل العامَّةُ في التحريش بين الديكة فتتواثب ، والكباش فتتناطح ، والثيران فتتصارَع ، والكلاب فتتهارش ، ثم يسيلُ دمُها ، وتنبهر أنفاسها . وقد تُدركها منيَّتها . ولا فائدةَ للانسان من وراء ذلك سوى الضحك والتسلية ، أو المباهاة الباطلة ، أو جمع مال السُحْت من النظَّارَة (١)

وجاء في الحديث أيضاً بشأن الرفق بالحيوان :

﴿ نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذبْح ذوات الدَّرّ ﴾

أي ينبغي ألا يعجّل في ذبح إناث المواشي ذواتِ اللبن استبقاءً لها فيطولُ زمن الانتفاع بدَرِّها ويروى منها ابنُها

الصدقة والزكاة

قلنا في مقدّمة الكتاب : إنَّ الأخلاق بآثارها لا بأخبارها . ولا بد أنَّ القاريء انتبه في بحث (الرحمة والشفقة) الى أن مجرَّد تأثُّر النفس من حالة الفقراء والرثاء لهم ، والتحزّن عليهم ، لا يفيدُهم شيئاً ، ولا يصحّ أن يُسَمَّى صاحبه رحيماً أو شفوقاً ما دام تأثرُه وتحزُّنه لم يقترن بمواساته الفعلية لهم ، ثم إنَّ ضروب هذه المواساة كثيرة . وأطيبُها ثمراً وأحسنها أثراً ، إعطاؤهم ما ينتفعون به من لبُوسٍ وغذاء ، وخاصّةً الدراهم والنقود التى هي الأداة القريبة في تحصيل أنواع اللبُوس والغذاء والمرافق الاخرى : كالطبيب والدَّواء ، وغاز التنوير وفحم الاستدفاء . ومِنْ ثمَّ قال فقهاؤنا رضي الله عنهم « الدراهم للفقير أنفع » وبحاجاته المختلفة أشفع

و (الصَّدقةُ) كلُّ مال يُعْطى للفقير على وجه التقرُّب الى الله ، وانتظار المكافأة منه تعالى وحده عليه ، والمرءُ مختارٌ شرعاً في إعطاء هذه الصدقة . أما

---

(١) (النظارة) بتشديد الظاء هم الذين نسميهم (متفرجين)

(الزكاة) فصدقة خاصة فرضها الإسلام فرضاً لا هوادة فيه . وقد عيَّن قدرها وزمنها ومصرفها وكيفيَّة صرفها ، ولها أحكام وشرائط مُبيَّنة في كُتُب الفقه : فالزَّكاة صدقة طائفية أي خاصَّة بطائفة المسلمين ، أمّا الصدقة المطلقة فعالميَّة لا تختصُّ بملَّة ، وقد شرعها الاسلام للمسلمين في جملة ما شرع لهم من الواجبات الاجتماعية التى تساعدُ على تحسين حالتهم ، وتهدئة نفوس الفقراءِ من ثوران الحقد عليهم والطمعِ في أموالهم ، فتقِلُّ الجرائم ، وتتوثّق الروابط بين أبناءِ الوطن على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم . ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى قوله « سُوسُوا إيمانكم بالصَّدَقة وحصّنوا أموالكم بالزَّكاة » ومعنى سُوسوه احفظوه وحُوطوه بما يُنميّه ويقوّيه . وبقدر ما أوصى الإِسلام الأَغنياءَ بأن يُعْطوا الفقراءَ صدقاتهم أوصى هؤلاءِ الفقراءَ أيضاً بأنْ لا يتصدَّوْا لأَخذها ما لم يكونوا في حاجةٍ اليها ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اليدُ العُلْيا خيرٌ من اليدِ السُّفْلى ﴾

فنبَّه الفقير في هذا القول إلى وجوب العمل والسعي والاستغناءِ بالله عن الناس فلا يقف من الأغنياء موقف الاستعطاءِ والتسوُّل . والاسلامُ وإن حضَّ أتباعه على التعاون في أعمالهم ومصالحهم ـ لكنَّ من جهةٍ ثانية أرشدهم الى أن يعمل كلٌّ منهم في تحصيل حاجاته بنفسه ، ولا يكون كلاًّ على غيره . حتى إذا كان أحدهم على ظهر فرسه وسقَطَ سَوْطهُ مِن يده فلينزل اليه ، ولا يكلّف غيره مناولته إياه . كلُّ هـذا غرساً للعزَّة فيهم ، وطبْعاً لنفوسهم بطابع العمل والاستقلال الشخصي وقد اختلفت حالة الحضارة ونواميس الاجتماع عما كانت عليه في زمن أسلافنا الذين كانوا يتصدَّقون على الفقراء بطرائق وأساليب تعارفوا عليها فيما بينهم ، وقد رأى أهل هـذا العصر أن يؤلّفوا (جمعيَّات خيريّة) تتناول فضول أموال الأغنياء بنظام ، ثم تُنفقها على الفقراء بنظام ، فكانت هـذه الجمعيات

نِعْمَتْ الواسطة بين الفريقين في مُلافاة المشكل ، وتسديد الحساب . وقد قلّ المتسوّلون في البلاد التي كثرت فيها هذه الجمعيات ، ولم يعودوا ينتشرون في الأزقّة والشوارع كما هو شأنهم في البلاد التى لا جمعيات خيرية فيها ، ونتج عن وجود هذه الجمعيات أيضاً أنّ الفقير القادر على الكسب رأى نفسه مضطراً الى تحصيل قوته وقوت عياله من طريق سعيه الشخصي ما دامت (الجمعيات الخيرية) لا تقيّد اسمه في سجلّ فقرائها العاجزين ، وما دام الأغنياء يُعْرِضون عنه ويحيلونه على تلك الجمعيات . وقد صرّح بعض علماء الاجتماع المعاصرين بما يأتي :

« إنّ التصدّق على الفقراء بالدراهم يعوّدهم البطالة والكسل ، ويثبّط هممهم عن متابعة العمل ، ويُميت في نفوسهم عاطفة الاستقلال الذاتي ، فلا تعِنْ أحداً منهم بدرهم ، واجعل كل مروءتك في أن تهيّء لهم سبباً للمعيشة ليتمكّنوا من مساعدة أنفسهم بأنفسهم » وهذه الفكرة الاجتماعية وإن لم يمكن تطبيقها في بلادنا بجملتها فانه يمكننا أن نستفيد منها ونحذُوَ حذوها في بعض طرائقها : فنوجد للفقراء أسباباً للكسب وتحصيل المعيشة ، ونؤلّف (جمعيات خيرية) تقوم بحسن الوساطة بين الأغنياء والفقراء . ونُلِحُّ على الأغنياء بتعريفهم واجبَهُم الشرعي والاجتماعيّ في إمداد هذه الجمعيات بصدقاتهم ، وفرائض زكواتهم ، كما نغرس في قلوب العامة والفقراء حبَّ العمل ، وبغض التسوّل ، وأنه غير جائز في الاسلام الاّ عند العجز التام . وقد مرّ في هذا الفصل وبعض الفصول السابقة نصوصٌ شرعية تساعد على إنفاذ هذه الطرائق الاجتماعية ، وترْويج أمرها في بلادنا وبين أقوامنا ، وإن لم نفعل تزدد البطالة والفقر فينا ، وتشتدّ القسوة في قلوب أغنيائنا ، والبغضُ والطمع في نفوس فقرائنا ، وبذلك تفسد أحوالنا ، ويختل نظام اجتماعنا ، ونصبح مضغةً في أفواه الطوائف الاخرى المخالطة لنا ، أو النازلة بين أظهرنا . هذا وإن كثرة النصوص الدينية الحاضّة على الصدقة

تضطرنا الى الاقتصار منها على بعضها . وأول ما نبّه الشارع اليه أن وجوب الصدقة انما هو على الغنيّ الموسر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيرُ الصدقة ما كان عن ظهر غنًى . وابْدَأ بمن تعول ﴾

انما اشترط الشارعُ هذا الشرط لتبقى نفسُ المتصدِّق طيِّبةً بما تتصدق به غير تابعةٍ له، ولا نادمةٍ عليه . أما اذا وَثِقَ من نفسه الرضاءَ والتبريك للفقير بما آثرَه به على نفسه فتكون صدقته إذ ذاك ذات فضلٍ . بل هي لعمري أفضل من صدقة الغنيّ بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيْرُ النَّاسِ مُؤمنٌ فقيرٌ يُعطى جُهْدَه ﴾

وفي مثل هؤلاء المحسنين الأبرار نَزَلَ قوله تعالى :

﴿ ويؤثِرونَ على أنفسهم وَلو كان بهم خَصَاصة ﴾

و(الخصاصة) الفقر والحاجة . ولا يستقلنّ المرء الصدقةَ مهما كانت حقيرة فانها قد تقع من الفقير موقعها . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اذا أتاكم السائِلُ فضعُوا في يدهِ ولو ظِلْفاً مُحرَّقاً ﴾

﴿ اتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمةٍ طيِّبةٍ ﴾

وقال أميرُ المؤمنين عليٌّ عليه السلام : لا تستحِ من إعطاء القليل فإن الحرمان أقلُّ منه »

ومما ورد فى فضل الصدقة عامةً قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الذين يُنْفِقونَ أمْوالهم فى سبيل اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنْبَتَتْ سبْعَ سَنابلَ فى كلِّ سُنْبلةٍ مائةُ حبة ﴾

(فى سبيل الله) أي فيما يُرضي الله تعالى من الأعمال وصنوفِ الإحسان فمقدار الحبة مما أُنفق فى هذا السبيل ينتج عنه من الخير أضعافُ أضعافه الى سبعمائة ضعف . والمرادُ من ذلك الوصف إظهار ما ينتجه التصدّق على الفقراء

من ضروب النفع والفائدة العائدة على الاغنياء والمتصدِّقين . وقال بعض الفضلاء في تفسير ما ورد في الخبر ـ من أنَّ الصدقة تدفع البلاء « لا جرم أنَّ العناية بالفقراء وتعهّدهم بالصدقة وتدارك أسباب معيشتهم وراحتهم يدفع عن الأُمة بلاءً اجتماعياً عظيما متوقَّعاً من قبل أولئك الفقراء » وتفسيرُ هذا القول مشاهدٌ فيما هو واقعٌ اليوم بين العمال وأرباب الأموال في العالم المتمدِّن . على أنَّ هناك حديثاً أصرح من ذلك وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَيْلٌ للأغنياء من الفقراء ﴾

فالشارعُ يحَذِّرُ بهذا القول أرباب الأَثَرَةِ والطمع والحرص على المال ـ من حقد « الصعاليك » وتألّبهم عليهم ، ومدّ يدهم بالسوءِ اليهم . وقال تعالى :

﴿ الذين يُنفقون أموالهم بالليل والنَّهارِ سرًّا وعلانيةً فلهُم أجرُهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحْزنون ﴾

﴿ وأحسِنوا إنَّ الله يحبُّ المحْسِنين ﴾

﴿ والذين في أموالهم حقٌّ معْلومٌ للسائلِ والمحْرومِ ﴾

ومن الأحاديث الشريفة ـ في فضل الصدقة والزكاة ـ قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا ماتَ الانسان انْقطَعَ عَمَلهُ إلاّ من ثلاثٍ : صدَقةٍ جاريةٍ ، أوعلمٍ يُنتفعُ به ، أو وَلَدٍ صالح يدعو له ﴾

قوله (صَدَقة جارية) أي عمل خيريّ ينتفع به الفقراء بعد مماته إلى ما شاء الله . وهـذا كبناءِ مستشفى لمرضى الفقراءِ ، أو ملجأٍ لعجزَتهم ، أو كتّاب لصِغارهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنما يستظلُّ المؤمن يومَ القيامة في ظِلِ صَدَقته ﴾

﴿ الصّدقة تُطْفيءُ الخطيئة كما يُطفيءُ الماءُ النار ﴾

﴿ الزكاة قنطرة الاسلام . ﴾

كأنّ المعنى أنّ بين المسلم وبين الاسلام قنطرة لايصل اليه حتى يجتازها .
وهذه القنطرة هى إخراج مافي ذمته من الزكاة وإيصالها إلى أربابها . وفي هذا
إنذارٌ شديد لتاركى الزكاة . كما أنّه يدلُّ على أنّ منْ أكبرِ أركان الاسلام
ومقاصده العليا تلافى شرور الاجتماع الإنساني من طريق التوفيق بين الأغنياء
والصعاليك في توزيع الثروة عليهم ضمن نظامٍ ثابت . وقال صلى الله عليه
وآله وسلم :

﴿ كلُّ مالٍ أدِّيَتْ زكاته فليس بكَنْزٍ وإن كانَ مدْفوناً تحت الارْض .
وكلُّ مالٍ لاتؤَدَّى زكاتهُ فهو كنزٌ وإن كان ظاهراً ﴾

هذا الحديث يفيد أنَّ الإسلام لايُريد أن يُنفق أرباب الأموال ثرَواتهم
كلّها في سبيل الصَّدقات والمبرات وإنما كل مايريده منهم أن يُؤدوا حقوق
إخوانهم الفقراء فيها ثم لهم بعد ذلك أن يكنزوها أو يتصرّفوا في الانتفاع بها
كيفما شاءوا وأحبوا وبذلك لايكونون داخلين في وعيد قوله تعالى :

﴿ والذين يَكْنِزُون الذَّهبَ والفضةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشّرْهم
بعذابٍ أليم ﴾

ومن آداب الصَّدقة أن يخرجها المتصدِّق من طيِّبِ ماله : فلا يَعْمِدْ الى
رَذْله وخَسيسه فيُعطيه الفقير . وجاء في ذلك قولهُ تعالى :

﴿ لنْ تنالوا البرَّ حتى تنْفقوا مما تُحِبون ﴾

أى حتى تنفقوا من المال الطيب الذي له منزلة وموقع من نفوسكم . وقال
تعالى أيضا :

﴿ يا أيّها الذين امنوا أنفِقوا من طيّبات ما كسبتم ومما أخْرَجْنا لكم من
الأرض . ولا تيَمَّمُوا الخبيثَ منه تُنفِقون . ولسْتُم باخذيه إلاَّ أن

تغمضوا فيه ﴾

أي لا تنفقوا من المال الخبيث الذي إذا اضطُرِرتم الى أخذه من غيركم أخذتموه على كُرهٍ وإغضاء وتسامح . نعم يجوز للمتصدِّق أن يتصدَّق بالتافه الحقير إذا لم يجد سواه وكان ينفع الفقير بالجملة . كما في الحديث السابق : « رُدُّوا السائلَ ولو بظِلفٍ مُحْرَق » . ومن آداب الصدّقة أن لايَمُنَّ المتصدّق بها ، ولا يُؤذي الفقير بالتطاول عليه في إسدائها اليه . وفي هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ الذين يُنفِقون أموالَهم في سَبيل الله ثمَّ لايُتْبِعون ماأنفقوا مَنًّا ولا أذًى لهم أجْرُهم عند رَبّهم ولا خَوْفٌ عليهم ولاهم يَحزنون ﴾

﴿ قولٌ معْروفٌ ومغفِرَةٌ خيرٌ من صدَقةٍ يَتْبَعُها أذًى . والله غنيٌّ حَليمٌ ﴾

أي ان الردّ على السائل – بما تُعورف عليه من لين القوْل والدُّعاء له بالمغفرة – أفضلُ عند الله من صدقةٍ تُعطيه إياها ثم تؤذيه بشيء من ضروب الأذى بعدها . وانظر ماأجملَ ختم هذه الآية بقوله « واللهُ غنيّ حليم » (غنيّ) أي عن صدقةٍ هذه صفتها . وفيه اشارة الى أنّ الصدقة التي تُدْفَع الى الفقير كأنما تُدفع إلى الله جلَّ شأنه . أو المراد بكونه تعالى (غنيًّا) أنّ لديه من أبواب الغنى والرزق الشيء الكثير فهو يفتحها لذلك الفقير الذي تصدّقت عليه ، ثم خَلَصْتَ بالأذى اليه . وقوله (حليم) أي عنك أيها المؤذي اذا تبت ولم تَعُدْ لمثلها

ومثل المنّ في إفساد الصّدَقة أن يراها المتصدّق في نفسه عظيمةً ذات شأن وقيمة . ومن لطيف مايُحكى عن خالد بن صفوان – وكان بخيلاً – أنه كان يقول : « والله ماتطيبُ نفسي بإنفاق درهمٍ إلا درهماً أقرعُ به باب الجنة ، ودرهماً أشتري به مَوْزا »

فقوله (أقرع به بابَ الجنة) أي أتصدَّق به وأصل الى الجنة فأقرع بابها للدخول اليها بواسطة ذلك الدرهم . ولا يخفى مافي هذا القوْل من استعظامِ شأن درهمه الذى أنفقه ، ونبْل منزلته في نفسه

ومُحصَّلُ القول أنَّ التصدُّق على الفقراء وإيصال مافرضه الله من الحقوق اليهم من أكبر الواجبات الاجتماعية على الأغنياء الموسرين . وإذا أراد الله بأمّةٍ خيراً جعل المال في أيدي الاخيار من أبنائها الذين يعرفون كيف ينفقونه في مصالحها . ويواسون به فقراءها . وما أحسن ماكان يقولهُ سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « اللّهم اجعل المـال عند خيارنا ، فلعلهم يجودون به على أولى الحاجة منا »

الامانة والعهد

(الوعدُ) و(العهدُ) متقاربان في المعنى ويُفرَّق بينهما : بأن (الوعد) يتعلّق غالباً بالمصالح الوقتية ، والأمور الشخصية ، ولا تكون ذاتَ بالٍ . أما (العهدُ) فيتعلق بالمصالح العامة والأمور ذات الخطَر والشأن التي قد ينتج عن الاخلال بها فسادٌ كبير ، أو شرّ مستطير . وفرْق أيضاً : وهو أنَّ (العهد) يقترن بهغالباً أيمانٌ مغلّظة ، ويُفرغ فيقيودٍ وشرائطمعينة ، وتسَجَّلُ وتدوّن ويوقع عليها المتعاهدون أحياناً . ولا كذلك (الوعد) فانه يُكتفىٰ فيه بالقول والمواطأة . ومن ثمّ كان أمر العهد أخطر ، ووجوب مراعاته أوكد ، والرجوع عنه أبشع وأقبح . حتى خصُّوا نقضه باسم (الخيانة) و (الغـدر) كما خصوا المحافظة عليه والقيام به باسم (الأمانة) وصاحبها (أمين) . و (الوفاء) يُطلق على حسن القيام بالعهد والوعد . أما ترك انجاز الوعد فيسمّى (خُلْفا) . ومهما عدّد الواصفونمن محامد (الصدق في القول) و (إنجاز الوعد) وحسناتهمافان

ذلك قليلٌ بالنسبة الى محامد (الأمانة) كما أنّ قبح (الكذب) و(خُلفَ الوعد) لاشيء بالنسبة الى قبح (الخيانة) وفظاعة أمرها وسوء مَغبتها. على أنّ الحسن والقبح في الجانبين يتوقفان على مبلغ ماينشأ من حسن الآثار وقبحها.

وقد أشرنا آنفاً الى أنّ العهود إنما تتوثق بين الناس من أجل الامور الهامة والمصالح العامّة، بخلاف المواعيد. ومِنْ ثَمّ كان (الوفاء بالعهود) أعمّ أثراً وأطيبَ ثمراً، كما كان (الغدْرُ) فيها أبين ضرراً، وأبشع خَبراً. ومَنْ عُرِف من الرجال بالغدر، ونكث العهد، قَلتْ ثقة الناس به وتجَنّبوا مشاركته والارتباط معه في الأعمال الماليّة والاقتصادية والوطنيّة، فتراه بَعيداً وإن كان قريبا، غريباً وإن كان نسيبا. ويالله ما أشأمَ الخيانة، وما أشدّ عيثها في البشر. وأسرعَها في إفساد مصالحهم، وتقطيع روابطهم. ومِنْ ثَمّ جعَلَها الإسلام منافيةً لخصاله، وصاحبَها غيرَ معدودٍ فى أبنائه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ لا إيمانَ لِمنْ لا أمانَةَ له، ولا دِينَ لمن لاعَهْدَ له ﴾

﴿ إنّ حُسنَ العهْد من الإيمان ﴾

﴿ المُسلمونَ عند شُروطهم ﴾

﴿ مَنْ غشّ فليس منا: المكْرُ والخَديعةُ والخيانة في النار ﴾

ولعمري إنّ الشارع صلى الله عليه وآله وسلم قد أعذر في أقواله هذه إلى من اتّبعه من المسلمين، وبَرِىءَ من دَرَك التقصير [1]، في الارشاد والتحذير. فليَبْرؤوا هم من دَرَك التقصير في العمل إن كانوا فاعلين. وقد مَدَحَ القرآن الأبرارَ فقال في صفتهم:

﴿ والذين هُمْ لِأماناتِهم وعَهْدِهم رَاعون ﴾

﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾

---

(١) الدرك بالتحريك ويسكن: بمعنى التبعة، وبمعنى المسئولية كما نقول اليوم

وحضّ المؤمنين على الوفاءِ بالعُهود فقال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أوْفُوا بالعقود ﴾

وقال تعالى في آيةٍ أخرى :

﴿ واحفظوا أيْمانَكم ﴾

(العقودُ) هي العهودُ يعقدها الناسُ فيما بينهم استيثاقاً لمصالحهم .و(الأيْمان) ما يحلفُون به على حفظ تلك العقود ، وقال أيضاً :

﴿ وأوفوا بالعهْد : إن العَهدَ كان مَسئولا ﴾

ومن ضُروب العهد (الوظيفةُ) التي يشغلها المرءُ في خدمةِ حكومةِ وطنه فإنها في المعنى عهدٌ بينه وبين أمّته أن يخدمها بصدقٍ واخلاص : فلا يَتوانى في العمل ، ولا يتناول غيرَ ما أحله اللهُ له ممّا اؤتمنَ عليه . وقد لامَ صلى الله عليه وآله وسلم عاملاً اساءَ في عِمالتهِ (١) فقال :

﴿ أما بعدُ فما بالُ العامل نَستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم (١) ، وهذا أُهْدِيَ اليّ ، أفلا قعَدَ في بيت أبيه وأمّه فينظر هل يُهْدَى اليه أم لا ؟ ﴾

أراد هذا العامل أن يقول : إنّ ما أُعْطيتهُ من المال لم يكن رشوةَ وانما هو هديّة ، فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الحجّة القاطعة

ومن ضروب العهد (الوديعة) يُودعك إياها صاحبها . وكأنه بذلك قد توثّق بينكما عهد على حفظها ثم ردّها في حينها موفرة ، فأصبح من الواجب عليك الوفاء بهذا العهد ، وأن تكون أميناً على الوديعة لاتخونها ، ومن هنا سُمّيَت (الوديعة)نفسها (أمانة) . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في التوصية بهذا النوع من العهد :

﴿ أدّ الأَمانة الى مَنْ ائتمنك ، ولا تخُنْ من خانك ﴾

---

(١) العمالة والعمل هما ما نسميه اليوم مأمورية ووظيفة

وفُهِمَ من الحديث أنَّ مودع الوديعة لو كان هو نفسه قد سبق له أنْ خانك لا ينبغي لك أن تخونه أنت في وديعته ، وإنما عليك أن تعْمل بدينك فتنى له ثم تستعين الله عليه ، وهذا نهاية الكمال الانساني في خُلُق الامانة ، ووجوب تجنُّب الخيانة

وعقودُ شركات التجارة بين التجّار والمتعاملين من جملة العهود الواجب الوفاء بها . وورد في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إن اللهَ يقولُ : أنا ثالث الشّريكين مالم يخُنْ أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجْتُ من بينْهما ﴾

وهذا تمثيل جميل ، والمعنى انَّ بركة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين : فإذا خان أحدهما صاحبه ارتفعت البركة من تجارتهما ، وزايلهما التوفيق الالهي . وهذا أمرٌ مشاهد فإنَّ صفة الأمانة في التاجر توطّد ثقة إخوانه فيه ، واقبالهم على معاملته . فتزداد أرباحهُ ، وتغزُر ثروته . وبالعكس إذا كان خائناً خرب الذّمة . فإنَّ مصيره الإفْلاس ، والسُّقوط من عيون الناس ، ومنْ ثمَّ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الامانةُ غِنىً ﴾

﴿ الأمانةُ تجْلبُ الرزق ، والخيانة تجلب الفقر ﴾

ومن ضروب العهد (الاستشارةُ) كأنَّ المستشير في استشارته لك عقد معك عهداً أن تنصح له ، ولا تغشّه ، فصار من الواجب عليك الوفاء بعهده . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ من أشار على أخيه بأمر يعلم أنَّ الرُشدَ في غيره - فقد خانه ﴾

﴿ المُستشارُ مؤتمَن ، فإذا استُشير أحدُكم فليُشر بما هو صانعٌ لنفسه ﴾

أي ينصح للمستشير بما ينصحُ لنفسه لو كان هو في محله

ومن ضروب العهد (أحاديثُ الناس) في مجالسهم ، فهم في اجتماعهم كأنّهم تعاهدُوا على أن يؤمّن بعضهم بعضاً : فيحدّث أحدُهم إخوانه بما في نفسه من دون خوفٍ ولا حذر ، فصار من الواجب على كلٍّ منهم الوفاء بالعهد : فلا يخون في نقل الحديث وإفشائه . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله : فلا يحلُّ لأحدهما أن يُفشي على صاحبه ما يخاف ﴾

﴿ اذا حدّث الرجلُ بحديثٍ ثم التفت فهي أمانة ﴾ (١)

يعنى أنَّ (عهد المجلس) والوفاء به لا يتوقف على عقدهِ بإيجابٍ وقبول صريحين بل يكفي فيه أقلُّ ما يُفيد أنه عهد واجب المُراعاة ولو بالتفاتةٍ من المحدِّث تشعر بأنه لا يريد أن يَسمع حديثَه غيرُ المخاطب ، فالواجبُ اذاً الوفاء وعدمُ الإفشاء . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المجالسُ بالأمانة ، الا ثلاثة مجالس : سفكُ دمٍ حرام ، أو استحلالُ عِرْضٍ حرام ، أو اقتطاعُ مالٍ بغير حق ﴾

يعنى أنَّ (عهد المجلس) إذا تضمَّن استحلال محرَّم لا ينعقد ولا يجب الوفاء به ما دام هناك عهدٌ آخر أسبق منه وأوكد : وهو ما عاهدنا عليه ديننا الاسلاميّ من أننا معشر المسلمين لا نرتكب كبيرةً من مثل استحلال الدم والعرض والمال ، فعلى من حضرَ هذا المجلس الذي تُستَحَلُّ فيه الاشياء المذكورة أن يعمل بالعهد العامّ النافع ، وما عليه مَلام إذا أفشى سرَّ هـذا العهد الفاجر

وممّا ورد بشأن الحضّ على هذا العهد العامّ قوله تعالى :

---

(١) وفي هذا المعنى قال ابان اللاحقي :

(لا تتمن عن صديق حديثا | واستعذ من تسرق النمام)
(واخفض الصوت ان نطقت بليل | والتفت بالنهار قبل الكلام)

﴿ يا أيها الذين آمنُوا لا تخونوا الله والرسولَ وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتقوا الحجَرَ الحرامَ في البنيان فانه أساسُ الخراب ﴾

فسارقُ الحجر الواضع له في بناء داره خائنٌ للعهد العامّ الذى توثق بين أبناء الامة بواسطة دينهم من تحريم أموالهم عليهم الاّ بحقها ، وإنّ داراً أُسِّست على خيانة قلّما تدوم أو تسلم من الخراب والدمار

ومن أدقّ العهود التي تجبُ مراعاتها والتى ربما خفي أمرُها على الناس (العهدُ مع العُميان) فإن أفراد هذه الطائفة بما لحقهم من هذا المصاب الذي خرجوا به من العالم - وإن كانوا ما زالوا فيه - كأنهم عاهدوا اخوانهم وقد رأوا بعينهم مُصابهم أن يُسلّموا عليهم ، ويَهدُوهم الطريق . ويُسرعوا اليهم بالمعونة ولا يحرموهم التأنيس الذي اعتادوا أن يتبادلوه هم فيما بينهم . فاذا لم يفعلوا ذلك كانوا كأنهم قد خانوهم . وأخرجوهم من هيئة اجتماعهم . ولم يفُوا لهم بعهدهم . ولعلّ ما قلناه هو معنى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

﴿ تركُ السلام على الضرير خيانة ﴾

والحاصل أن الأمانة في الأمة . والمحافظة على العهود الموثّقة بين أفرادها هو مِلاك كرامتها ، والباعث على توفير الخير والبركة والرزق فيها ، واذا قصّرت الأمة بواجبها من هذا القبيل ساءَ حالها ، وكثر النكد فيها ، وتقلّص ظلّ الهناءِ والخير عنها . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ لا تزالُ أُمتي بخيرٍ ما لم ترَ الأمانةَ مَغْنَمًا والصدقةَ مَغْرَمًا ﴾

أي انها تبقى في خير وسعادةٍ وصلاح حالٍ الى وقتٍ تعتبر فيه الأمانة التي تؤتمن عليها غنيمة حلالا لها : فتخون صاحبها وتأكلها . كما تعتبر الصدقةَ

الواجبَ عليها أداؤها للفقير بمثابة غرامةٍ وضريبةٍ تؤخذُ منها من دون حقّ :
إذا وصلتْ الامة الى هذا الوقت الذي يكون فيه شأنها ماذكر من استحلال الامانات ، ومنع الزكوات ، تَبَدّلَ الخير فيها الى شرّ ، واستحال اليُسْر الى عُسْر ، والمعروف الى نكر . والعياذُ بالله تعالى

وقد كانت صفةُ الأمانة وحسن العهد من أخصّ أخلاق نبيّنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وقد ظهرت تَباشيرها ومخايلها عليه منذ زمن حداثته حتى لقّبه مشركو مكّة بالأمين . وما زالوا كذلك يلقّبونه به حتى بعد بعثته : فقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما هاجر الى المدينة خفيةً أبقى في مكّة ابن عمه علياً عليه السلام لينوب عنه في رَدّ ما كان لديه من الودائع والأمانات الى المشركين من أهلها . فهم لم يَرَوْا أنْ يؤمنوا به ، لـكن رَأَوْا أن يأتمنوه على كنوزهم . وهذا من مواضع العجب : رجلٌ لايجرؤ على خيانة الناس أقرانهُ يجرؤ على خيانة ربّ الناس !!!

الجهر بالحق

ويسمّى أحياناً (الشجاعة الأدبيّة) و (حريّة القول) . أما اسمهُ بلسان الشرع فهو (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) والغَرَضُ من هذا الواجب الاجتماعيّ أن يرى المرء باطلاً يُريد أن يظهرَ في مظهر الحقّ ، ويقومَ مقامه فيحمله دينه وشجاعته وكِبَرَ نفسه على تأييد الحق ونشله ، وإزهاق الباطل وخَذْله . ويهتف بما علمه القرآن أن يهتف به في مثل هذا الموقف

﴿ وقلْ جاءَ الحقُ وزَهَقَ الباطل . إن الباطِلَ كان زَهُوقا ﴾

ولم تنجح امةٌ أو تقمْ دعوة إلاّ على أساس الجهر بالحق . وإنّ بقاءَ كل

أمةٍ في الوجود متوقفٌ على بقاءِ هذا الأساس متيناً : فاذا انهار انهارت الامة على الأثر . ولم يعد يبقى منها الا الأثر . وهذا ماخَشيهُ الشارع على امته منذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا رأيتَ أُمتي تَهابُ الظالم أنْ تقولَ له : إنك ظالم ، فقد تُوُدِّعَ منها ﴾

أي اذا وجد في الامة من يجرؤ على ارتكاب المظالم ولم يوجد فيهامن يجرؤ على رَدْعِهِ فقد تعرضت الامة إذ ذاك للضياع ، وحقَّ أن يقال لها الوَداع الوَداع . واذا بحثنا عن الأسباب التي أدَّت الى عظمة أوروبا وقوة شعوبها ، وعلوّ كلمة دولها ، فلم نكد نجدها تَعْدُو ما أمَرَ الاسلام به من وجوب الجهر بالحقّ : أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد مرت على أوروبا قرونٌ وأجيال كانت فيها غائصة في بحر من الأوهام والأباطيل . ولبثت كذلك حتى هبَّ (الجهرُ بالحق) من مضجعه . فأنقذها من ذلك البحر ، وردَّ اليها الحكمَ والأمر . وإن الإسلام ليعتبرُ شَرَفَ الأمم وعلوَّ كعبها في المدنية ومراتب الانسانية على قدر مالديها من مبدأ الجهر بالحق ، ومسارعتها الى نصرته على الباطل . وآيةُ ذلك هذه الآية الكريمة :

﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناسِ : تأمرونَ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْن عن المنكر ﴾

فالقرآن لم يشهد لأتباعه بالرُّجحان والتقدم على غيرهم من الامم إلاَّ لقيامهم بهذا الواجب . ولم يزكّهم ويطهرهم الا على هذه الشريطة .

وقد حضَّهُم على أن يتخصَّص منهم طائفة للقيام بواجب الجهر بالحق وإحيائِهِ فيما بينهم فقال تعالى :

﴿ ولتكنْ منكم أمةٌ يدْعون الى الخيرِ ويأمُرُون بالمعروفِ وينهَوْنَ عن المنكر ﴾

(أمة) أي طائفة وجماعة . وقد نهى القرآن أيضاً عن كتمان الحق ، وإدالة الباطل منه [١] فقال تعالى :

﴿ ولا تَلبِسُوا الحقّ بالباطِلِ ، وتَكْتُمُوا الحقّ وأنتم تعلمون ﴾

(اللَبْسُ) الخلط والمزج ، وعاب أقواماً قصّروا في القيام بهذا الواجب . فقال تعالى :

﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن مُنكر فعلوه ، لَبِئس ما كانوا يفعلون ﴾

ومن قبيل الجهر بالحق (الشهادة) فعلى المرءِ أن يؤدّيها ولو على نفسه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولو على أنفُسكم أو الوالِدَيْن والأقْرَبين ﴾ :

(شهداءَ للهِ) أي اشهدوا بما تعلمون أنه الحقُّ لوجه الله وعملا بطاعته ولو رجع ذلك بالضرر عليكم ، أو على أقرب الناس اليكم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ قل الحقّ ولو على نفسِك ﴾

﴿ اقبل الحقّ ممن جاء به : من صغيرٍ أو كبيرٍ وإن كان بَغيضاً بَعيداً . وارْدُدِ الباطلَ على من جاء به : مِن صغيرٍ أو كبيرٍ وإن كان حبيباً قريباً ﴾

﴿ قل الحقّ ولو كان مُرًّا : لا تخَفْ في الله لومة لائم ﴾

ويكثر في النصوص الاسلامية التي تحضُّ على الأعمال الصالحة أن يقال فيها (لله) و (في الله) و (من أجل الله) و (لوجه الله) ويُراد بذلك أن يقع العمل لمحض كونه حقًّا تجب نصرته والقيام به امتثالاً لأمر الله ، لا لكونه يوصل الى غرضٍ شخصيٍّ أو دنيويٍّ تافهٍ . فقوله (لا تخف في الله لومة لائم)

---

(١) اي جعل الدولة والظهور للباطل بعد ان كان للحق

معناه قل الحق ولا تخف مَلَامَ اللائمين وتقبيحهم فملاكُ ما دام الجهرُ به واجباً عليك ، وقد أمرك الله به

وكلما كان المتصدِّي لنُصرة الحقِّ عُرْضة للخَطر أو الأذى كان صنيعه أفضل ، و ثوابُه عند الله أجزل . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحَبُّ الأعمال الى اللهِ كلمةُ حقٍّ تُقال عند سُلْطانٍ جائر ﴾

والمراد بالسلطان صاحب السُّلطة ونفوذ الكلمة في أمر الامة . فهذا اذا جار عليها وتمسك بالأباطيل في إدارة شؤونها ؛ كان الواجب مقاومته ، ورَدُّه الى الحق فيما يأتي ويذر . ولا ريب أن الذي يتصدَّى لذلك الجائر يكون عُرضة للخطر . وكان عمله من أحب الأعمال وأشرفها

وفي مثل هذه الحالة حالة العجز عن الظالم لقوّته واستبداده لا يسقط فرضُ هـذا الواجب الاجتماعي (الجهر بالحق) عن عقلاء الأمّة ، بل هم مكلفون أن يمارسوه في قلوبهم . فيتفكرون في هذا المنكر أو الباطل المستحوذ على الناس ، ويبحثون في أسبابه و نتائجه منتظرين الفُرص لدفعه و إزالته . و مِنْ ثَمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ من رأى منكم مُنكراً فليُغيِّره بيده ، فإن لم يَستَطعْ فبلسانه ، فإن لم يَستطعْ فبقلبِهِ ، وذلك أضعفُ الإيمان ﴾

قوله (فبقلبه) أي فليغيِّره بقلبه ، ولا معنى لتغييره بالقلب فيما أرى الا ما ذكرت : من التفكر فيه ، والتربص له حتى تتهيأ أسباب التخلص منه

والذين يَتصَدَّون للجهر بالحقّ ومقاومة الظالمين والمبطلين ، يكونون عرضة لسخرية هؤلاء ، وانتقام أولئك ، وإذ ذاك يتحاماهم الناس ، و يتجنّبون مخالطتهم والجلوس اليهم ؛ خوفاً أن يُتّهموا أنهم على رأيهم ، وعلى مثل طريقتهم . فيُصبحوا في قومهم كأنهم غرباء ، وإن كانوا في حقيقة الأمر أبناء لهم أو أنسباء . وقد عنَاهم

وأشفق عليهم صلى الله عليه وآله وسلم مُذْ قال :

﴿ طَلَبُ الحقِّ غُرْبة ﴾

﴿ طوبىُ للغرباء : أُناس صالحون في أُناس سوء : مَنْ يعْصيهم أكثر ممن يُطيعهمْ ﴾

وقد عاب الشارع فعل من يرى قومه مُعرضين عن الحقّ ، آخذين في طريق الباطل ، فيسكت عنهم ، ولا ينصح لهم . أو هو أحياناً يأخذُ إخذَهم ويُعينهم على غيّهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مثَلُ الذي يُعين قومه على غيرِ الحقِّ مثَلُ بعيرٍ تردّى وهو يجُرُّ بذَنَبه ﴾

أي إنّ شأن من يتمسّك بما كان عليه قومه من الأباطيل - وهو يعلم أنها أباطيل - شأن من يتمسّك بذَنَب بعير قد وقع في حفرةٍ عميقة ، لا جَرَمَ أنّ البعير اذ ذاك يجرّه معه الى الهاوية فيهلك . وهذا شأن ذلك المساير لقومه على الأباطيل سوف يهلك معهم ، ولا ينفعه مجرّد علمه بباطلهم

وللحقّ معنيان : معنى اجتماعيّ عام ، وهو المتعلق بمصالح الأمة ، ومقوّمات حياتها الدينية والاجتماعية . ففي الدِّين حقٌّ ، ويندسُّ فيه أحياناً أباطيل يجب الكشف عنها ، وإزالةُ سمومها . وفي السياسة حقٌّ ويلتبسُ به أحياناً أباطيل يجب الجهر بها ، والاحتراز من عواقبها . وفي الاجتماع حقّ ، ويَسْري اليه أحياناً أباطيل تُفْسد الاخلاق والعادات والآداب العامة . فيجب تتبّعها ، وتنقية المجتمع من شرورها

وجميع ما تقدَّم من الآيات والأحاديث انما هو وارد بشأن هذا الحقّ العام . فهي تحض على تأييده ، وتدعو الى مقاومة الذين يخذلونه ، وينصرون الباطل عليه

أما (المعنى الثاني) للحق فهو الذي يكون لشخص على آخر فينكره عليه أو يظلمُهُ فيه ، ثم يترافعان الى المحا كم . وهذا النوعُ من الحقّ لا يدخل في موضوعنا أعني (الجهر بالحق) وربّما كان هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ نِعْمَتْ المَيْتَةُ أن يموتَ الرجلُ دون حقه ﴾

وذلك أن يكون للشخص مثلاً مال فيُحاول آخر اغتصابه منه ، فيدفعه عنه فيقتله الآخر ، فيموت شهيداً . كما ورد التصريح به في الحديث الآخر وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ما مِن مُسلمٍ يُظْلَمُ مَظْلمة فيقَاتِلُ فيُقتَل إلا قُتل شهيداً ﴾

ولا بدّ من اشتراط أن يكون ذلك الحقُّ الذى سُلبه وقتلَ بسببه مما يضرّه ضياعه ، أو يفسد عليه أمرَ معاشه أو كرامته . أما الشيء الحقير من حطام الدنيا فلا أظنُّ الشرعَ يرضى للانسان أن يعُرِّض نفسه للهلاك من أجله :

(ومرادُ النفوس أحقر من أنْ تتَعادى فيه وأن تتفانى)

ويحتمل أن يكون المراد بالحقّ في قوله : « نعمت الميتةُ أن يموت الرجلُ دون حقه » الحقّ العامّ المتعلق بالمصالح العامة : فاذا دافع امرؤٌ عن مثل هذا الحق ومات ، كان محموداً في ميتته ، مخلّدَ الذكر في نفوس أبناء أمّته . وهذا كشهداء الأوطان الذين يموتون في سبيل الدفاع عنها ، والذَّود عن حقوقها . فتُشيدُ اممُهم بذكرهم ، وتنظمُ الشعراء الأناشيدَ في الثناء عليهم ، إضراماً لنار حُب القدوة بهم

أمّا الجهرُ بالمطالبة بالحقوق الشخصية فهذا أيضاً أمرٌ واجب ، وإلاّ فان تسامح المرءِ بحقوقه وصبره على ضياعها المرّة بعد المرّة قد يلحق به اللأواء ، أو البؤس

والشقاء . ويروى أنه كان لبعض الناس حقٌّ لديه صلى الله عليه وآله وسلم فطالبه به بعنف وغِلظة ، فامتعض سيدنا عمر وهمَّ بالرجل ، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ دَعهُ فان لصاحب الحقِّ مقالا ﴾

يريد أنَّ الرجل ما دام صاحبَ حقّ فله كلُّ الحقّ أن يطالب به ، ويجتهد في استرداده ، ولا يجوز لأحد أن يلومه أو يُسكته . وهذا نهاية في إنصافه صلى الله عليه وآله وسلم ، وانطباع نفسه الشريفة على حبِّ الحقِّ ونصرة العدل

العدل والظلم

الظُّلم في أصل معناه اللغويّ وضع الشيء فى غير موضعه ، وتحويله عن موقعه . ثم غَلَب استعماله في أن يتعمَّد الشخصُ تحويلَ حقٍّ لآخر عنه ، وإضاعته عليه ، ومنعه من التمتع به . وهذا يكون بأحد طريقين : إما بأن يقسره على ما يُريد من ظلمه قسراً ، وهو ظلم الجبابرة . أو بأن يتوسل الى ظلمه باسم القانون أو الشرع ، وهو ظلم الحكّام . والظلمُ أيضاً يختلف باختلاف عموم الحق وخصوصه : فقد يكون الحق عاماً راجعاً الى مجموع الامة ومصالحها السياسية والاقتصادية ، فيظلمها ظالمٌ فى هذه المصالح والحقوق ، ويحول بينها و بين التمتع بها بإحدى الطرق : وليس هذا من موضوع بحثنا في هذا الفصل . وقد يكون الحقُّ خاصاً متعلقاً بالأشخاص فيتَشاحّون عليه ، ويظلم بعضهم بعضاً فيه ، ثم يرجعون الى الحُكّام فيعْدِلون فيهم أو يجورون . وهذا المعنى هو الذي عقدنا له هذا الفصل ، ونُريد أن نسرد النصوص الدينية الدالَّة على تحريمه ، وتَقَدُّم الشارع في النهي عنه ، والوعيد فيه . وضد الظلم (العَدْلُ) وهو التوسّط

والاستقامة وعدم الميل الى أحد الجانبين

إنّ استحسان العدل واستقباح الظلم أمران مغروزان في فطرة البشر، وقد أصبحوا على اختلاف أديانهم وأجناسهم يعتقدون أنّ العدل أساس العمران، وأن الظلم مُؤْذِنٌ بخرابه، مقوِّضٌ لبنيانه. وإنما الصعوبةُ كلّ الصعوبة في العمل بهذا الاعتقاد، والجرى عليه في المحاكم وفي ضُروب المعاملات

وإذا أمرَ الاسلام بالعدل، ونهى عن الظلم فإنما يريد في خطابه كلّ واحد من الناس، لكنه يخص الحُكّام أحياناً بالذكر لأنّ الظلم منهم أعم ضرراً وأسوأ أثراً. وأشد تدميراً للبلاد، وتشتيتاً لشمل العباد. قال تعالى:

﴿ إنّ اللهَ يأمركم أن تُؤَدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾

﴿ إنَّ الله يأمُرُ بالعدْلِ والإِحْسان ﴾

﴿ يا أيها الذينَ آمنوا كونوا قوّامينَ بالقِسْط ﴾

و(القسط) العدل، وقوله (كونوا قوّامين) فيه زيادة حضٍّ لهم على بذل الجهد في توخّي العدل، وتبين الطرائق المؤدّية اليه فلا يكون منهم ظلم أبداً. وقال تعالى:

﴿ واللهُ لا يحبُّ الظالمين ﴾

﴿ والله لا يَهْدِي القومَ الظالمين ﴾

﴿ وسيَعْلَمُ الذينَ ظلموا أيَّ مُنقَلبٍ ينْقلبون ﴾

﴿ ولا تحْسبَنَّ اللهَ غافِلا عما يعملُ الظالمون ﴾

في هاتين الآيتين تهديد للظالمين بأن انتقام الله سيحلّ بهم مهما تأخر عنهم وانظر كيفَ أخبر القرآن في آيةٍ أخرى عن قومٍ حلَّ بهم ذلك الانتقام الالهي

ثم هنأ الأكوان بالخلاص منهم ، فقال تعالى :

﴿ فقُطعَ دابرُ القوم الذينَ ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾

أي إنهم هلكوا وبادُوا فكانَ على البشر أن يحمَدُوا خالقهم على لطفه بهم مذ أراحهم من شرّهم

أمّا الأحاديثُ الشريفةُ الواردة في العدل والظلم فأكثر من أن تحصى ، وحَسبكَ منها قولهُ صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتقُوا الظُّلمَ : فإنَّ الظلمَ ظُلماتٌ يومَ القيامة ﴾

﴿ لو بغَى جبَلٌ على جبَلٍ لدُكَّ الباغي ﴾

﴿ أحْسنوا إذا وَلِيتُمْ ﴾

هذا خطاب للحكّام الذين يتولَّوْن الحكمَ في الناس . يأمُرُهم بالإحسان ، وليس الإحسان المنتظر منهم سوى العدل والكفّ عن الظلم

﴿ اتّقِ دَعوةَ المَظلوم : فإنه ليس بينها وبينَ الله حجاب ﴾

﴿ اتقوا دَعوةَ المظلوم : فإنها تَصْعَدُ الى السماء كأنها شَرارة ﴾

قوله (كأنها شرارةٌ) أي في سرعة ارتفاعها صُعُداً . أو من شدّة توقّدها المكتسب من توقّد قلب صاحبها المظلوم . أو لانها ستكونُ ثِقاباً [١] توقد به نارُ العذاب على الظالم

﴿ دَعوةُ المظلوم مُستجابةٌ وإن كان فاجراً ففجُورُهُ على نفسه ﴾

المعنى أنَّ لكلٍّ من فجور المظلوم ووقوع الظلم عليه حِسابَه : فهو ينْتَصَفُ له كما يُنْتَصَفُ منه . ومن كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « بئس الزاد الى المعاد، العُدوانُ على العباد »

ومن آداب الإسلام حماية المظلوم ، والوقوفُ في وجه الظالم . فمهما أحَس

(١) الثقاب ما تشعل به النار من دقاق العيدان . وقد احسنوا في تسمية عيدان الكبريت ثقابا

المسلم من أخيه ظلماً وجوراً في معاملة الآخرين وجب عليه أن ينهاه عنه، ويحذره سوء مغبته، كما إذا رأى أخاً له يظلمه ظالم وجبَ عليه أن يبادر الى دفع الظلم عنه بمختلف الوسائل. وقد لفَّ الأمرين معاً الحديثُ الشريف، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ أنصر أخاكَ ظالماً أو مَظلوماً ﴾

قيل: كيفَ أنصره ظالماً يا رسول الله؟ قال:

﴿ تحجزُه عن الظلم: فإنَّ ذلك نَصْرُه ﴾

وينبغي أن نستفيدَ من هذا الحديث أمراً جديراً بالتدبّر والانتباه: ذلك أن في إطلاقات النصوص الدينية جُملاً وأساليبَ بليغةً لا يُتفطَّنُ لها الا بعدَ التأمّل فيها، والرجوع الى النصوص الاخرى التى وردت في موردها. فلو لم يستشكل السائل نُصرة الأخ الظالم ويفسِّره له الشارع لاتَّهم الاسلام بأنه يأمر بحماية الظالم واعانته علي ظلمه. مع أن الأمر ليس كذلك لأن إعانة الظالم لا تجوز بحالٍ. وقد توعد عليها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم بقوله:

﴿ من أعان ظالماً سلطه الله عليه ﴾

بل يصحُّ لنا أنْ نقول: إنَّ الشارع لو لم يفُسِّر لنا معنى نصرة الظالم لوجَبَ علينا أن نحمل كلامه عليه: لِما تحقق لدينا من سلامة أُصول الإِسلام، واطّراد مدلولاتها في تأييد الحقّ والخير والفضيلة وحمل الكافة على العدل ومكارم الأخلاق. وقد علِمَ من قواعد الإِسلام الكبرى أنّه لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر ولا البغي. وإعانة الظالم على ظلمه من أقبح أنواع البغي، فكيف يأمر الشرع الطاهر به!! فيجب أن يكون المراد من الحديث حجزُ الظالم عن ظلمه كما فسّره صلى الله عليه وآله وسلم، ثم إنّ كلمة (الأخ) التى وردت في الإِرشاد

المحمدي في قوله (انصر أخاك) الخ هي كـكلمة (القريب) التي وَرَدَت في الإرشاد العيسوي في قول عيسى عليه السلام (أحِبَّ قريبك كنفسك) من حيث أنَّ كلاً منهما قد أُريد به الأخ في الانسانية أو الشريك في الإنسانية. لا الأخُ والقريبُ الشريكان في النسب والقرابة الرحميَّة. فمن واجبات المسلم الاجتماعية إذاً أن ينصر المظلوم من أيَّة طائفة كان، ويردع الظالم عن ظلمه من أيّ قبيلٍ كان

ومن أقبح أنواع الظلم ظلمُ المستضعفين من النّاس الذين لا يستطيعون حيلة في دفع الظلم عنهم سوى الشكوى الى الله، والاتكال عليه. وفي هذا المعنى قال صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ اشتدَّ غَضَبُ اللهِ على مَنْ ظَلم مَنْ لم يجد ناصراً غيرَ الله ﴾

الحقد والحسد

إنما ذكرنا تطهير النفس من (الحسد) في جملة (الواجبات الاجتماعية) لان أثَره السيء يتعدّى من الشخص الى الجماعة فيؤذيهم، وينغّص عيشهم، ويؤَرِّث نيران الفتَن بينهم [1]. فإذا سَلِمَ الاجتماعُ من هذا الخلق الذميم فقد سلم من شرٍّ كبير، وبلاء عظيم. على أن ما يلمُّ بشخص الحاسد من ضَرَر الحسد وشؤمه لا يقل عما يلحق الهيأة الاجتماعية من هـذا القبيل. إذ أن الحسَد مَطيَّة الـكمد، ومِبْراة الجسد. فهو كما يوقع صاحبه في الغمّ والحزن يُضني جَسَده، ويفسد صحّته، وربما أهلكه، وأورده منيته. قال أمير المؤمنين علي عليه السلام (صحة الجسد من قِلَّة الحسد) وقال الأصمعيُّ قلتُ لاعرابيٍّ: ما أطْوَلَ

---

(١) ارث النار تاريثا: اوقدها

عمرك ! . قال « تركتُ الحسَدَ فبقيتُ » ولما عَلَّمَ القرآنُ نبيَّنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ من مساوي الاخلاق كان الحسَدُ من جملة ما لقَّنَهُ الاستعاذة منه فقال تعالى :

﴿ ومِنْ شرِّ حاسدٍ اذا حسَدَ ﴾

و (الحسَدُ) تمني زوال نعمة الغير : فإذا تمكن هذا التمنّي المشؤوم من نفس الشخص ، وغفلَ عنه فلم يتطهّر منه ، بقي في نكد ، الى الأبد . لأنَّ نعَم الله على العباد لا تنقطعُ ، فكمَدُ الحاسد ونكده إذاً ينقطع . وضرَرُ الحسَد اللاحق بصاحبه أشدُّ من ضرره اللاحق بالمحسود . بل ربما كان المحسود في غفلةٍ من متاعب الحاسد وهموم نفسه . فهو في راحةٍ والحسودُ في تعب . وهل يتصور فوق هذا شقاء ؟

(إني لأرحمُ حاسديَّ لفرطِ ما ضمّت صدورُهم من الأوغارِ)
(نظرُوا صنيعَ الله بي فعيونُهم في جنّةٍ وقلوبُهم في نارِ)

والحسَدُ في الحقيقة خلقُ لِئام الناس : لأنَّ الحسود عادة يدع البُعداء عنه فلا يحسدُهم على ما هم فيه من رزق سني ، وعيش هني ، ثم يَعْمِدُ الى ذوي رَحِمه ، أو ذوي مودَّته . وقد تجدَّدت لهم نعمة ، أو حظٌّ من دنيا ، فيحسدُهُم ويبغي عليهم ، ولا يألو في إيصال الشرّ اليهم

وقد حذَّر الشارع من الحسَد ، ونبّه الى قبح آثاره ، ونصح بوجوب تلافيه . وقال : انَّ صاحب الحسد غيرُ عامل بآداب الاسلام . ولا سالكٍ طريقة النبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام . من ذلك قوله :

﴿ ليسَ مني ذو حسَدَ ﴾

﴿ الغلُّ والحسد يا كلان الحسنَات كما تأكل النارُ الحطَب ﴾

(الغلُّ) الحقدُ . ومعنى الحديث أن الحسود الجاهل من شأنه أن يتمادى في إتيان أعمال السُّوء ضدَّ محسوديه . فكلُّ حسَنةٍ تصدر منه تعقبها سيئة منه أيضاً في حقهم . وكما أن حسَنات المحسنين تذهب بسيئاتهم كذلك سيئات الحاسدين تذهب بحسناتهم أيضاً . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

« المؤمنُ يَغبِط والمنافق يَحْسُدُ »

(الغِبْطة) أن تتمنى نعمةً مثل نِعَم الآخرين من دون أن تتمنى زوالها عنهم وإلاَّ كانت حَسَداً . وتمني مثل ما الآخرين من النعَم لا يضرُّ ولا يمكن التوقي منه بل إنه قد يؤدي الى (المنافسة) أحياناً . والمنافسة المحمودة لا يكرهها الشارع : إذ يقترن بها اقتداهم بأصحاب النعَم . ومجاراةُ لهم في سلوك الطرائق المشروعة التي سلكوها . حتى استحقوا أن يكونوا موضعاً لتلك النعم . فالمنافسة غبطة لكنها عاملة ناصبة [١] ، لا لاهية لاعبة . وهذه المنافسة المحمودة إذا اشتدَّت بين الافراد والطوائف والامم دفعتهم الى الجد والنشاط ، فتظهر إذ ذاك مواهب الرجال ، وغرائب الاعمال ، وعناية الربّ المتعال ، بالأُمم والأجيال . قال بعض الفضلاء المعاصرين : إنَّ ظهور (المنافسة) بين طوائف أوربا المختلفة ديناً وعنصراً كان العامل الأكبر في نهوضهم ، وبلوغهم هذا المبلغ في العلم والاختراع وسائر مقومات المدنية . فقوله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن يغبط) يريد هذا النوع من الغبطة التي يرافقها عمل وسعي . « وأنْ ليس للانسانِ الا ما سعى . وأنَّ سَعْيهُ سوف يُرى . ثم يُجْزاهُ الجزاءَ الأَوْفى »

ومن أشدّ الاحاديث الشريفة لهجة في التخويف من التحاسد والتباغض قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« دبَّ اليكم داء الأُمم قبلكم : البَغْضاء والحسدُ . هي الحالِقة : حالِقَة

---

(١) اي تعمل وتتعب في الوصول الى غرضها الشريف . والنصب : التعب

الدِّين ، لا حالقة الشعرَ . والذي نفسُ محمد بيدِه لا تؤمنوا حتى تحابُّوا . ألاَ أُنبؤُكم بأمرٍ إذا فعلتموهُ تحاببْتم ؟ أفشوا السلامَ بينكم ﴾

(دَبَّ اليكم) أي يوشك أن يدِبَّ أو أخشى أن يدِبَّ . فالكلام وإن كان فى صورته إخباراً عن أمرٍ ماضٍ هو فى حقيقته تحذير وتخويف . وقوله (هي الحالقة) أي المستأصلة التى تذهب بكل خير وسعادة في الأمم . (حالقة الدِّين) أي انه ينشأ عن تحاسدكم وتباغضكم وتخاذُلكم وتقاعدكم عن نصرة بعضكم بعضاً . فتتعطل أحكام الدين ويُترك العمل بها . ثم إن الشارع في ختام الحديث أرشدنا الى دواء ناجع في تقوية عاطفة الحبّ في نفوسنا وطرد شيطان الحسد منها فقال (أفشوا السلام بينكم) والمراد بذلك أنّ المرءَ منا إذا حسد أخاه وشعر في نفسه بوَجْدٍ عليه أو غيظٍ منه فليبادر اليه مُسلّماً مُصافحاً ، مجاملا مصالحاً . هذا هو السلام الذي يكون دواءً ناجعاً لمرض الحسد والبغضاء . ولم يُرد الشارع قطُّ مجرّد حركة الشفاه بكلمة السلام ، و يبقى القلبُ منطوياً على الحقد والسّقام وفي معنى هذا الحديث قوله تعالى :

﴿ إدْفَعْ بالّتي هي أحْسَنُ : فإذا الذى بيْنكَ و بينهُ عداوةٌ كأنّهُ وليٌّ حميم ﴾

(التى هي أحسن) أى الطريقة والخصلة التى هي أحسن وأفضل من غيرها . وهى التعجيل بالسلام والمصالحة التي أشار بها الحديث الشريف . وخيرٌ للحاسد أن يتوسّل الى جعل محسوده صديقاً له فيُثْني عليه أمام الناس ، و يُظهر الابتهاج بما أُوتي من نِعمةٍ وفضل . فإن ذلك من أنجع الأدوية فى استلال السخيمة ، وإخماد نار الحسد . بشرط أن لا يتعدّى فيه حدودَ الصِّدْق والاعتدال ، وإلاّ عُدَّ مُتملقا منافقاً . وقد أشار الشارع الى دواء آخر ناجع في داء الحسد . ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا نَظَرَ أحدُكم الى مَن فُضِّلَ عليه في المال والخَلْق فلينظر الى من هو أسفل منه ﴾

أي ليفكِّر الحاسد في أن النعم وخيرات الدنيا انما هى موزَّعة على الناس ضمن نظامٍ محكم من سُنن الله تعالى ونواميسه التى هي مظهر تقديره الالهي فى خلقه . والناسُ مختلفون في هذه النِعَم ، وعلى درجات متفاوتة فيها : فما من صاحب نعمةٍ إلا وبجانبه مَنْ هو حائزٌ لأسنى منها أو أحطّ ، كلٌّ بحسب سعيه وعمله الموافق لتقدير الله في أزله . وليس من العدل أن يُعطى الحاسد كلَّ ما يُريده من نعم محسوديه ، ويُحرم هؤلاء منها ، وهم قد تعرّضوا لنفحاتها . ولا ريب أنَّ من أجال في نفسه هذا المعنى ، وفكر فيه طويلا خفَّ حسده ، وسَكَن قلقه

ومن أبشع ضروب الحسد وأشدَّها شؤماً على المرء أن يحسد أهله وذوي قرابته . وقد وصف هذا الضرب من الحسد وحذّر منه أبلغ تحذير أبو الهيجاء[1] عبد الله بن حمدان . فقال لابنه الحسين ناصر الدولة « إذا رأيتَ السلطان قد رفع من أهلك رجلاً ، أو الزمان قد نوَّه به ، فإياك أن تحسُده وتشغَلَ نفسك بعداوته ، فانك تتعب ولا تصل الى فائدةٍ . وتسقط أنت ولا تضرُّه هو . وتغتمّ أنت ولا يتأذّى هو . وتغضُّ من نفسك بغَضّكَ من رجل صار كبيراً من أهلك : فانه ما ارتفع الا بآلةٍ فيه يرفعُك بها . أو إقبالٍ يدنيك منه . واجهد أن تخدمه وتصافيه الودّ . ليكونَ ذلك الفضل الذي فيه فضلا لك . وذلك

---

(١) بنو حمدان بطن من تغلب . ولى الخليفة المتقي (ابا الهيجاء عبد الله بن حمدان) الموصل واعمالها سنة ٢٩٣ ه وكان لابي الهيجاء عبد الله ولدان : الحسين (او الحسن) هذا وكنيته (ابو محمد ناصر الدولة) خلف اباه في ولاية الموصل . ولقبه الخليفة المتقي بناصر الدولة سنة ٣٣٠ ه . والولد الآخر سيف الدولة ملك حلب المشهور وقد لقبه المتقي بسيف الدولة سنة تلقيبه اخاه بناصر الدولة وهو اكبر من سيف الدولة . فابو الهيجاء الموصى هو اب لسيف الدولة

الفخر راجعاً اليك . وتتجمل بثنائه عليك ، واطرائه لك . وتصيرَ أحد أعوانه فانه أحسن بك من أن تكون من أعوان غيره ممن ليس من أهلك . ويراك الناس عنده وجيهاً فيُكرمونك من أجله . فان كان له منزلة من السلطان جاز أن تصل اليها باستخلافه اياك عليها ، وانتقاله الى ما هو أكبر منها . وكذلك إن كانت منزلته من غير السلطان . ولا تقلْ أنا أقعَدُ منه في النسب ، وإني خير قرابته ، وانه هو أمسِ كان وضيعاً وكان دوننا ، فان الناس بأوقاتهم » .

أما (الحقدُ) فهو نوع من الغضب وقد يفرّق بينهما : بأن الغضب عارضٌ وقتيٌّ تظهر آثاره على المُغْضب في حركته وصوته وملامحه . أما (الحقد) فهو غضبٌ مزمنٌ في النفس . لا تظهر آثاره الا في وقت معين ينتقم فيه الحاقد من المحقود عليه ، ويُنزِلُ الاذى به . فالحقدُ اذاً غضبٌ ساكت صابر ، أو غضب منضغط في أعماق القلب ، اذا انفجر خرّب ودمّر . وهذا ولا ريب مناف لأخلاق الاسلام بدليل قوله عليه الصلاة والسلام :

﴿ المؤمنُ ليس بحقود ﴾

أي لا ينبغي له ذلك . وإنما هو يجتهد فيروِّض نفسه على العفو والصفح والاغضاء . و(الحقدُ) يكون سببه أحياناً حسدُ آخر على ما أُوتي من نعمة ورزق وجاه : فيحسدُ ثم يَحقِد ثم يفسْد ، وقد يكون سببَ (الحقد) مُبادأةُ آخَرَ لك بالشرِّ وحصول قبيح منه في حقك . فتغضَب عليه وتحقد . ثم تتربَّص به الأيام ، وبعد عناء طويل ، فى حمل ذلك الِحمل الثقيل ، إما أن تفوتك فُرصة الانتقام وتكون اضعتَ عمرك في الهمِّ والكمَد وتتبُّع الهفوات والعثرات لخصمك فلا تجدها . أو تسنح لك الفُرَصُ فتنتقم وتشفي غيظك منه . وبعيد جدًّا أن يكون خصمك مقصوصَ الجناح الى حدٍّ أن يَدَعَكَ من شرِّه ، ولا يعود يفكر في أمرك . فهو في نوبته أيضاً يحقد عليك ، ويأخذ في تدبير المكايد

لك ، وانتظار الفُرص للإنتقام منك ، وهكذا يقضي المتحاقدون أعمارَهم في الخصام : ومحاولة الانتقام . كما كان شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام ، حتى جاء محمدٌ عليه الصلام والسلام فعلمهم الخير والفضيلة ومكارم الاخلاق ، وحضهم على العفو والصفح والحلم . فقال تعالى في صفة الأبرار :

﴿ والـكاظمينَ الغيْظَ والعافين عن النْاس ﴾

﴿ وأن تعفوا أقربُ للتقْوى ﴾

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في ترك الحِقد والحضّ على العفو والصفح :

﴿ أفضلُ أخلاق أهل الدُّنيا والآخرة أنْ تَصلَ من قطَعكَ ، وتُعطيَ من حرَمك ، وتعفوَ عمن ظلمك ﴾

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام « اذا قدَرْتَ علي عدوِّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » وسُرقت لعبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) دراهم فجعَل الناسُ يَدْعون على من أخذها له . فقال عبد الله لهُم : « اللّهم إن كانت قد حمَلَته على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كانت قد حمَلَتْه على سرقتها جُرأةٌ على الذنب فاجعله آخر ذُنوبه » . ومثلُ ذلك في التحمل والحلم قولُ بعض الحكماء :

« إذا قالوا لك : إن فلاناً نَلَبك وانتقصك فقل لهم إنه لا يعرف جميع نقائصي وإلاّ لما اقتصر على ما قال »

الغيبة والنميمة

(الغيبة) ذِكرُكَ أخاكَ في غَيْبته بما يكره . وإذا لم يكن فيه شيء ممّا عبته به سُمي قولك (افتراءً وبهتاناً) وكان إثمك في ذلك أشدّ وأعظم من الغيبة . وبشاعةُ ذلك كله ، واستنكارُ أمره ، ومبلغ ضرره في تأريث نار الفتن

وتقطيع روابط الألفة بين الناس ـ أصبح متعالَماً مشهوراً لا حاجة الى تطويل الكلام فيه . وقد نهى الشارع عن الغيبة وحضّ على تجنبها ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحبُّ الاعمال الى الله حفظُ اللسان ﴾

﴿ طوبىٰ لمن شغَلَه عيبُه عن عيُوب الناس ﴾

﴿ اذا وُقِع في الرجل وأنتَ في ملاٍ فكُنْ للرجل ناصراً ، وللقوم زاجراً ، أو قُم عنهم ﴾

(وُقِع في الرجل) أي اغتيب والاسم منه (الوقيعة) . يُعَلّمُنا في هذا الحديث أن لا نلقى أنفسنا في تيّار الغيبة مع الذين يغتابون الناس بل لتكن فينا شجاعةٌ أدبية نقف معها موقف الحقّ والاعتدال . فنحسّنُ محضر المغتاب ، وندافع عنه ، أو نقوم من المجلس على الأقلّ . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ليَرُدُّك عن الناس ما تعلمُ من نفسك ﴾

أي اذا أردت الطعن فى الناس ففكِّر أولا في نفسك فتجد فيها عيوباً ربما كانت أبشعَ وأسوأ مما تذكُر عنهم ، وإذ ذاك تنزجر وتكفّ عن الوقيعة فيهم . وهذه الطريقة من أنجع أدوية داء الغيبة لمن وفّقه الله

ومن أقبح أنواع الغيبة هجو الناس شعراً . فان الشعر أسْيَر فى الناس وأعلق بالأذهان ، فيكونُ ضرَرُه أعمّ والايذاء فيه أتمّ . وقد نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا النوع من الغيبة خاصةً فقال :

﴿ أربىٰ الرِّبا شتم الأعراض ، وأشد الشتم الهجاء . والراوية أحد الشاتمين ﴾

قوله (والراوية) أي الذي يروي للناس ما يقوله الشاعر فى هجو الناس فانه يكون شريكا للشاعر في إثمه . وكان لكل شاعر من شعراء الجاهلية

راوية يحفظ شعره ، وينشره بين الناس . ومن أقبح أنواع الهجو الشعري أن يتخطّى الشاعر شخصَ المهجو الى اسرته أو قبيلته أو وطنه . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أعظمُ الناسِ فِرْيةً شاعرٌ يَهْجُو القبيلة بأسرها ﴾

ومثل ذلك في الشناعة أن يتخطّى الاحياء الى الأموات فيهجوهم ، ويخوض في ذكر مساويهم . وقد نهى الشارع عنه مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اذكرُوا محاسنَ مَوْتاكم وكفُّوا عن مَسَاويهم ﴾

أما القرآن الكريم فقد نهى عن الغيبة مُفْرِغاً النهي في أبلغ أسلوب ، وأشدّه تأثيراً في القلوب ، فقال تعالى :

﴿ ولا يغتَبْ بعضكم بعضاً : أيُحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحم أخيه مَيْتاً فكرهتموه ﴾

﴿ ياأيُّها الذين آمنوا لا يَسْخرْ قومٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أنْ يكونوا خيراً منهم ، ولا نِساءٌ من نِساءٍ عَسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلْمِزُوا أنفسكم . ولا تنابَزُوا بالألقاب ، بِئْسَ الاسمُ الفُسوقُ بعد الإيمان ﴾

﴿ وَيْلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾

و (الهُمزَة) ، و (اللُمزة) متقاربان في معنى الطعن فى الناس والتشهير بهم ، وقال بعض المتقدمين :

« أدركْنا السلف وهم لا يروْن العبادةَ فى الصَّوم ولا فى الصلاة (يعني فى الاقتصار عليهما والاكتفاءِ بهما) ولكن فى الكفِّ عن أعْراض الناس »

وما أحسن ما قاله الشاعر :

لقد صَدَقَ الباقرُ المرتضى سليلُ الإمام عليـه السّلام

بما جاء في بعض أقواله قبيحُ الكلام سِلاحُ اللئام

ودخلتْ امرأة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تستفتيه في أمر، فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها:

« يارسول الله ما أقْصَرَها » فقال:

﴿ مهلا إياكِ والغيبة ﴾

فقالت « يارسول الله، إنما وصفتُها بأمرٍ هو فيها » قال:

﴿ أجلْ ولولا ذلك لكان قولكِ بُهتاناً ﴾

أي ولكان العتبُ عليك أشدّ

وبالجملة فإن الغيبة مما حَظَره الإسلام . قالوا: إلا لمصلحةٍ شرعيةٍ يتوقّف تحققها على ذكر الآخر بعيوبه، وقبيح أعماله: من ذلك أن يظلمك رجل فتصف مِن ظلمه لولاة الامور كي يُنصفوك منه. هذا في المصلحة الخاصّة، أمّا في المصلحة العامّة فكأنْ يكون الرجل مجاهراً بأعمال منكرة، أو مزاعم باطلة، ينشأ عنها فسادٌ أو فتنة، فلك إذ ذاك أن تصف من أعماله وسوء مقاصده، كي يساعدك الحكّام، أو الرأي العام، على تدارك أمره، وكفّ شره. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ أترعون عن ذكرِ الفاجرِ أنْ تَذْكرُوه؟ أذكرُوه يعرفْه الناسُ ﴾

قوله (أترِعُوْن) أي أتتورَّعُون وتتحرّجون، فهو مشتق من الورع و (الفاجر) المستهتر في ارتكاب المناكر، ولكن على العاقل أن يعرف كيف يذكر هذا الفاجر وكيف يتوصّل الى كفّ شره. ومنع أذاه عن الناس، وإلاّ كانَ السكوتُ أسلم، وانتظار الفُرص أفضل وأحكم

و (النميمة) أختُ (الغيبة) الشؤمى وقلّما ذُكرتْ الا مقترنة بها.

وحدُّ (النميمة) أن تنقل الى الناس من أقوال شخصٍ أو أحواله أو أخباره ما يَسوءه أو يفضحه ، أو يفسد عليه أمراً دبَّره ، أو مصلحة يحاول قضاءها .
ولا يخفى ما ينتج عن انتشار هذه الخصلْة الذميمة في الناس من الفساد والشرِّ وتباغض الأحباء ، وتقاطع المتعاهدين على الصفاءِ والوفاءِ . ومن ثمَّ كانت النميمة منافية للإسلام ، مجانبة لاخلاقه العامةِ التى حضَّ عليها الشارع عليه الصلاة والسلام ، من ذلك قوله :

﴿ ليس مِنّي ذو حَسَدٍ ولا نميمةٍ ﴾

﴿ إنَّ أبْغضكم الى الله المشَّاءون بالنميمة ، المفرِّقون بين الإخوان ، الملتمسُونَ للبُراءِ العثَرات ﴾

قوله (الملتمسون) الخ أي الذين يَبْحثون عن هفوات يلصقونها بالابرياء الغافلين كى يؤذوهم ، ويُفسدوا عليهم أمورهم . وعاب القرآن مَنْ هذا خُلقه فقال تعالى :

﴿ همَّازٍ مَشَّاءٍ بنَميمٍ ﴾

و (النَّميمةُ) فيما شاع من معناها لا تتعدَّى نقل أخبار الناس بعضهم الى بعض أمَّا التجسُّس ويُسَمَّى السِعاية أيضًا فإنه يُطلق في الغالب على نقل أخبار الناس الى ذوي السلطة والحكم الذين يملكون الإيقاع بهم ، أو مصادرة أموالهم أو تغريبهم . وهذا الضربُ من النمائم أفحش أنواعها ، وأشدُّها ضَرَراً .
وقد نهى القرآن عنه فقال تعالى :

﴿ ولا تجسَّسُوا ﴾

ويقال للساعى المتجسّس (قَلّاع) لأنه يأتي الرجل المتمكّن عند الامير فلا يزال يقع فيه ، ويَروى للأمير من عيوبه ومساويه ، حتى يقلعَه ويحلَّ محلَّه .
وانما كان إثم المتجسّس عظيما لأنه يعمِد الى أُناس ابتُلوا بزلاتٍ أو هناتٍ ارتكبوها واستَخْفَوْا بها عن أعين الناس خوفاً من الله أو رهبةً من الحكّام

فلا يزال ذلك المتجسّس يدأب ويسعى حتى يقع على خبرهم ، ويهتك الستر عن مكتوم أمرهم ، ثم ينقل ذلك الى الحُكام . وهذا لايجوز في الاسلام كما سمعت . ولأن أسرارهم هذه التي تكون في بيوتهم كسرائرهم التي تكون في صدورهم . والشارع قد نهى عن تتبّعهما كليهما . فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إني لم أُؤمَر أن أُنقبَ عن قلوبِ الناس ولا أشُقّ عن بُطونهم ﴾

يعنى بذلك سرائرهم ، وبواطن أُمورهم . وإنّما لوليّ الامر الظاهرُ من الأُمور . وقد أمرَ القرآن بعدم تصديق هؤلاء المتجسّسين إلا بعد التثبّت وشدّة الفحص الذي في تركه وإهماله فساد وضياع للمصالح العامّة ، قال تعالى :

﴿ إن جاءَكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنُوا ﴾

فسمّىَ الجاسوس (فاسقاً) وكفى بهذا خزياً . وكما قلنا في الغيبة إنّها تجوز أحيانًا صوناً للمصالح ودرْءاً للمخاطر ، ولاتعود تسمى غيبة . كذلك يُقال في النميمة والتجسُّس : فانهما قد يُلجأُ اليهما أحياناً . ولكن لايكونان اذ ذاك مُحرّمين ولا مسميين باسْمى النميمة والتجسّس الممقوتين : كما إذا عرفت أنّ زيداً مثلا يُدَبّر مكيدةً لعمرو يريد بها هلاكه أو فضيحتهُ ، أو ضياع حقّه . فلا يكون من العدل السكوتُ عن ذلك ، وتركُ تبليغه لولاة الامور . هذا في المصالح الخاصّة أما مايتعلق بالمصالح العامّة والأمْن العامّ وفي أوقات الحروب والفتن فوُلاة الأُمور إذ ذاك مضطرّون الى استخدام أُناسٍ ينقلون اليهم أسرار من يُريد بالامّة سوءاً ، أو بالوطن شرًّا . ومثلُ هؤلاء المخبرين كانوا يُسَمّوْنَ في زمن الُخلفاء (أصحابَ الأخبار) ويسمّونهم اليوم (البوليس السرى) أو (مأمور استخبارات) وكان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعةٌ يبلّغونه أخبار المنافقين وما يدبّرونه من المكايد للمسلمين ، فيحتاط لهم ، ويفسد عليهم تدبيرهُم ومكرهم

ولكن إن جاز هذا النوع من التجسُّس والغيبة فلا يجوز أبداً أن يتولى

أمره ويستبدّ به مَنْ كان معروفاً بين الناس بالكذب، وخُبث الطوية، والميل مع الهوى. بل يجب أن يكون (صاحبُ الخبر) حرّاً كريماً ذا قلب سليم وإخلاص متين، فلا يزيغ عن الحقّ ولا يرفع لوليّ الأمر من أخبار الناس وأسرارهم الا ما في إفشائه مصلحةٌ لهم، ودفعُ ضررٍ عنهم. ونؤكّدُ القول بأن تعرف أسرار الناس بواسطة (أصحاب الأخبار) لا يجوز الاّ في أوقاتٍ خاصة، وعند قيام قرائن قويّة دالة على وجود دسائس ومؤامرات خفيّة في البلاد يؤدّي الإغضاء عنها الى ضياع البلاد، أو فساد أمرها. والاّ فان تتبّع الحاكم لعورات الرعيّة، وبحثه عن أسرارهم الموهومة يُغيّر قلوبهم، ويُبغضهم بأميرهم. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ إن الأمير اذا ابْتغى الرِّيبة في الناسِ أفسَدهم ﴾

وقال بعض العلماء المتأخرين في تفسير قوله تعالى:

﴿ ومِنْ شَرِّ النفّاثاتِ في العُقَدِ ﴾

إنّ (النفاثات) جمع (نفّاثة) مبالغة في (نفّاث) كعلاّمات جمع (علاّمة) مبالغة في (علام) قال: و (النفّاث) أصله الساحر (ينفث) أي ينفخ نفخاً خفيفاً مع شيء من الريق على أدوات سحره، ومُحْكم عُقدِه. والمرادُ بهم في الآية النمّامون والشقّارون [١] الذين يعمدون الى العلائق بين الاصدقاء المتحابّين، فلا يزالون يرقونها بكلماتهم الخلاّبة، وينفثون عليها من سُموم وشاياتهم الكذّابة، حتى يُقطّعوها. فتصبح الأقارب أجانب والأصدقاء أعداء. والآية المذكورة مما لقّنه الوحيُ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمّته يُعلّمهم بها كيف يستعيذون الى الله من شرّ النمّامين الذين يشبهون السَحَرة

---

(١) الشقار هو المحرش بين الناس بقصد ايقاع الفتنة والعداوة بينهم

في خَفِيِّ عَملهم ، ولطيف كَلِمِهم . وربّما شهد لهذا المعنى في تفسير الآية مارواه سيدنا أنس (رضى الله عنه) عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

« كادت النميمة أن تكون سِحْراً »

وإثمُ الغيبةِ والنميمة والتجسّس ودرجة الحُرمة فيها على مقدار ماينتج عنها من الشرور والآفات والاضرار بالناس : فمنها مايكفي فيه مُجَرّد التوْبة والاستغفار ، ومنها مايُحتاج فوق ذلك الى طلب الصفح وإصلاح الفاسد أو تعويض الخسار

النفاق والرياء

النّفاق ضدُّ (الجهر بالحق) و (الامانة) و (الاخلاص) . أمّا نسبته الى الكذب فهو أخوه الافسد ، وصِنوه الانكد . اذ هما معاً يرميان الى غرَضٍ واحد : أعني تغيير الحقيقة الثابتة ، وتحويلها عن صورتها التي خلقها الله عليها . (فالكاذب) يُخبر بلسان مقاله عن وقوع أمر ما ولا يكون واقعاً ، و (المنافق) يخبر بلسان مقالِه تارة وبلسان حاله تارة أخرى عن أمر يزعم أنه منطو عليه ، وثابتٌ في نفسه ، ولا يكون ذلك واقعاً أيضاً . فالنّفاق أعمُّ من الكذب : من جهة أنه يكون أحياناً بغير اللسان ، وأخصُّ منه لأنه لا يكون الا إخباراً عمّا في القلب والنيّة . و (الرِّياء) كالنفاق الاّ أنّ أكثر استعماله فيما كان بلسان الحال ، لا بلسان المقال : فالمُرائي يُري أو يخيِّل بمعونة سَمتِهِ وملامحه وأطواره ودموعه أحياناً أنّه على خير في نيّتِه وعمله وسائر تصرُّفاته وهو على نقيض ذلك

وللنّفاق شبهٌ بالخيانة . ويُفرق بينهما بأن (الخيانة) رجوع عن انفاذ عهد عاقدتَ عليه غيرك ثم يعلمُ ذلك الغير أنك نقضتَ عهده ، فيغضب عليك ثم يستريح . أمّا (النّفاق) فهو خيانة متكرّرة متجدّدة تُفسدُ في الأرض الى

ما شاء الله : اذ أنك في ايهامك الآخرين واقناعك لهم زوراً وبهتاناً بحسن حالك، وطيب سريرتك؛ تكون كأنك قد عاهدتهم على الثقة بك، والاعتماد عليك. ثمّ لا تعلنهم نقضَ العهد، فتبقى خائناً لهم الى ما شاء الله. ويَبقون هم مخدوعين بك زمناً يطولُ ويقصُر بحسب مهارتك وغباوتهم، وشدّة مكرك وحسن طويتهم. أفبعد هذا نعجبُ اذا رأينا الوحيَ الالهيَّ لم يحمل على خُلق من مساوي الأخلاق حملتَهُ على النِّفاق، ولم يتوعّد على مُنْكَرٍ كما توعّد عليه حتى جعلَ دَرَكةَ أصحابه في دار العذاب تحت دركة الجاحدين، مذ قال تعالى:

﴿ إنَّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأَسْفلِ منَ النار ﴾

وذلك كلّه لما للنّفاق من قبح الأثر في إفساد حال البشر. وان الناس العائشين في نِفاق تَراهم في نهار من ظواهرهم، لكنهم في ليل دامس من بواطنهم: تحسبهم أيقاظاً في أحاديثهم، وإنما هم رُقود في هِمَمِهم، نِيام عن خدمة مصالحهم. وهكذا يقضون أعمارهم فى الغفَلاتِ، والتَّملّات، والأماني الباطلة، والمواثقات الكاذبة، حتى يقضي الله عليهم بأمره، وينفذ فيهم سنته المطّردة فى خلقه

أشرنا آنفاً الى أن النفاق إيهام الناس أنك على شيء من الخير يرضيهم. فيثنون عليك، أو يعقدون معك عهداً من أجل ذلك الشيء، وتكون أنت في الواقع ونفس الامر مبطناً خلافه

و(النفاق الديني) أن يستسر المرء غير ما يظهر من أمر دينه. وشناعة ذلك ظاهرة لا تحتاج الى بيان. أما النفاق الآخر الذي يصح لنا أن نسميه (النفاق الاجتماعي) فهو أن يظهر المرء من نفسه أمام الناس أنه على علم جم، أو اخلاق حسنة، أو أعمال صالحة، أو مساع في خدمة وطنه وقومه مبرورة. واذا كلّفوه الاتفاق معهم على أمر جامع من المصالح العامة. والمشاريع الخاصة. أظهر موافقتهم والارتباط معهم، وهو ينوي في باطنه مخالفتهم بل معاكستهم أحيانا. وقد يقف مع آخرين غيرهم هذا الموقف الخلاب، ثم مع آخرين وآخرين

فيكون مع الـكلّ ، وليس هو الا مع نفسه . ويبقى كذلك حتى يشتهر أمرُه ، ويقترن بالمذمة ذكره

و (النفاق الاجتماعي) كثير الحصول فى الشعوب التى تنحط فى تربيتها الدينية والاجتماعية ، وصاحبه وان لم يُعتبر خارجا عن الملة بالمرّة ؛ ولم يكن فى الدرْك الأسفل من النار ؛ لـكن له من دَرَكاتها وعذابهـا على قدر الآثار السيئة التى تنشأ عن نِفاقه ، والمضرات التي تلحق الناس من خديعته وخلابته .

وقد وصف القرآن الـكريم أرباب النفاق فقال تعالى :

﴿ يقولونَ بأفوَاهِهِمْ ماليْسَ في قلوبِهِمْ ﴾

ومن الآيات التي تكاد تكون صريحـة في وصف النِّفاق الاجتماعي قوله تعالى :

﴿ ومنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُّنيا ، وَيُشْهِدُ اللهَ على مافي قَلْبِهِ ، وهو ألدُّ الخِصام . واذا تَوَلّى سَعَى في الأرض ليُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحرْثَ والنّسْلَ . واللهُ لايُحِبُّ الفَساد ﴾

نزلت هذه الآية في منافقٍ خاصّ ، وقيل في المنافقين عامّة . وقال محمد ابن كعب القُرَظي وهو من كبار التابعين : إنّ الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعدُ . وقد طبّقَ هـذه الآيةَ بعضُ علماءِ السلف على ماوَرَدَ في كتب القدماء وهو : « إنّ لله عباداً ، ألسنتهم أحلى من العَسل ، وقلوبهم أمرُّ من الصبر ، لَبِسوا للناسِ جُلودَ الضأن من اللين ، ليَجتَرُّوا الدنيا بالدِّين » وعلى هذا فإن الآية تشمل فى عمومها أولئك الذين يتظاهرون في مجالسهم مع الناس بحبِّهم لعمران بلادهم ، ورغبتهم في إصلاح شؤون الحياة السياسية والاجتماعية فيها ، ويؤكدون أقوالهم بأغلظ الأيمان ، ويكونون هم في الباطن مُبغضين لـكلِّ إصلاح اجتماعي ، معاكسين لـكل مشروع خيري أوعمراني . بدليل أنهم إذا

قاموا من مجالسهم الى ممارسة أعمالهم كانت مساعيهم منصرفة الى تخريب البلاد ، والتمويه على العباد ، والله تعالى لا يحب من كان هذا دأبهُ من أهل النفاق والفساد

أما الاحاديث الواردة في ذمّ النفاق والمنافقين والكشف عن مساويهم ، ووصف علاماتهم ، فكثيرة : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أرَى الناسَ فوقَ ما عِنده من الخشْيةِ فهو مُنافِقٌ ﴾

المراد بالخشيةِ الخوف من الله ، والتورّع عن المحارم : يتظاهرُ بذلك تظاهراً . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامةِ مَنْ يُرِي الناسَ أنَّ فيه خيْراً ولا خيْرَ فيه ﴾

﴿ إنَّ الله حرَّم الجنّة على كلِّ مُراء ﴾

﴿ أخافُ على أمّتي زلّة العالِم ، وجِدالَ المنافِق ﴾

وقد غلا بعضُ الشعراءِ فجعلَ أناسَ زمانه كلّهم منافقين مذ قال :

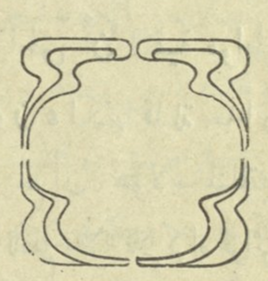
(جميعُ الناس خدّاعٌ الى جانب خدّاعِ)
(يعيشون مع الذئبِ ويبكونَ مع الرّاعي)

ولما كانت خصلة النفاق من شرّ الخصال وأسوئها أثراً نرى أهل الفضل والنُبْل يَتأبوْنها ويأنفون من الوقوف مواقفها . وقد نرى بعض المتورّطين فيها يعتذرون أحياناً بأنهم إنما قالوا ما قالوا تقيةً وتخلُّصاً من أذى يُصيبهم من ذوي الحكم والسلطان . والحقّ أنّ للتقيّة مواطن خاصّة ، وقرائن واهنة . قد تشفع لبعض الناس فيما يقولون ، لكنها قليلة جداً ربما لا تعرض للمرء في عمره سوى المرّة أو المرّتين ، مع أنّ هؤلاء المنافقين ينافقون في مجالس العظماء مراراً وتكراراً . ولا نرى للظلم ولا للإكراه قرائن وآثاراً . على أن مدّعي التقية كان يسعهُ السكوت أو التورية في الجواب . فانّ ذلك كاف في ارضاء

الظالم ، وصده عن الاذى

ومما ينبغي التنبيهُ اليه ، والتَّحذيرُ من غوائله من ضروب النفاق والرياء نفاقُ أولئك الذين يتَصَدَّوْن لتربية الاحداث وتهذيبهم ، ووعظ أبناء الامة وإرشادهم : فانَّ الرياء والتصنع من هؤلاء ومخالفة أعمالهم لاقوالهم ، تفسد قلوب الموعوظين ، وتحملهم على الاستخفاف بأوامر الدين . وتجرِّئهم على ارتكاب الآثام ، واستحلال الحرام . وإنَّ الوعظ لا يُثمر ثمرَه الطيب ما لم يقترن به عملُ الواعظ . والتزامُه بنفسه ما وَعَظَ غيره به ، وحضَّه عليه . فليحذر المربِّي المؤدِّب هذا الامر من نفسه ، ولا يفعلْ فعلَ ذلك الواعظ الذي سَرَقَ الدجاجة ثم قام يخطب فى الشعب ويحضهم على ممارسة الخير والفضيلة والعفة عمَّا فى جيوب الناس . واذا بالدجاجة تقرقر فى جيبه ، وترفع عقيرتها بالإشهاد على ذنبه . فهل يكون لوعظ هذا الواعظ قيمة أو تأثير فى النفوس ؟

ولا يحسبنَّ المعلم أو المربِّي أن الطفل الصغير لا يتنبه الى ما كان من خِلابة معلمه أو مربِّيه وريائه ومخالفة باطنه لظاهره . فانَّ فى هؤلاءِ الصغار من الحسِّ وقوَّة الشعور ما يُساعدهم على إدراك ذلك ، والانتباه اليه بسرعة . ومن مارس شؤون التربية ، وراقبَ أخلاقَ الأطفال وقواهم النفسية المختلفة وافق على ما قلنا



الواجبات المدنية

بعد أنْ دخلَ نوعُ الانسان في طورٍ جديد من حياته المدنية ، ومعيشته الاجتماعيّة أصبح على كل فرد من أفراده واجبات نحو وطنه وحكومته ما كان مكلّفاً بها بل ربما لم يكن يشعُرُ بها مذ كان في طور البداوة وسذاجة المعيشة . وقد سُمّيت هذه الواجبات (الواجبات المدنيّة) . ويقتصر الكلام فيها على أمرين أساسيين : (١) وطن يجب حبُّه والدفاع عنه (٢) حكومة تجب طاعتها والنُّصح لها . ومِنْ ثَمَّ كانت مباحث هذا الباب ثلاثة :

(١) الحكومة والوطن . (٢) النصح والطاعة . (٣) الحربُ والدفاع

الحكومة والوطن

وطَنُ الرجل البَلَدُ الذي نَشأ فيه ، وقضى معظم أيام حياته في ربوعه بحيث يتميّز عن غيره من البلاد بنسبته اليه ، فيقال : دمشقي مثلاً ، أي لا بغدادي وهذا المعنى هو مدلولُ كلمة (الوطن) في اللغة العربية وفي استعمال كُتّابها وشُعرائها المتقدمين وعليه قول أحدهم :

(وحَبّبَ أوطانَ الرِّجال اليهم مآربُ قضّاها الشّبابُ هنالِكا)

وحبُّ الانسان لهذا الوطن وحنينه اليه شعور طبيعيّ فيه . فلا معنى لعدّه من (الواجبات) عليه . وقولهم (حبُّ الوطن من الايمان) وإن لم يثبت عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حديثاً بلفظه فقد ثبت عنه بمعناه أو بما هو أقوى من المعنى : ذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن هاجر الى المدينة المنوّرة كان إذا ذُكرت (مكّة) مولده ومنشأه اغرورقت عيناه الكريمتان بالدّموع حناناً لمكة ، وتشوّقاً اليها

ثم حدث في هذه الازمنة المتأخرة وعلى ألسنة كتّاب العرب وشعرائهم معنىً جديدٌ لكلمة (الوطن) غير المنشأ والمولد : فأصبح يُراد بها البلاد التى تتميّز عن غيرها بحدودها وحكومتها وقوانينها وتضامن سكانها والتفافهم حول جامعةٍ واحدة ، ورايةٍ واحدة ؛ ومصلحةٍ واحدة . وإذا نسب الى هذا الوطن أحد قيل عنه إنه (وطنى) أي لا أجنبي . وهذا المعنى هو الذي نريده في بحثنا هذا ، وإياه عنى الشاعر المصري بقوله :

(وما الوطَنُ المحبوبُ إلاّ يتيمةٌ   وباقي المعالى كالدَّرَارِي التَّوائِمِ)

والوطنيُّون من متمدني هذه الأيام إذا أرادوا أن يتمجَّدوا أو يتغنَّوا بذكرى أوطانهم لا يقتصرون منها على ذكر التُربة والسكان والحكومة التى هي المقوِّمات الأصلية للوطن بل يُريدون ما يشمل أيضاً مفاخرَ وطنهم التاريخية وأخبار حروبه وانتصاراته وسِيَرَ أبطاله ومشاهير رجاله وما أبقى هؤلاء من الآثار والمباني والمؤلفات والاختراعات . ويدخل في ذلك أيضاً شرائعُ البلاد وعاداتها وتقاليدها ، واللغةُ وأمثالها وأناشيدها ، وما في البلاد من مناظر وجبال وأنهار وحيوان ونبات مما لا وجود له في الأوطان الأخرى ، أو مما يمثله الخيال انهُ أفضلُ وأمجد مما عنْدَ الأمم الأخرى . ويتخذ كلُ وطنيٍّ من مجموع ذلك صورة في ذهنه يُميِّز بها وطنه عن غيره ، ويرمُز الى ذلك المجموع بقطعةٍ من النسيج تُسَمَّى (الراية) فتدل على الوطن دلالةَ اللفظ على المعنى ، أو الاسم على المسمى : بحيث إذا أُكرِمَتْ الراية كان ذلك إكراما للوطن نفسه وإذا أُهينت كانت الاهانة كأنَّها موجهة الى الوطن نفسه . وإذا قالوا : إن فلاناً يحبُّ وطنه يُريدون شغفه بمجموع ما ذكرنا . ويَعُدُّون هـذا الحبَّ من أكبر الواجبات وأعظم الفضائل : ويَرْوون عن (أرسطو) أنه قال : « الرجل ليس رجلا بلا وطن » وقال بعض عظماء أوروبا « من لم يقم بأداء واجبه نحو وطنه خوفاً من

الموت ليس بأهل لأن يعيش : لأن الموت لابدّ منه ولكن النفس الشريفة لاتموت » . وإن الأمم لتتمايز وتتفاضل في الارتقاء المدنيّ والاجتماعيّ والسياسيّ بمقدار مالدى أفرادها من حبّ القيام بهذا الواجب : (واجب حب الوطن). وبقدر مايكون لهم من الآثار في خدمة أوطانهم ، ورفع منارها .

على اننا مهما جعلنا الوطن كناية عن مجموع ماذكرنا فإن (الحكومة) هي الجزء الأهمّ في ذلك المجموع ، وان نسبتها الى الوطن نسبة القُطب الى الرحى : فإذا كان القطب متيناً دارت الرحى على نفسها بقوةٍ ومتانة ، وأدّت وظيفتها بضبطٍ وإحكام ، وبالعكس اذا كان القُطب مُتخلخلا واهيا : فإن الرحى إذ ذاك تفسُد حركتها ، وتعجزُ عن القيام بوظيفتها . فحبُّ (الحكومة) إذن واجبٌ كحُبِّ (الوطن) ولم يحب (وطنه) من لم يُحب (حكومته) ويُمْحض النصح والطاعة لها كما سيأتي بيانه في بابه الخاص .

وهذا الخلُق أو الواجب المدني أعني (حُب الوطن) و (طاعة الحكومة) وإن لم يَرِد في النّصوص الاسلامية بهذا التعبير نفسه لكنه ورد بما يُفيده ويتفق معه في المعنى والغرَض : فإذا جاء في النص ذِكْرُ (الإمام) أو (الخليفة) أو (الوالى) أو (ولى الامر) فهو مانُريده اليوم بكلمات (الحكومة) أو (الدولة) أو (مجلس الأمة) ، واذا قال النصُّ (مصلحة المسلمين) أو (أمور الأمة) فهو مانريد به اليوم (الوطن) و (البلاد)

وقد قرر الإسلام في جملة ماقرر من الأصول أنه لابد من قيام (حكومة) أي سُلطة عادلة في الأمة ، تسُوس مصالحها ، وتُدَبّر شؤونها ، وتقيم منار العدل فيها . وجعل ذلك فرضاً دينياً ، وتشاءم من كل بلدٍ ليس فيه حكومة ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

« إذا مَرَرْتَ ببلدٍ ليس فيه سُلطانٌ فلا تدخُلْه . إنما السلطانُ ظِلُّ الله في الأرضِ »

والمراد بالسُلطان السلطة وقوة الحُكم التي تحفظ الأمن ، وتحجز بين الناس ، وظلُّ الله رحمته ومعونته : فكما أنّ الحرّانَ اذا ضيّق الحرُّ أنفاسه لجأ الى الظل فوجد فيه الراحة والهناءَ كذلك المظلومُ والضعيف يلجأ الى سلطة الحكومة العادلة فيجد لديها النُصْرَةَ والمعونة . ومثلُ ذلك تشاؤم الشارع من القوم الذين أمْرُهم فوْضى وليس فيهم زعيم يرجعون اليه عند الاختلاف . فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا خرَجَ ثلاثةٌ في سَفرٍ فليُؤمِّروا أحدَهم ﴾

وبقدر ما أوصى الشارع بلزوم الطاعة لوُلاة الأمور أوصى هؤلاء بلزوم العدل والرِّفق في الرعيّة . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحسنُوا إذا وُلّيتُم ﴾

﴿ كلُّ راعٍ مسئُول عن رَعيّتِه ﴾

﴿ أيُّما رَجلٍ استعملَ رجلاً على عشْرَةٍ وقد علِمَ أن في العَشْرَةِ مَنْ هو أفضلُ منه فقد غشّ اللهَ والرسولَ وجماعة المسلمين ﴾

﴿ أيُّما والٍ وَلي شيئاً من أمرِ أُمتي فلم يَنْصَحْ لهم ويجْتَهِدْ لهم كنصيحتِه وجَهْدِه لنفسه كبَّهُ الله على وجهه يوم القيامةِ في النارِ ﴾

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد : ماحديث يحدّثنا به أهل الشام ؟ قال : وماهو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يحدثوننا أن الله اذا استرعى عبداً رعيةً كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات . فقال الزهري : باطل يا أمير المؤمنين ! أنبيٌّ خليفة اكرم على الله أم خليفة غير نبيٍّ ؟ قال : نبيٌّ خليفة . قال : فان الله تعالى يقول لنبيّه داود عليه السلام : (ياداود انا جعلناك خليفةً في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) فهذا يا أمير المؤمنين وعيد الله لنبيٍّ خليفة فما ظنك بخليفةٍ غير نبي !! فقال الوليد

إذ ذاك : ان الناس ليعرّونننا من ديننا . اه . وقال صلى الله عليه وسلم :

﴿ أوصى الخليفة من بعدي بتقوى الله وبجماعة المسلمين : أن يُعظّم كبيرَهم . ويَرْحَمَ صغيرَهم . ويُوقرَ عالمهم . وأنْ لايَضربَهم فيُذلَّهم . ولا يُوحِشَهُم فيكفرَهم . وأنْ لايُغلقَ بابه دونهم . فيأكلَ قويُّهم ضعيفَهم ﴾

عللَ الشارع نهيه عن ضرب أبناء الأمة بأنَّ فيه إذلالاً لهم ، ولا خير يُرْجى من أمة يكون أبناؤها الذين هم حماتها أذِلاَّء صغار النفوس ، وقوله (فلا يوحشهم فيكفّرهم) لعل معناه أنه لا ينبغي للحاكم أن يعامل محكوميه بالجفاء والغلظة فيستوحشوا منه ، ثم يحقدوا عليه ، وينكروا كلَّ جميل كان أسداه اليهم ، فيكون الكفر هنا بمعنى كفر النعمة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لستُ أخافُ على أُمتي غَوْغاءَ تَقتُلهُم ، ولا عدوًّا يجْتاحُهُم . ولكني أخافُ عليهم أئمةً مُضِلينَ : إنْ اطاعوهم فتنوهم وإن عَصَوْهم قتلوهم ﴾

وصف الشارع في هذا الحديث الوُلاة الظالمين الذين يسلكون بالناس مسالك الضلال والغيِّ . فإن انقادوا لهم أوردوهم مواردَ الهَلكة ، وان شَمسُوا لهم ، وأبَوْا مُتابعتهم ، أعملوا فيهم السيف وأفنوهم

وما خَشيَهُ الشارع على أُمته هو الاستبداد الذي قام أبناء العصور الاخيرة يُطاردونه ويكفون عن البشر عاديته حتى نجحوا معظم النجاح .

ومما حذّر الشارع الحكام منه التبذير في أموال الامة والاستئثار بشيء منها . وقد روى أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال ـ وقد أهوى بيده الشريفة الى وَبَرَةٍ من جنْبِ بعير ـ :

﴿ ما أنا بأحقَّ بهذه الوَبَرَةِ من رَجُلٍ منكم ﴾

البعيرُ من إبل الصَّدقة التي هي مال الامة : فالشارع يقول بعد أن تناول وَبَرَةً نَتفها من جنْبِ ذلك البعير : إنه لا حقَّ له بها دونهم . يعني فكيف بما

فوقها من أموالهم وخيرات بلادهم ؟

وحذَّر الشارع أيضاً الوُلاةَ من الاشتغال بالتجارة ومضايقة التجار فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مِن أخوَنِ الخيانة تجارةُ الوالي في رَعيَّته ﴾

وذلك بأن يُتاجر بالبضائع في أسواقهم ويزاحمهم في متاجرهم ، ومعاملات مصارفهم . فتُحجز عنهم الارباح ثم تنهال عليه بقوة الرُهبة أو التزلف اليه . وهذه الارباح التي دخلت جيبه هي حقهم لو عَفَّ وترَكها لهم واهتمَّ بأمر وظيفته ، فهو بذلك كأنه قد خانهم . ويحتمل أن يكون المراد بقوله (تجارة الوالي في رعيته) أن يعقد الوالي مع حكومات أخرى عقوداً سياسية أو اقتصادية ضارَّة بمصالح رعيته أو باستقلال بلادهِ لقاء منفعةٍ ينالها هو من تلك الحكومات فيكون بذلك قد جعَل رعيته سِلْعة تاجر بها ، وجرَّ الربح لنفسه على حسابها ، وكفَى بهـذا خيانةً . والحاصل أنَّ الإسلام لا يرضى للبشر حكومةً يسلك رؤساؤها في معاملتها مسلك الحيف والاستبداد والأَثرة : فهو يكلف هؤلاء الرؤساء إقامةَ الحق والعدل . وأن لا يكون لواحدٍ منهم ولا لأيٍّ كانَ من عظماء الامة وأقويائها ميزةٌ أو خصوصية على واحدٍ من الرعية . وصَرَّح الإسلام بأن كل أمةٍ لا يكون هذا شأنها أولا يكون فيها حكومة عادلة تنصُرُ الضعيف وتحميه من صولة القوي فهي أمة يصح أن يقال فيها ما قاله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كيفَ يُقدِّسُ اللهُ أمة لا يأخذُ ضَعيفها حقه مِن قوِيّها وهو غيرُ متعتَعْ ﴾

(كيف يقدِّس) أي لا يقدسها ولا يطهِّرها ولا يكرّمها بل تكون قذرة تجتنِبُ شعوبُ الأرض معاملتها . والاختلاط بها أو يطأونها بأقدامهم ،

ويُنزلونها في آخر الأمر على أحكامهم . وقوله (غير مُتَعتَع) أي غير متردد ولا متلجلج ولا خائف . والاسلامُ لم ينسَ أن يخوّف الحكام ، ويحذرهم عاقبة البغي والاستبداد بأممهم ، وأن ذلك مما يحمل الامم على ثلّ عُروشهم ، وانزال الويل بهم . فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَيْلٌ لِلْوالي مِنَ الرَّعية إلاّ والياً يَحُوطُهُمْ مِن ورَائهم بالنَّصيحة ﴾

أي ليحذرْ الوُلاة رعاياهم أن يثوروا عليهم . اللّهُمَّ الا النّاصح الساهر على خير رعيته ، فإنّ هذا في أمنٍ من حقدها وانتقامها . وهذا الحديثُ في التحذير من الثورات السياسيّة كحديث (وَيْلٌ للأغنياء من الفُقراء) في التحذير من الثورات الاجتماعية ، والمؤامرات الاشتراكيّة ، وقد مرَّ في بابه

ومما نَصَحَ به الشارع للأُمم أن تعتنيَ بأمر التربية والتعليم ونشرهما بين أبنائها . وبذلك تستعدّ لان ينبغ فيها أُمراء وحُكام قادرون على سياستها وضبط أمورها . إذ أن الامّة المتعلمة ذات التربية الفاضلة هي التى يوجد من أبنائها حُكام متعلّمون ، ووُلاة صالحون . أما الأمة الجاهلة المنحطة في تربيتها وأخلاقها فيكون الحكام من أبنائها مثلها منحطّين خاملين ، وعن طريق الحق والخير ناكبين . ولعلّ ما قلناه هو تفسير ما وَرَد في الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كيْفَما تكونوا [1] يُوَلّى عليكم ﴾

فكونوا أيها الوطنيُّون متعلّمين مُهذّبين يكن حُكامكم كذلك . وكونوا جهلاء أغْبياء مُتَخرّقين يكن حُكامكم كذلك . فانظرُوا في نفسكم قبلَ نظركم فيهم وحكمكم عليهم . وقد قال بعض علماء الاجتماع المُعاصرين وكانه في قوله هذا

---

(١) حذفت نون الفعل لغير جازم تخفيفاً وقد مر شبيهه . ومن النحاة من يجعل (كيفما) جازمة للفعل

يفسّر لنا معنى الحديث المذكور :

« ليست الهيئة الحاكمة عادةً بأحسن حالاً من الهيئة المحكومة . ولا يكونُ الحكام ذوي عدلٍ وشرف ما لم يكن السّوادُ الأعظم من الامة حرَّ الضمير . سليمَ الاخلاق كريمَ العواطف »

النصح والطاعة

قلنا إنّ الحكومة هي عماد الوطن ، وملجأه ، وقُطب رحاه . وبديهيٌّ أن قوة الحكومة نفسها إنما هي مستمدة من قوة الوطن والشعب الذي يستوطنه . فاذا خَذَلَ الشعبُ حكومته ، وعَصى أمرها سُلبت قوتها . وأصبحت عاجزةً عن ضبط الأمن ، وإقامة العدل ، وتمشيةِ المصالح . وآل أمر الأمة والوطن أخيراً الى الفوضى والدمار . وإنّ الخروج على الحكومة لا يضرُّ الحكومة بقدر ما يضرُّ الوطن نفسه . فسلامةُ الوطن اذاً متوقّفة على تبادل الثقة بين الحاكم والمحكوم وتضامن الفريقين على حماية الوطن ، والذّود عن حياضه ، والحرص على توفير مصالحه .

وقد راعى الدّين الاسلاميُّ كلَّ هذا ، وامتلأت نصوصهُ بحضٍّ الأمراء والحكام على العدل في المحكومين ، والرِّفق بهم ، والسّهر على مصالحهم ، وترك الأثرةِ والاستبداد فيهم ، كما سمعتَ في البحث السابق . ونُريد هنا أن نذكر بعض ما ورد بشأن طاعة الامة نفسها لامرائها ، ووُلاة أُمورها . وأشهرُ النّصوص الدينيّة في ذلك قوله تعالى :

﴿ ياأيُّها الذينَ آمنوا أطيعُوا الله وأطيعوا الرّسولَ وأُولي الْأَمْرِ منكم ﴾

والمراد باطاعة الله والرسول إطاعة أوامرهما ، فكأنَّ الآية تقول : أطيعُوا

الشّرائع السماوية وأطيعوا الحكومة التي تنفذ تلك الشرائع . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اسْمَعوا وأطيعوا وإنْ استُعْمِلَ عليكم عَبْدٌ حَبَشيٌّ كأنَّ رأسهُ زبيبةٌ ﴾

قوله (استُعمل عليكم) أي جعل عاملاً وحاكماً عليكم . والمراد أنّ سَحنةَ الحاكم وهيأته ونجاره ونسبته لا علاقة لها بصحة توليته ، ولا بوجوب الخضوع له . وإنما مدار الخضوع على أهليته وكفايته . وقال أيضاً :

﴿ عليكَ السَّمْعَ والطَّاعةَ في عُسْرِكَ ويُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ ومَكْرَهِكَ وأثَرَة عليكَ ﴾

قوله (منشطك ومكرهك) قريبٌ في معناه من قوله قبله (عُسْرك ويسْرك) وقوله (أثَرَةٍ عليك) أي أن يُؤثِرَ الحاكم نفسه ويُفضّلها عليك ببعض المنافع والفوائد . ينهى الشرعُ الإسلاميّ الحكّامَ عن الأثَرَة كما سمعت في حديث (الوَبَرَةِ) التي تناولها الشارعُ صلى الله عليه وآله وسلم من جنب البعير وقال : « ما أنا بأحقّ بهذه الوَبَرَة من رجلٍ منكم » فاذا كان صاحب الشريعة لم يجوّز لنفسه الاستئثار على الأمة بهذا القدر التافه من حُطام الدنيا فكيف يجوّز ذلك لغيره ؟

وإذا آثر الحاكم نفسه وتلاعب بمصالح الامة وجب نصحه والأخذ بحُجْزته عن التمادي في عمله . فاذا لم يتيسر للامة ذلك فالاسلام يأمر بالصبر عليه ويحذّر من نبذ طاعته لا حُبًّا في سواد عينيه ، ولا رضاً بمخالفته لأوامر الله ورسوله ، ولا إرادة أن تكون الامة ذليلةً حقيرةً . كيف والإسلام يجعل لها كل الحق في العزّة والأنفَة ؟ إنما ذلك خشية النزاع ، وتفرّق الكلمة ، وضياع

الوطن بجملته . وإنّ مُعظم ما مُنيَ به المسلمون من التنازع والتفرُّق في سالف أحقابهم كان السبب فيه أثَرَةُ أمرائهم وسوء ملكة حُكامهم . فيتخذ ذلك بعض منافسيهم ذريعةً الى القيام عليهم ، وأخذ السلطة من أيديهم . هذه الحالة أضرّت بالمسلمين ، و أوهنت جامعتهم ، وبدّدت شملهم الى حدّ هال أمره المتأخرين من فقهائنا (رضي الله عنهم) . فألزمُوا الناسَ بالطاعة لأمرائهم إلزاماً لا هَوَادَة فيه حتى قال قائلهم في منظومته الفقهية :

(وطاعة مَن إليه الامرُ فالزم وإن كانوا بُغاةً فاجرينا)

(وإن كفرُوا ككُفر بني عُبَيْدٍ فلا تسكن ديارَ الكافرينَا)

وقد أراد ببني عُبيْدٍ : العبيديين وهم الفاطميون ملوك مصر ، يقول : هاجرْ من بلادهم ، ولا تمرق من طاعتهم ، بحجة أنهم كافرون ، لكن كلّ هذا منظور فيه الى الحالة الاجتماعية في القرون الوسطى وقت أن كان يعسُرُ على الامم توحيد كلمتهم وتنظيم حملتهم ضدّ أمرائهم الجائرين . وذلك لما كان ينقصهم من تعميم التربية والتعليم بينهم . وتنظيم قوّات الدفاع والمقاومة ، وتوفير أسباب المواصلات والمناقلات ، ونشر الافكار والاخبار ، وتكوين رأي عامّ فعال . أما في هذه الأزمنة المتأخرة فالعلم عمّ الكافة حتى أنّ المرشّح للامارة وأعوانه لا بد أن يكون بأيديهم شهادات مدرسية تثبت كفايتهم وحسن أخلاقهم . والكهربائية والبخار تكفلا بنقل الأخبار وجمع أبناء الامة في صعيدٍ واحدٍ في زمنٍ واحد للاستشارة والمؤامرة . وقواتُ الدفاع والصّولة من مالٍ وجند وأدوات حرب ووسائط نقل وتموين ـ أُفرِغت كلها في قالب من النظام مُحكم الصنع والتدوير بحيث تدار كما تدار آلات الساعة . ووراءَ هذا كله محافل الخطابة والصحافة التي تمحّص الحقائق ، وتوحد الكلمة ، وتجمع ما تفرق من الآراء . فلم يبق عذرٌ لأبناء الامم اليوم فى السكوت إذا رأوْا من حكامهم جوراً أو أثرة . وإنما عليهم

أن ينتفعوا بمجموع مالديهم من الوسائل والقوى التي وهبتهم إياها العناية الالهية فيستخدموها في مقاومة الظالم، وكفّ أذاه عنهم، وما كان لهم أن يهجُروا أوطانهم، ويدَعوها للظالمين، اللّهم الا بنيّة العود اليهم، والكرة عليهم. ولنعد الى ما كنا بصَدَده فنقول:

إنّ الإسلام وإن أمَرَ باطاعة ذوي الأَمْرَةِ كما في الحديث السابق لكنّه من جهةٍ ثانيةٍ أمر بلزوم النُّصح لهم وإعلامهم أن طاعتهم إنما تجب على الامة فيما كان حقاً وعدلا. وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك:

﴿ السَّمْعُ والطَّاعَةُ حَقٌّ على المرْءِ فيما أَحَبَّ أو كَرِهَ مالمْ يُؤْمَرَ بمَعْصيةٍ فإذا أُمِرَ بمَعْصيةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعَةَ ﴾

وقد أوضحنا أنّ السمع والطاعة للظُّلَّام من الحُكّام كان أمراً لازماً في القرون الخوالى خشية التعرّض لصولتهم وبطشهم. أما اليوم فإن الحكومات المتمدّنة ورؤساءها فسحوا مجالاً أمام أبناءِ الامّة. وسهّلوا عليهم طُرُق انتقاد العُمّال الظالمين أو الخائنين. وأعظمُ تلك الطرق (مجالس النوّاب) و(صحف الأخبار) فهما الكفيلان بالتنقيب عن أولئك العمّال الظالمين وهتك أسرارهم والكشف عن عِوارهم[١]. وجاء في الحديث الآخر قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ إنَّما الطاعَةُ في المَعْرُوفِ ﴾

أي إنَّ الطاعة للحُكّام أنما تكون فيما هو حقٌّ مأنوس بين الناس. لافيما كان باطلا مستنكراً غريباً عن شرائعهم وتقاليدهم ومواضعات اجتماعهم

واعلم أنّ هذا الفصل من كتابنا معقود للحضّ على الطاعة لوُلاة الامور من حيث أنّ ذلك واجب مدنيٌّ على كل واحدٍ من أبناء الامة. وكذلك ماسنذكره من أحاديث الحضّ على النصح: فانما نعنى النصح لوُلاة الامور

---

(١) العوار مثلثة العين بمعنى العيب والنقص

خاصة . أما الطاعة والنصح لغيرهم من الوالدين والاساتذة والإخوان والخلطاء فانما هو واجب شخصيٌّ أو اجتماعي يفهم استحبابه من مجموع فصول الكتاب السابقة التى شرحنا فيها مايجبُ على الشخص من التأدب بآداب الشريعة ، والتخلُّق بمكارم الأخلاق . وقد ورَدَ تخصيص الاخوان بالذكر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

(إذا استَنْصَحَ أحدُكم أخاهُ فَلْيَنْصَحْهُ)

(إذا وجدَ أحدُكم لأخيه نصْحاً في نفْسِهِ فَلْيَذْكُرْهُ له)

(إنّ أحدَكم مِرآةُ أخيه : فإذا رأى به أذى فليُمِطْهُ عنه)

(أذى) أى عيباً أو نقصاً فليُزِلْه عنه بالنصيحة والإرشاد والدّلالة عليه كما تدُلهُ المِرآةُ على عيوبه الظاهرة

ثم إنّ قولنا : النصحُ لوُلاة الامور واجب ـ معناه أن نَنْصح لهم اذا بدرت منهم بادرةُ سوء أو شرّ أوضرّ بالأُمة . ويحتمل أن يكون معناه أن ننصح في العمل[1] الذي يعهدون الينا به : فلا نَظْلِمْ فيه ولا نغشّ ولا نسيء الاستعمال . وكل ماورد من الأحاديث الشريفة في الحضّ على النصح لولاة الامور يحتمل المعنيين المذكورين ، وكلاهما من أكبر الواجبات المدنيَّة ، وأعظم الفضائل الاجتماعية : مثالُ ذلك انه صلى الله عليه وآله وسلم عدّد اموراً يرضاها للامة واموراً يكرهها لها ، فمن الامور التى يرضاها لها مانبّه اليه بقوله :

(وأن تُناصِحوا مَنْ ولاّهُ الله أمرَكم)

أي أن تُمحضوا النصح له فيما اذا زاغ عن طريق الحقّ . أو أن تخلصوا في العَمَلِ الذي وكَلَ أمرَ القيام به اليكم : فلا تخونوا أو تسيئوا فيه . ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) المراد بالعمل مانسميه اليوم الوظيفة والمأمورية

﴿ السُّلْطانُ ظِلُّ اللهِ في الأرْضِ : فمنْ غشّهُ ضَلّ ، ومَنْ نَصَحَهُ اهتدى ﴾ .

نكرّر القولَ بأنّ المراد بالسُّلطان في النُّصوص الدينية صاحب السلطة والحكم . فيدخل فيه مايسمونه اليوم رجال الشرطة والدّرك . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الدِّينُ النّصيحة لله ولِرَسولهِ ولأئمّةِ المسلمينَ وعامتهم ﴾

والمراد من النصيحة لله ولرسوله العملُ بأوامرهما . و (أئمة المسلمين) هم أمراؤهم وملوكهم . (وعامتهم) سوادُهم وجمهورهم . فالتزامُ الحقِّ مع هؤلاء والإخلاص لهم كلهم هو الدّين أي من أكبر أركان الدين . لكنه جعله نفس الدِّين زيادة في الحضّ والترغيب ، وقد قال عمر رضي الله عنه « لاخير فيكم مالم تقولوا ولا خير فيّ مالم أسمع » دلّ هذا القول من عمر بأشد اختصار على أكبر قاعدة في الواجبات المدنيّة تجمع بين الحاكم والمحكوم : فهو يقولُ إنه لايكون فينا معشرَ الأُمة خير مالم تكن فينا جراءة على مُصارحة الخليفة نفسه بالحق ، وتكليفه التمسك به اذا رأيناه زاغ عنه . كما لايكون هو نفسه فيه خير إذا عصانا ولم يُذعن للذي أرشدناه اليه ، ودللناه عليه . وهذا نهاية في حرّية عمر وإنصافه من نفسه وإرشاده لوُلاة الأمور من بعده .

فالواجب اذاً أن يكون في الامة طائفة تراقب المصالح العامّة . وترشد الحكام الى الحقّ فيها إذا زاغوا عنها ، أو قصّروا في المحافظة عليها ، عملا بقول عمر (رضى الله عنه) وبقوله تعالى :

﴿ ولْتَكنْ مِنْكمْ أُمةٌ يَدْعونَ الى الخيْرِ ويأمُرون بالمَعْرُوفِ وينْهَوْنَ عن المُنْكَر ﴾

ولم يَدَعْ الإِسلامُ هؤلاء الدعاةَ الى الخير الآمرين بالمعروف النّاهين عن

المنكر – من النصح لهم بالرّفق والاعتدال واستعمال الحكمة عند القيام بوظيفتهم. مذ قال تعالى :

﴿ أدعُ الى سبيل ربّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظةِ الحسَنةِ ﴾

والمراد من (سبيل الربِّ) هنا الحقُّ والخير وكل ما يُرضيه تعالى . ومما نبّه اليه الشارع وحذّر منه في شأن نصيحة الُحكام ورفع الصوت في نقد أعمالهم والكشف عن مساويهم – أن يكون الغرَضُ منه إرشادهم ، وتقويم اعوجاجهم وحملهم على الحقّ ، وخدمة المصالح العامة . لا أن يكون الغرض مجرَّد التشفّي والانتقام والتشهير . ولا جرُّ المغنم ، واحتجان المناصب والرواتب[١] . والآية في ذلك قوله تعالى :

﴿ ومِنهم مَن يَلمِزُكَ في الصَّدَقات : فإن أُعْطوا منها رَضُوا وإنْ لم يُعْطَوْا منها اذا هم يسخطون ﴾

هؤلاء قوم كانوا يَعيبونه صلى الله عليه وآله وسلم في توزيع أموال الصّدقات بين المحتاجين اليها . وليس ثمة عيب في الحقيقة ، وإنما العائبون لم يُعْطَوْا من تلك الأموال إما لنفاقهم أو لعَدَم احتياجهم : فلو أُعْطُوا لما عابوا ولَمَا سخِطوا . وفي معنى هذه الآية الحديثُ الشريفُ وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ثلاثة لا ينظرُ الله اليهم يوْمَ القيامة (وعدَّ صلى الله عليه وسلم منهم : رجلا يُبايعُ إماماً . لا يُبايعُه الا لِدُنيا : فإنْ أعطاهُ منها رَضِيَ . وإن لم يُعطه منها سَخِط ﴾

هذا الرجل ما بايع وليَّ الأمر ثم انتظر المالَ منه كأولئك اللاّمزين المذكورين في الآية السابقة . وإنما هو اشترط على ولي الأمر قبلَ الدُّخول في البيْعة له أن يُعطيَه مالاً أو منصباً فيعترفَ به اذ ذاك . ويُنافحَ عنه . والاّ فانه يكون حرباً له إلْباً عليه . ومثلُ هذا جديرٌ أن لا ينظر الله اليه . كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المذكور

---

(١) احتجانها نيلها والتوصل اليها والاستئثار بها

الحرب والدفاع

اذا كانت منزلة الوطن في نفوس أبناء الأمم المتمدنة ماذكرنا في الفصل السابق وكان حبُّه والتّباهي به من أسمى الفضائل ، وأكبر الواجبات فهل يكون من أثر ذلك الحبّ أن يُترك الوطن وشأنه ، وتهمل أسباب وقايته والدّفاع عنه فتتخطّفه الاعداء من كل مكان ، ويزول اسمه ورسمه من مُصوَّر البلدان ؟ .

اذا كان حبُّ الوطن فضيلة اجتماعية في الغرب ، فينبغي أن يكون فضيلة كذلك في الشرق . واذا كان الدفاع عنه واجباً مدنياً في الشّمال ، فيجدُرُ أن يكون واجباً مدنياً في الجنوب . لأن الفضائل والواجبات وسائر ضروب مكارم الأخلاق لا وطن لها . وإنما وطنها حيث يوجدُ الانسان ، وينشأ العمران .

هذا الواجبُ المدنيُّ : (الحربُ والدفاع) أتت به كلَّ الشرائع ، وخضعتْ لناموسه جميع شعوب الأرض منذُ وجدت الخليقة الى اليوم وإلى ما شاء الله .

ويقولُ بعض الاخلاقيين من علماء الاجتماع : إنّ الحرب آفة الانسانية ، وإنها أثر من آثار انحطاط البشر في الاخلاق ، وانهم سوف يرتقون و يصلون الى دَوْرٍ من عمرانهم يستغنون فيه عن الحرب والدفاع كما يستغنون عن الحكومات نفسها . ولكن متى يصلون الى هذا الدّور ؟ ومعظمُ رجال السياسة اليوم مازالوا يرون وجوب العمل بما قاله أحد سلاطين الشرق وهو السلطان سليم ياوز (العثماني)

« اذا أردتَ الصُّلح والصَّلاح ، فكن مستعداً على الدوام للكفاح »

وقال بعض كتّاب أوروبا وهو (بول دومر) الفرنسوي : إذا سلمنا بأنّ الحرب ضربة هائلة على البشرية يجب أن نسلم أيضاً بأنّ هناك ضَرَبات أشدّ هولا منها . ومن ْ ينكر أن الحرب هي مئة مرّة أفضلُ من خسارة الاستقلال وفقدان الشرف الوطني ؟ اه »

الاسلام في دَوْرِهِ [1] عَلَّم بوجوب الحرب والدّفاع وعَدّه من أسمى الفضائل كما عَدَّته كذلك سائر الامم المتمدّنة . وقد حضّ على الاستعداد لها ، والصبر على بلواها ، والاستبسال في خوض غمارها . وهو مع هذا يعلم ويرشد الى التروّي في أمرها ، قبل اصطلاء حرّها . كما يصرّح بأن الحرب عَمَل فظيع لا يصار اليه إلاّ عند الضرورة القصوى . قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح:

﴿لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العَدُوِّ ، واذا لَقِيتُمُوهُم فاصبروا﴾

فقوله (لا تتمنوا) يُشعر بأن الحربَ وان كانت فضيلة ـ ليست مما يُتمنّى بل مما يجتنب ما أمكن الاجتناب . حتى اذا اضطُرّت الامة اليها ، تدَرَّعت بفضيلة الصبر عليها . وهذا كالعملية الجراحيّة فى الجَسَد : نَستعيذ الى الله منها. لكن اذا قضت الضرورة بها لسلامة الانسان كان واجباً صحياً ، وكان الصبر عليها فضيلة انسانية بلا خلاف

وعلماء الاسلام يُذيعون هذا التعليم بين المسلمين ويقرّرونه فى دروسهم . وقبلَ ان أقرأ الخبرَ الآتي في «العهد القديم» سمعتُه من بعض شيوخنا الصالحين يقرّره فى درسٍ وعظهِ على ملإ من المستمعين ، وهو أن النبي داود لما استأذن ربه فى بناء هيكل أورشليم لم يأذن له فى ذلك وانما أذن لابنه سليمان : لان سليمان لم يلوِّث يده بدم الحروب ، أما داود فقد لوثها . فقال داود : ولكني حاربت بأمرك يارب . قال : بلى ، ولكنهم عبادي . فكأن الوحي الالهي انما أمرَ بالحروب تخويفاً للبشر يحملهم بذلك على الحقّ والعدل وترك الشر والعدوان

قلنا إنّ الإسلام يعلّم بأن الحرب ضرورة ، ومن قواعد الشريعة الكبرى

---

(١) هذا التعبير افرنجي وقد جرى عليه كتاب العرب والفته الاسماع فلا بأس من قبوله وتقليدهم فيه وان كان يمكن الاستغناء عنه في العربية بكلمة (في نوبته) مثلا كما يستعملها بعضهم

أنَّ الضرورة تُقَدَّرُ بقدرها . وقد طبَّقَ الشارعُ هذه القاعدة على الحرب نفسها فنهى عن تمنّيها كما سمعت . ثم حَصَرَها في دائرةٍ ضيّقة من الشرائط والقيود : فهو لا يأذن أن تقع فيها خيانة ولا غدر . ولا أن تُقتَل امرأة ولا طفل ولا هَرِم ولا عاجز ولا مَنْ كان معتزلا للحرب : كالنُسَّاك والعُبّاد والرهبان ، ولا أن يُقتل أسير ، ولا يجْهَز على جريح ، ولا تُقطع أشجار ، ولا تُفسد زروع ، ولا تخرب دور ، ولا تُسمّم مياه . الى غير ذلك من الآداب والوصايا التي فاضت بها كتب السُنَّةِ الإسلامية . وقد أقرَّ المنصفون من كتّاب أوروبا بأن الإسلام حَضَّ على هذه الآداب ، فقال الاستاذ (ريفيه) في بعض تآليفه « إن الاسپانيين أخذوا عن العرب مدنية الحرب وتعلموا منهم الرِّفق في القتال وقت أن كانت قوانين العرَب في الحروب أكثرَ مدنية من قوانين الاوربين »

ومما ينبغي التنبيه اليه أنَّ الإسلام في كثير من نصوصه التي يحضُّ فيها على الحرب يسميها باسم (الجهاد) . والجهادُ والمجاهدة والاجتهاد كلها مشتقة من (الجهد) الذي معناه بذل الوُسع في ممارسة الشيء أيٍّ شيء كان . غير أن كلمة (الجهاد) غلبت في لسان الشرع على بذل الوُسع في ممارسة الحرْب ، والصبر على أهوالها . وكأن الغرض من إيثار الشرع لكلمة (الجهاد) هو أن يتجنب اسم (الحرب) الصريح الكريه والعدول عنه الى ما هو أخفُّ وقعاً منه وهو كلمة (الجهاد) ولكن انقلب الوضعُ اليوم وصرنا نسمع الاوربيين يتشاءمون جدَّ التشاؤم من هذه الكلمة ، وكأنهم يفهمون منها أن يقوم المسلمون فيقتلوا كلَّ من خالفهم في الدين من دون قيدٍ ولا شرطٍ ولا رحمة ولا شفقة . وهذا المعنى ليس هو معناها في الواقع ونفس الأمر : لا بحسب اللُغة العربية كما سمعت ، ولا بحسب روح الدِّيانة المطهرة الاسلامية ، لأن الجهاد الذي تأمر به الشريعة ليس

سوى حرب مدنية محضة ضيقة الدائرة جداً لا يُتجاوزُ فيها قدرُ الضرورة وحدودُ العدل ـ كما ذكرناه آنفاً ـ وكما شهد به الاستاذ (ريڤيه)

واذا قال القرآن مثلا :

﴿ وفضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعِدينَ أجْراً عظيما ﴾

﴿ يُجاهِدُون في سبيل الله ولا يخافون لَوْمَةَ لائم ﴾

واذا قال صلى الله عليه وآله وسلم مثلا :

﴿ مَنْ لَقيَ اللهَ بغيرِ أثرٍ من جِهادٍ لقى الله وفيهِ ثلمةٌ ﴾

﴿ أقربُ العمل الى اللهِ الجهادُ في سبيل اللهِ ﴾

وأمثالُ ذلك من النصوص الدينية ـ لم يُرد الشارع بكلمة (الجهاد) فيها الا ما تريده الأمم المتمدّنة في قوانينها وبلاغاتها وعلى ألسنة كتّابها وشعرائها من وجوب الثبات في الحرب ، والدفاع عن الوطن ، بكلّ ما في بدن الوطني من قوةٍ وجلادة ، وبكلّ ما في نفسه من حميّةٍ وحماسة ضمن الدائرة الضيّقة التي رسمها فنُّ حقوق الدُّول ، وهو يلتحم مع ما رسمتْه الشريعة الغرّاء من هذا القبيل

والذي جعلَ أوروبا تتشاءم من كلمة (الجهاد) الى هذا الحدّ حدوثُ حروبٍ في التاريخ الإسلامي كان بعض المسلمين لا يقفون عند حدود الشريعة المطهرة ولا ضمن دائرة العدل والرحمة التي رسمتها لهم . بل كانوا يتجاوزونها أحياناً الى أعمال قاسية يتبرأُ منها الإسلام ، وقد نهى عنها الشارع عليه الصلاة والسلام

ومهما كان من معنى كلمة (الجهاد) فإن المسلمين اليوم يرون وجوب العمل بقوانين الحرب المتّفق عليها بين الأمم المتمدنة ما دامت موافقة في روحها

واعتدالها لما قرّره الإسلام وحضّ عليه الشارع : فمما اتفقا عليه مطالبة المحارب المدافع عن وطنه بالصبر والاجتهاد فى نيل النصر . ومن الآيات فى ذلك قوله تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ يُحب الذين يقاتلونَ في سبيلهِ صفًّا كأنَّهم بُنيانٌ مَرْصُوصٌ ﴾

﴿ ياأيُّها الذينَ آمنوا اصْبروا وصابرُوا ورابِطوا [1] واتقوا الله لعلكم تُفْلِحُون ﴾

﴿ وأَنفِقُوا في سبيلِ اللهِ ولا تُلْقوا بأيْدِيكم الى التَّهْلُكةِ وأحْسِنُوا إن الله يحبُّ المحسنين ﴾

قوله (ولا تلقوا الخ) أي لا تبخلوا بالمال وتدَعوا إنفاقه في إعداد ما يلزم للدّفاع لأَن المال كما يقولون عَصَب الحرب ، ومَنْ خاضَ غمارها واصطلى نارها قبل أن يُعِدَّ ما يلزم لها كانت عاقبته الفشَل ، ومصير جنده الى التّهلكة ، كما صرَّحتْ به الآية ، وكما قال نابليون وقد سُئل عما يلزم من الوسائل للفوز فى الحرب فقال : المال ، ثم المال ، ثم المال

أما الأَحاديثُ فى هذا المعنى فمنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الجنّةُ تحتَ ظِلالِ السيوفِ ﴾

﴿ السُّيوفُ مَفاتيحُ الجنَّة ﴾

والمعنى فى الحديثين أنَّ السعادة إنما تنتظر للمحاربين من طريق الصبر والثبات فى الدفاع

﴿ رِباطُ [1] شَهرٍ ، خيرٌ مِنْ صِيام دَهْرٍ ﴾

---

(١) المرابطة والرباط الاقامة في وجه العدو على الثغور وفي جبهات الحرب

﴿ عَيْنَان لا تمسُّهما النارُ أبداً : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله ، وعَيْنٌ باتَتْ تحرُسُ فى سبيل اللهِ ﴾

﴿ كلُّ ميْتٍ يُخْتَمُ على عملِهِ الاّ اذا ماتَ مُرابِطاً فى سبيل الله فإنّه ينمُو له عَمَلهُ الى يوم القيامة ﴾

يعني أنَّ كلَّ عملِ برٍّ وخيرٍ يأتي به الانسان ينقطعُ بعد موته الا مرابطته في الحدود : فإن ثوابها في استمرارٍ ونموٍّ كما اذا كان صاحبها حياً الى يوم القيامة .

ومما يُطالب به الوطنيُّ المحاربُ التدرُّب على أعمال الحرب ، والتمرن على استعمال أدواتها المختلفة . وفي الحضِّ على ذلك ورد قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ عَلِّموا بَنيكم الرَّمْيَ : فإنّه نِكايةُ العَدُوِّ ﴾

﴿ أحَبُّ اللّهْوِ الى الله إجراء الخيلِ والرَّمْيُ ﴾

يعني أنه تعالى لا يحبُّ أن يُضيع الانسان وقتاً من عُمُره فى اللَّهْوِ والبِطالة واللّعب ، اللهمَّ إلاَّ لعباً يكون من ورائهِ تمرُّنٌ وتدرُّب على الحرب : كإجراء الخيل تعلماً للفروسيه . وكالرَّمي أي رمي النِّبال : وهو التمرن على إصابة الهَدَف . وخصَّ هذا النوعَ من فنون الحرب بالذِّكر لأنَّ عليه العُمدة فى حروب ذلك الزَّمن حتى ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم فسَّر القوة فى قوله تعالى :

﴿ وأعِدُّوا لهم ما ٱستطعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

بقوله ﴿ ألا إنَّ القوَّةَ الرَّمْيُ ، ألا انَّ القوَّةَ الرَّمي ، ألا انَّ القوَّةَ الرَّمي ﴾

أما وقد قام مقام الرَّمي بالنبال اليومَ الرمي بالرَّصاص والقذائف المختلفة فقد أصبح التمرن عليها والمهارة في استعمالها هو الواجب . وكذلك إجراء الخيل

فإنه فى وقتهم كان من أكبر وسائل الدفاع ، والظفر على العدوّ . ولذلك أكثر الشارع من الحضّ على تربية الخيل . والعناية بها ، وحسن القيام عليها . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ما مِنْ رَجُلٍ ينتقي لِفَرَسِهِ شعيراً ثم يَعْلِفهُ عليه إلا كتبَ اللهُ لهُ بكلِّ حبةٍ حسنةً ﴾

﴿ الخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة : الأجرُ والمغنم . وان المُنْفِقَ عليها كالباسِطِ يدَه فى الصدقةِ ﴾

أما اليوم فقد شارك الخيلَ فى وجوب العناية والاهتمام ما اخترعه الغربيون من وسائط الركوب والنقْل والطيران فى البرّ والبحر والهواء ، وهي كثيرة قد يتّفق للمرء أن يطلّ من نافذة بيته صباحاً فيعد منها بضع عشرة مختلفة الاشكال والأجناس والاغراض ، وكلها من القوّة المأمور بها شرعاً فى التوصل الى الغلبةِ والظفر ، وإن الحرب الأخيرة قد أثبتتْ ذلك بما لم يبق معه ريب لمرتاب

ومما يُنتفع به فى الحروب ونيْل الظفر فيها (الخدعة) والإيهام . بشرط أن لا يشوب ذلك شائبة غدْر أو خيانة . وقد قال ﷺ لحذيفة بن اليمان لما اشتد الحصار على المسلمين يوم الخندق وكثر الخوف والذعر :

﴿ خَذِّلْ عنّا فانّ الحربَ خُدَعة ﴾

و(التخذيل) وقريب منه (التثبيط) هو أن يقول للمحارب قولا يكون من أثره الخذلان فى نفوسهم ، والوهن في عزائمهم ، فينكصون عن القتال . وهذا ضربٌ من ضروب الدّعاية التى يسمونها (بروباغنده) وعليها يتوقف نجاح كل عمل في هذه الايام تقريباً

وورد أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها . أي انه كان يخفي عن الناس جهة قصده في الحرب خشيةَ العيون والجواسيس . فكان يُوَرِّي أي يتكلم كلاماً يُوهم به غيرَ ما يُريد . ومنه (التوْرية) في علم البديع . فانظر مقدار تنزهه صلى الله عليه وآله وسلم عن الكذب حتى في مثل هذا الموطن

أما الرواتب والتعيينات التى يأخذها الضباطُ والجنود المحاربون فانهم أحقُّ بها وأهلها . ومع هذا فان الشارع غَبَطهم عليها . وقال عنها : إنها نعمة فوق نعمة . أو هي لذَّة مقرونة بلذةٍ أخرى . ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ مَثَلُ الذينَ يَغزُون ويأخذُون الجُعْلَ يَتقوَّونَ به على العدُوِّ كمثلِ أمِّ موسى : ترضع ولدَها ، وتأخذ أجرَها ﴾

يُريد صلى الله عليه وآله وسلم أن عمل المحاربين في الدفاع عن وطنهم له في نفوسهم لذة الشّعور بعمل الواجب . فاذا انضم الى ذلك طمأنينة نفوسهم ورضاها بما يُعْطَوْن من راتب وجائزة ، أو يقلدون من رتبةٍ أو وسام مثلا أصبح اغتباطهم إذ ذاك مزدوجاً ، ولذتهم مضاعفة . وتكون حالتهم قد أشبهت حالةَ أمِّ موسى الكليم التى كانت تَلَذُّ بارضاع فلذة كبدها ، وتلتذ في الوقت نفسه بأخذها أجرة إرضاعه من خزينة عدوهم (فرعون) وكما أن كثيراً من أعمال الشر يكون عقابه فيه ، كذلك أعمال الخير فان كثيراً منها ما يكون ثوابه فيه وهذا كالمدافع عن الوطن وكأمِّ موسى اللذين ذكرهما الحديث الشريف



تتمة

نذكر في هذه التتمة ـ أو الخاتمة ـ طائفةً من الأحاديث والآيات تتضمن ألواناً مختلفة من الأخلاق والواجبات . ونكتفي بسردها من دون تعليق عليها سوى كلماتٍ أو جمل قد يخفى معناها فنفسرها بموجز من القول . وينبغي للأساتذة أن يحملوا الطلاّب على استظهار هذه الايات والأحاديث تبركا بها وانتفاعاً بما وعته من ضروب الحكمة وأساليب البلاغة . لا سيّما الآيات القرآنية ، فانها إذا حفظها الطلاّب عن ظهر قلب ، وأُشرِبَتْها قلوبُهم كانت خير مادة لهم في المناجاة ، ونِعْمَ العونُ على الخُشوع في الصلاة

الآيات

﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعبُدُوا ربَّكم الذي خَلقَكُمْ والذينَ مِنْ قبلِكُمْ لَعلَّكم تتَّقُون . الَّذي جَعلَ لَكم الأَرْضَ فِراشاً ، والسَّماءَ بناءً ، وأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكم . فَلاَ تجعلوا لِلهِ أَنْدَاداً (١) وأَنْتُمْ تَعلمون ﴾ البقرة

* * *

﴿ إنَّ في خَلقِ السَّماواتِ والأَرْضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لاولي الألبابِ . الذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعلى جنُوبِهِمْ ويَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السّماواتِ والأَرْضِ . رَبَّنا ما خَلقتَ هـذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عذابَ النّار ﴾ آل عمران

* * *

---

(١) شركاء

إنَّ اللهَ فالِقُ (١) الحَبِّ والنَّوى : يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ ومُخْرِجُ الميِّتِ مِنَ الحيِّ . ذلِكُمُ اللهُ فأنَّى تُؤْفَكُونَ (٢) . فالِقُ الإصْباحِ وجَعَلَ الليلَ سَكَناً ، والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْباناً (٣) ذلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ . وهُوَ الذي جَعَلَ لكُمُ النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ . قَدْ فصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَعلَمُونَ . وهو الذي أنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، فمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ . قدْ فصَّلْنا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وهُوَ الذي أنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأَخْرَجْنا بهِ نَباتَ كلِّ شَيءٍ : فأخْرَجْنا منهُ خَضِراً ، نُخْرِجُ منهُ حَبًّا مُتَراكِباً . ومِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها (٤) قِنْوانٌ (٥) دانِيَةٌ (٦) . وجَنَّاتٍ مِنْ أعْنابٍ والزَّيْتونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وغيرَ مُتَشابِهٍ . انْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ اذا أثْمَرَ ويَنْعِهِ (٧) إنَّ في ذلكم لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾ الأنعام

* * *

ثُمَّ قَسَتْ قُلوبُكُم (٨) مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ، فَهِيَ كالحِجارَةِ أوْ أشَدُّ قَسْوَةً . وإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ منهُ الأنْهارُ . وإنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ . وإنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ . وما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلونَ ﴾ البقرة

* * *

﴿ وهُوَ الذي أنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ ، (٩) وغيرَ مَعْرُوشاتٍ ، والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ (١٠) والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وغيرَ مُتَشابِهٍ . كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ وآتوا حَقَّهُ (١١) يومَ حَصادِهِ . ولا تُسْرِفوا إنَّهُ لا يُحِبُّ

---

(١) شاق وفاطر (٢) اي تصرفون عن الاعتقاد بوحدانيته
(٣) اى تحسب بها اقسام الزمان وتضبط المواقيت (٤) اي ثمرها (٥) جمع قنو وهو عنقود النخل
(٦) اي قريبة التناول (٧) نضجه (٨) اي يابني اسرائيل بعد ان اريناكم الآيات وفرجنا عنكم الشدائد (٩) مرفوعات الاشجار عن الارض (١٠) مايؤكل منه (١١) زكاته للفقراء

المُسْرفين. ومِنَ الأنعام حَمُولةً (١) وفَرْشاً (٢) كلوا مما رزقكم الله، ولا تتَّبعوا خُطُواتِ الشيطان. إنهُ لكمْ عدوٌّ مبين ﴾ الأنعام

ليسَ البرَّ (٣) أنْ تولُّوا وجوهكم قِبَلَ المَشْرقِ والمغرب. ولكن البرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليوم الآخر والملائكةِ والكتاب والنبيين وآتى المال على حبِّهِ (٤) ذوي القُرْبى واليتامى والمساكينَ وابْنَ السبيل (٥)، والسائلينَ وفي الرِّقابِ (٦). وأقامَ الصلاةَ وآتى الزَّكاةَ. والموفونَ بعهْدِهمْ إذا عاهدُوا. والصابرينَ في البأساءِ والضرَّاءِ وحينَ البأس (٧). أُولئكَ الذينَ صَدَقوا. وأولئك همُ المتقون ﴾ البقرة

* * *

﴿ لا تحْسَبَنَّ الذينَ يَفْرَحُونَ بما أتَوْا (٨) ويُحبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا (٩) بما لمْ يَفْعلوا فلا تحسبنّهُم بمفازةٍ (١٠) مِنَ العذابِ ﴾ آل عمران

* * *

﴿ ليسَ بأمانيِّكمْ (١١) ولا أمانيِّ أهلِ الكتابِ: مَنْ يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ به ولا يَجدْ لهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولا نصيرا. ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصالحاتِ من ذكرٍ أوْ أُنثى وهو مؤمنٌ فأُولئكَ يدْخُلونَ الجنةَ ولا يُظْلَمُونَ نَقيراً (١٢) ﴾ النساء

* * *

﴿ قُلْ إنما حرَّمَ ربيَ الفَواحِشَ: ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ. والإثْمَ

---

(١) حاملة لأثقالكم (٢) تتخذون من جلودها وأوبارها بساطاً وفراشا
(٣) البر اسم جامع لأنواع الخير (٤) اي مع حبه له وحاجته اليه
(٥) المنقطع في الغربة ولا مال له سوى ما في بلده وقيل هو اللقيط
(٦) اي الأرقاء والأسرى لأنهم في حاجة الى المال لفك رقابهم من الاسر
(٧) اشتداد القتال (٨) فعلوا من اضلال الناس (٩) اي ينتظرون ان يحمدهم الناس من دون سبق حسنة او خير منهم (١٠) بمنجاة وخلاص (١١) اي ان السعادة والخلاص منوطان بالعمل الصالح لا بالأماني اى كان من اهل الاديان (١٢) يكنى بالنقير عن الشيء القليل

والبَغْيَ بغيرِ الحقِّ وأنْ تشرِكُوا باللهِ ما لم يُنزِّل به سُلْطاناً (١). وأن تقولوا على اللهِ ما لا تعلمُون ﴾ الأعراف

* * *

﴿ إنما يتذكَّرُ أُولو الألْبابِ : الذين يُوفُون بعهدِ اللهِ ولا ينقضُونَ الميثاقَ . والذينَ يَصِلونَ ما أمرَ اللهُ به أنْ يوصَلَ (٢) . ويَخْشَوْن رَبَّهُمْ . ويخافُون سُوءَ الحِساب . والذينَ صَبَرُوا ٱبتِغاءَ وجْهِ رَبِّهِمْ وأقاموا الصلاةَ . وأنْفقوا ممَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وعلانيةً ويدْرَؤُون بالحسنةِ السَّيِّئةَ (٣) . أُولئِكَ لهُمْ عُقْبى الدَّار ﴾ الرعد

* * *

﴿ أُولئِكَ يُؤْتون أجْرَهُمْ مرَّتيْن بما صَبَرُوا . ويدْرَؤُون بالحسنةِ السيِّئةَ ، ومما رزقْناهُمْ يُنفِقُون . وإذا سَمِعُوا اللغْوَ أعْرَضُوا عنهُ وقالوا : لنا أعْمالُنا ولكُمْ أعْمالُكم ، سلامٌ عليكم ، لا نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ القصص

* * *

﴿ وٱعبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بهِ شيْئاً . وبالوالِدَيْنِ إحْساناً . وبذي القُرْبى واليتامىٰ والمَساكينِ . والجارِ ذي القُرْبى (٤) والجارِ الجُنُبِ (٥) والصاحِبِ (٦) بالجَنْبِ وٱبْنِ السبيلِ . وما مَلَكَتْ أيْمانُكم . إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كان مُختالاً فَخُوراً . الذينَ يَبْخلونَ ويأمُرُون الناسَ بالبُخْلِ ، ويكتُمون (٧) ما

---

(١) حجة وبرهانا (٢) كل وصلة بين شخصين كصلة الرحم والمودة والعهد وغيرها

(٣) اي اذا اسيء اليهم قابلوا الاساءة بالاحسان (٤) هو الجار القريب في الدار او في النسب

(٥) الجار البعيد في الدار او في النسب (٦) الرفيق في السفر او في الصناعة والعمل فيكون بمعنى الرصيف (٧) اي يكتمون نعم الله عليهم وما آتاهم من مال تخلصاً من عمل الاحسان الى من سبق ذكرهم في الآية

آتاهُمُ اللهُ من فضلِهِ . وأعتدْنا للكافرِينَ عذاباً مُهيناً ﴾ النساء

***

﴿ وإذا جاءَكَ الذينَ يُؤْمِنون بآياتِنا فقُلْ سَلامٌ عليكم : كَتَبَ رَبُّكم على نفسِهِ الرَّحْمَةَ : أنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكم سوءًا بجهالةٍ ثُم تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأصلَحَ فإنَّهُ غَفُورٌ رحيم ﴾ الأنعام

***

﴿ قال : [١] رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري . ويَسِّرْ لي أمري . واحلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني [٢] يَفْقَهوا قولي . واجعل لي وزيراً مِنْ أهلي : هرُونَ أخي . اشْدُدْ [٣] بهِ أزْري وأشْرِكْهُ في أمْري كي نُسَبِّحكَ كثيراً ، ونذكُرَكَ كثيراً . إنَّكَ كُنْتَ بنا بَصيراً ﴾ طه

***

﴿ قالت [٤] : يا أيُّها الملأُ أفْتُوني في أمْري [٥] ما كُنتُ قاطِعَةً [٦] أمْراً حتى تَشْهدُون [٧] . قالوا نحنُ أُولو قوَّةٍ وأُولو بأسٍ شديدٍ . والأمرُ إليكِ : فانظُري ما ذا تأمُرين . قالتْ : إنَّ الملوكَ إذا دَخَلوا قَرْيَةً أفسدُوها ، وجعلوا أعِزَّةَ أهلِها أذِلَّةً وكذلكَ يفعلون ﴾ النمل

***

(١) اي موسى صلوات الله عليه (٢) كناية عن اطلاق لسانه في الحجة والدليل اثناء محاجة فرعون وملاه (٣) اي قو به ظهري (٤) اى ملكة سبأ (٥) اى اشيروا على (٦) اى عازمة ومنفذة (٧) تحضرون وتعطون الراي

قال[1] : رَبِّ إنِّي قَتلْتُ منهمْ نفساً فأخافُ أنْ يقتلُون . وأخي هرُونُ هو أفْصَحُ مِني لِساناً . فأرْسِلْهُ مِعيَ رِدْءاً[2] يُصَدِّقُني إنِّي أخافُ أنْ يُكَذِّبُون . قال : سَنَشُدُّ عضُدَكَ بأخيكَ ونجعلُ لكما سُلْطاناً[3] . فلا يَصِلون اليْكما ، بآياتنا[4] ، أنتما ومَن اتبعكما الغالبُون ﴾

القصص

* * *

﴿ أوَ لمْ يرَوْا أنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمَنْ يشاءُ ويَقْدِرُ[5] إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لقوم يؤْمنون . فآتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ[6] والمِسكينَ وابْنَ السَّبيلِ . ذلِكَ خيْرٌ لِلَّذين يُريدون وَجْهَ اللهِ وأُولئكَ همُ المفلِحون ﴾

الروم

* * *

﴿ إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأرْض واخْتِلافِ الَّيلِ والنهار والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع النَّاس . وما أنْزلَ اللهُ من السَّماءِ من ماءٍ فأحيى به الأرْضَ بعدَ مَوْتِها . وبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وتَصْريفِ الرِّياح[7] . والسحابِ المُسَخَّرِ بينَ السماء والأرْضِ ، لآياتٍ لِقَوْم يَعْقِلون ﴾

البقرة

* * *

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتِكُمْ بالمنِّ والأذى : كالذي يُنفِقُ مالَهُ رِئَاءَ النَّاس[8] . ولا يُؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخر : فمثَلُهُ كمثَل

---

(١) اى موسى عليه السلام (٢) عونا ونصيرا (٣) غلبة وفوزا (٤) الباء متعلق بمحذوف اي اذهبا بآياتنا . او المعنى انتم الغالبون بقوة الآيات التي نعطيكم اياها . (٥) معنى يبسط ويقدر يوسع ويضيق (٦) مايستحقه من البر والصلة (٧) تغييرها وتحويل مهابها (٨) مرائيا لهم

صفوانٍ (١) عليه ترابٌ فأصابهُ وابلٌ (٢) فتركهُ صلداً (٣) لا يقدرُون على شيءٍ مِما كسبُوا والله لا يهدِي القوم الكافرين. ومثلُ الذين يُنفقون أموالهُمُ ابتغاء مرضاةِ اللهِ وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنةٍ بربوةٍ (٤) أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌ (٥). والله بما تعملون بصيرٌ ﴾ البقرة

* * *

﴿ أيودُّ أحدُكم أن تكون له جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهارُ. له فيها من كلِّ الثمراتِ. وأصابهُ الكبرُ وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ (٦) فيهِ نارٌ فاحترقت. كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ البقرة

* * *

﴿ لِلفقراءِ الذين أُحصِرُوا (٧) في سبيل اللهِ لا يستطيعون ضرباً (٨) في الأرض يحسبهمُ الجاهلُ أغنياء من التعففِ. تعرفهُم بسيماهم (٩). لا يسألون النَّاسَ إلحافاً. (١٠) وما تنفقوا من خيرٍ فإن اللهَ بهِ عليمٌ ﴾

البقرة

---

(١) حجر أملس (٢) مطر كثير (٣) صلباً أملس لاشيء عليه (٤) جنة بربوة اي بستان في مكان مرتفع (٥) مطر خفيف : والآيات مثل للنفقات التي تقترن بها اخلاق اصحابها الحسنة فتزكيها وتنميها او اخلاقهم السيئة فتفسدها وتبطلها (٦) ريح شديدة . وهذه الآية مثال آخر للذى قرن نفقته باعمال سيئة ثم انتظر ثوابها في اشد اوقات الحاجة اليه فلم يجده ولم يجد للنفقة أثراً نافعا

(٧) أي انما الصدقات لامثال هؤلاء الذين كان سفرهم في مرضاة الله ثم عاقتهم العوائق عن الرجوع لاوطانهم والانتفاع بما لهم فيها من مال فاصبحوا في ضيق وحاجة (٨) أي سفراً و والا في الارض للكسب وطلب الرزق (٩) أى ان لهم علامة خاصة لاتخفى أمرها على الفطن

(١٠) أي الحاحا وتشديداً في السؤال

* * *

﴿ ليسُوا سواءً [١] من أهْل الكتاب أُمّةٌ قائمةٌ [٢] يتْلون آياتِ اللهِ آناءَ اللّيْل وهُمْ يَسْجدُون . يُؤْمِنُون بالله واليوم الآخرِ ويأمُرُون بالمعروفِ وينْهَوْنَ عن المنكَر ويُسارعون في الخيْراتِ . وأُولئِكَ من الصالحينَ . وما يَفعلوا مِن خَيْرٍ فلَنْ يُكفَرُوه [٣] . واللهُ عَليمٌ بالمتقينَ . ﴾
آل عمران

* * *

﴿ فاطرُ السمٰواتِ والأرض : جَعلَ لكم من أنفُسِكُمْ أزْواجاً . ومن الأنعامِ أزْواجاً يَذْرَؤُكم فيهِ [٤] . لَيْسَ كمِثْلِهِ شيءٌ وهو السَّميعُ البَصيرُ ﴾
الشورى

* * *

﴿ وقلْ [٥] آمنْتُ بما أنْزَلَ اللهُ من كتابٍ ، وأُمِرْتُ لاعْدلَ [٦] بينكم . اللهُ ربّنا وربُّكم . لنا أعْمالُنا ولكم أعْمالُكمْ [٧] لا حُجةَ [٨] بيننا وبينكم . اللهُ يجْمَعُ [٩] بَيْننا وإليهِ المصيرُ ﴾ الشورى

* * *

(والذِي خلقَ الأزْواجَ [١٠] كلّها . وجَعل لكمْ مِنَ الفلكِ والأنعام ما ترْكبوز لتَسْتوُوا على ظهورهِ ثم تذْكروا نِعْمةَ ربّكم إذا آستوَيْتم

---

(١) أي ان بين أهل الاديان السماوية من هذه صفاتهم وأخلاقهم فهم ليسوا على وتيرة واحدة في الشر والخبث (٢) أى مستقيمة الاطوار (٣) أى لن يعدموا ثوابه بل يجازون عليه خيرا

(٤) اى انه تعالى في هذا الجعل والتكوين ما بين ذكور واناث يذرؤكم اي يكثركم وينميكم بالتوالد والتناسل (٥) يا محمد لاهل الاديان السماوية من غير اهل ملتك (٦) اى احكم بالحق

(٧) فكل فريق منا يجازى بعمله (٨) اى لاخصومة

(٩) اى في المعاد للحساب وفصل القضاء (١٠) اى اصناف المخلوقات وانواعها

عَليْهِ وتقولوا سبْحانَ الذي سَخَّرَ لنا هـذا وما كُنَّا لَهُ مُقْرنين (١) . وإنَّا إلى رَبِّنا لمنقَلِبُون . ﴾ الزخرف

***

﴿ نحْنُ قسَمنا بَيْنهمْ معيشتَهمْ في الحياةِ الدُّنيا ورَفَعنا بَعْضَهُمْ فوقَ بعْضٍ دَرَجاتٍ ليتَّخِذَ بعْضُهمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً (٢) . ورَحْمَةُ رَبِّكَ خيْرٌ مِمَّا يجْمَعون ﴾ الزخرف

***

﴿ اللهُ الذي سخرَ لكم البَحْرَ لِتَجْرِي الفلكُ فيهِ بأمْرِهِ . ولِتَبْتغُوا منْ فَضْلِهِ ولعلَّكُمْ تَشْكرون . وسَخَّرَ لكم ما في السَّمٰواتِ وما في الأرْض جميعاً منه إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقوْمٍ يتفكَّرُون ﴾ الجاثية

***

﴿ ياأيُّها الناسُ إنّا خلقْناكم منْ ذكَرٍ وأنْثىٰ وجَعلْناكمْ شعُوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا (٣) : إن أكْرَمَكمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ الحجُرات

***

---

(١) اي مطيقين وقادرين على تسخير هذه الحيوانات في خدمتنا لو لم تسخرها لنا انت يارب

(٢) اى انما جعلنا بعض الناس غنيا وبعضهم فقيراً ليخدم بعضهم بعضاً ، ولو كانوا في درجة واحدة من سعة الرزق او ضيقه لبطلت الحركة وتوقفت الاشغال

(٣) اى جعلناكم امما مختلفة لتكون النتيجة ان تعرف امة امة فتتعاون الامتان على الصالح وخدمة بني الانسان ولم نجعلكم شعوبا وقبائل لتفاخروا بالانساب وتتقاعدوا عن معاونة بعضكم بعضا

﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم[1] منهم مودة والله قدير . والله غفور رحيم . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم : أن تبروهم وتقسطوا اليهم[2] . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا[3] على إخراجكم : أن تولوهم[4] ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ الممتحنة

* * *

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله : فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ الحجرات

* * *

الأحاديث

﴿ إن من أخلاق المؤمن : قوة في دين . وحزماً في لين . وإيماناً في يقين . وحرصاً في علم . وشفقة في مقة[5] . وحلماً في علم . وقصداً في غنى . وتجملاً في فاقة . وتحرجاً[6] عن طمع وكسباً في حلال . وبراً

---

(١) اى من المحاربين المخالفين لكم في الدين (٢) اى تعاملوهم بالعدل

(٣) أي عاونوا وساعدوا (٤) أي ينهاكم ان تتولوهم فتتخذوهم اولياء بعد ان فعلوا بكم ما فعلوا من المعارضة في الدين اى في نشره وتبليغه . ومحصل معنى الآية ان المخالف لنا في الدين اذا حال بيننا وبين حريتنا الدينية او اغتصب بلادنا او ساعد المغتصبين فيكون لنا الحق ان نكرهه ونقاومه اما اذا لم يفعل شيئا من ذلك فلا مانع يمنع من معاملته بالبر والعدل ومعاشرته بالحسنى وزيادة

(٥) المقة الحب اى انه اذا اشفق على ضعيف اقترن بشفقته الاحسان والنفع الذى هو من ثمرات الحب لا انه يشفق عليه من دون خير يوصله اليه (٦) اى تخوفاً وتجنبا لاثم الطمع

في استقامة . ونشاطاً في هدى . ونهياً عن شهوة . ورحمة للمجهود [١] .
وإن المؤمن من عباد الله لا يحيف على من يبغض . ولا يأثم في من يحب
ولا يضيع ما استودع . ولا يحسد . ولا يطعن . ولا يلعن . ويعترف
بالحق وإن لم يشهد عليه . ولا يتنابز [٢] بالالقاب . في الصلاة متخشعاً [٣]
الى الزكاة مسرعاً . في الزلازل [٤] وقوراً . في الرخاء شكوراً . قانعاً
بالذي له . لا يدعي ما ليس له . ولا يجمع [٥] في الغيظ . ولا يغلبه الشح
عن معروف يريده . يخالط الناس كي يعلم . ويناطقهم كي يفهم . وإن
ظلم وبغي عليه صبر حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له »

* * *

« تبسمك في وجه أخيك صدقة . وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر
وإرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة . وإماطتك الحجر والشوك
والعظم عن الطريق صدقة . وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة)

* * *

(تعوذوا بالله من ثلاث فواقر [٦] : جار سوء : إن رأى خيراً كتمه .
وإن رأى شراً أذاعه . وزوجة سوء : إن دخلت عليها لسنتك [٧] . وإن
غبت عنها خانتك [٨] ، وإمام سوء : إن أحسنت لم يقبل ، وإن أسأت
لم يغفر)

---

(١) المتعب فوق طاقته (٢) اي لايلقب غيره بألقاب سوء وسفه فيلقبونه بمثلها
(٣) كذا الرواية بالنصب وكذا « مسرعا » بعده فلعله على تقدير « يكون » او المعنى تراه في الصلاة متخشعا والى الزكاة مسرعا . (٤) اى فى الشدائد والاهوال (٥) اى انه اذا اغتاظ كفكف من غيظه وبوادر غضبه . ولا يصمم على الانتقام . واجماع الامر العزم عليه (٦) جمع فاقرة وهي الداهية التي تكسر فقار الظهر . (٧) ذكرتك بلسانها بسوء . ويقال لسنته العقرب اذا لدغته
(٨) اى انت من الاعمال مايضرك في مالك او يسوءك في سمعتك وكرامتك

(ثلاثٌ ليسَ لأحَدٍ مِنَ النّاسِ فيهنَّ رُخْصةٌ : بِرُّ الوالِدَيْن : مُسْلماً [١] كان أو كافراً . والوَفاء بالعهْدِ لمسلمٍ كان أو كافرٍ . وأداء الأمانةِ الى مسلْمٍ كانَ أوْ كافِرٍ)

* * *

(ألا أُعلّمُكَ خصَلاتٍ ينفعُكَ الله بهن ؟ عليكَ بالعِلْمِ فانَّ العِلْمَ خليلُ المؤْمن . والحِلْمَ [٢] وزيرُه . والعقْلَ دليلُه . والعَمَلَ قيِّمهُ [٣] والرِّفْقَ أبوه . واللّينَ أخوه . والصبْرَ أميرُ جنُودِه)

* * *

(قدْ أفْلَحَ مَنْ أخْلصَ قلبَهُ للإِيمان . وجعلَ قلبهُ سَليماً . ولِسانَهُ صادِقاً ونَفْسهُ مُطْمئِنّةً . وخليقتَهُ مستقيمةً . وأُذُنَه مُسْتمِعةً . وعَيْنَهُ ناظِرةً) .

* * *

(اللّهُمَّ اجْعَلْ سَريرَتي خيْراً مِنْ عَلانِيَتي ، واجْعَلْ عَلانِيَتي صالحةً . اللّهُمَّ إنّي أسألُكَ مِنْ صالحِ ما تُؤْتي النّاسَ من المالِ والأهل والوَلَدِ غير الضّالِّ ولا المُضِلّ)

* * *

(فُكّوا العاني [٤] ، وأجيبُوا الدّاعيَ [٥] ، وأطْعِمُوا الجائعَ ، وعُودُوا المريضَ)

* * *

(إنما مَثَلُ الجَليس الصّالح وجَليس السوءِ كحامِلِ المِسْك ونافِخ

---

(١) اى مسلماً كان احد الابوين او غير مسلم . والمعنى ان الاب يجب بره واكرامه على اى دين كان

(٢) المراد بالحلم هنا الصفح والعفو عند المقدرة (٣) اى ان عمل المؤمن وسعيه في هذه الحياة هو القيم عليه في تدبير امر معاشه . وهذا اسلوب جميل في تصوير فائدة العمل والسعي

(٤) العاني الاسير اى منوا عليه واطلقوه ولا تطيلوا استرقاقه فالرق في الاسلام منظور اليه كامر موقت

(٥) اى داع يدعوكم الى خير لكنه غلب في الداعي الى الصلاة والداعي الي الوليمة

الكير [١] : فحاملُ المسكِ إمّا أنْ يُحذِيَكَ [٢] وإمّا أنْ تبتاعَ منهُ . وإمّا أن تجدَ منهُ ريحاً طيبةً . ونافخُ الكيرِ إمّا أنْ يحرقَ ثيابَكَ وإمّا أنْ تجدَ منهُ ريحاً خبيثةً »

* * *

« اذا أرادَ اللهُ بقومٍ خيراً أكثرَ فقهاءَهم [٣] وأقلّ جهالَهم ، فاذا تكلّمَ الفقيهُ وجدَ أعواناً ، واذا تكلّمَ الجاهلُ قُهِرَ . واذا أرادَ اللهُ بقومٍ شرًّا أكثرَ جهالَهمْ وأقلَّ فقهاءَهم ، فاذا تكلّمَ الجاهلُ وجدَ أعواناً ، واذا تكلّمَ الفقيهُ قُهِرَ »

* * *

« آفةُ الظرْفِ [٤] الصلفُ [٥] . وآفةُ الشجاعةِ البغيُ . وآفةُ السماحةِ المنّ . وآفةُ الجمالِ الخيلاءُ . وآفةُ العبادةِ الفترةُ [٦] . وآفةُ الحديثِ الكذبُ . وآفةُ العلمِ النسيانُ . وآفةُ الحلمِ السفهُ . وآفةُ الحسبِ الفخرُ . وآفةُ الجودِ السرَفُ »

* * *

« اجتنبُوا السبعَ الموبقاتِ : الشّركَ باللهِ ، والسحرَ [٧] ، وقتلَ النفس

---

(١) الزق الذى ينفخ فيه الحداد . اما (الكور) بالواو فهو نفس الموقد المبني من الطين

(٢) احذاه اعطاه وفي الحديث « كان يحذى النساء والصبيان من المغنم » (٣) اى علماءهم المتفقهين باحكام الشريعة الواقفين على اسرارها ثم غلب اسم الفقيه على العالم بالفروع اى بمسائل العبادات والمعاملات (٤) الظرف بفتح الظاء وسكون الراء مصدر ظرف الرجل بضم الراء اذا كان كيسا عاقلا ذكي القلب (٥) ان يعجب المرء بنفسه ويتكبر ويدعى فوق ما هو فيه (٦) الفتور والكسل عن متابعة العبادة (٧) اى ممارسة الاعمال والاقوال التي كان يفعلها السحرة الاقدمون افساداً للناس واكلا لاموالهم بالباطل . وقد جاء الاسلام بهدم ذلك وابطاله حتى عد ممارسته من الكبائر الموبقة اى المهلكة

التي حَرَّمَ اللهُ الا بالحقِّ ، وأكل الرِّبا ، وأكلَ مالِ اليتيم ، والتَّوَلّي [١] يومَ الزَّحفِ ، وقَذْفَ المُحصَناتِ [٢] الغافِلاتِ ﴾

* * *

﴿خَمسٌ مِنْ قواصِمِ الظَّهرِ [٣] عُقوقُ الوالِدَيْن ، والمرأةُ يأتمنُها زوجُها فتَخونُهُ ، والإمامُ يُطيعهُ النّاسُ ويَعْصي الله ، ورَجُلٌ وعَدَ عن نَفْسِهِ خيراً فأخْلفَ ، واعتِراضُ المرْءِ في أنْسابِ النّاسِ ﴾

* * *

﴿ سبعٌ يَجْري للمرْءِ أجرُهنَّ وهو في قَبْرِه بعد مَوْتِه : من عَلَّمَ عِلماً ، أو أجْرَى نَهْراً ، أو حفرَ بِئْراً ، أو غَرَسَ نخلاً ، أو بَنى مَسْجِداً ، أو ورَّثَ مُصْحَفاً [٤] أو ترَكَ ولداً يَستَغْفِرُ له بَعْدَ مَوْتِه ﴾

* * *

﴿سِتّةُ أشياءَ تُحْبِطُ الأعْمالَ : الاشتغالُ بعيوبِ الخَلْقِ ، وقسْوَةُ القلب ، وحب الدنيا ، وقِلّةُ الحياء ، وطُولُ الأمَل ، وظالمٌ لا يَنْتَهي [٥] ﴾

* * *

العَدْلُ حَسَنٌ ، ولكنّهُ في الأُمَراءِ أحْسَنُ . السَّخاءُ حَسَنٌ ، ولكنّهُ في الأغنياءِ أحْسَنُ . الوَرَعُ حَسَنٌ ، ولكنّهُ في العُلماءِ أحسنُ . الصبْرُ

---

(١) اى الفرار والهزيمة فى موقف الدفاع عن الحق والحوزة (٢) هن النساء البريئات السليمات الصدر اللواتي لاعلم لهن بما اتهمن به من العيب (٣) اى من الكبائر التي تقصم الظهر اى تكسره . يقال قصم الله ظهر الظالم اذا انزل به البلية (٤) فيه حض على استكتاب المصاحف واقتنائها لتكثر ويبقى الوحي الالهي منتشراً بين الناس . ويحتمل ان يكون المراد بالمصحف كل كتاب علم وحكمة : فان اصل معنى المصحف الكتاب جمعت بين دفتيه الصحف والكراريس المكتوبة . فيكون في الحديث حض على اقتناء كتب العلم وتوريثها . (٥) اى عن غيه وظلمه لابنفسه ولا بوعظ االواعظين

حَسَنٌ ، ولكنه في الفقراءِ أحْسَنُ . التوْبَةُ حَسَنٌ ، ولكنَّهُ في الشَّبابِ[١] أحْسَنُ . الحياءُ حَسَنٌ ، ولكنَّهُ في النّساءِ أحْسَنُ ﴾

***

﴿ كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أعْبَدَ النّاس . وكُنْ قَنِعاً[٢] تكُنْ أشكرَ النّاسِ . وأحِبَّ للنّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تكُنْ مُؤْمِناً . وأحْسِنْ مُجاوَرةَ مَنْ جاوَرَكَ تكُنْ مُسْلِماً . وأقِلَّ الضَّحِكَ فانّ كثْرَةَ الضّحِكِ تُميتُ القلْبَ ﴾

***

﴿ ما مِنْ ذَنْبٍ أجْدَرُ أنْ يُعَجِّلَ اللهُ لصاحِبهِ العقُوبَةَ في الدنْيا معَ ما يَدَّخِرُهُ لهُ في الآخِرَةِ - مِنْ قطيعةِ الرّحِمِ والخِيانَةِ والكذِب ، وانّ أعْجَلَ الطّاعاتِ ثواباً صِلَةُ الرّحِمِ . حتى إنّ أهلَ البَيْتِ ليَكُونُوا فَجَرَةً فتَنْمُو أمْوالهمْ ويَكثرُ عدَدُهم إذا تَوَاصَلوا[٣] ﴾

***

﴿ من اقتَصَدَ أغْناهُ اللهُ . ومَنْ بذّرَ أفقَرَهُ الله . ومَن تَواضَعَ رَفعهُ اللهُ . ومَنْ تجبّرَ قَصَمَهُ الله ﴾

***

﴿مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِر فليُحْسِنْ الى جاره . ومَنْ كانَ

---

(١) اى في زمن الشباب او المراد بالشباب الشبان لان التوبة اذ ذاك تدل على تقوى التائب وتمكن مخافة الله من نفسه اما التوبة في الكبر والشيخوخة فهي اثر من آثار العجز لا من آثار التقوى ومخافة الله

(٢) اى قانعا بما قسم لك فان دلك مؤذن بالرضى والشكر لله على نعمته مهما كان حالها

(٣) اذ ان التواصل والتحاب يؤدي الى التعاون والتساند في تنظيم مصالح الدنيا فتنمو الثروة اذ ذاك بين من كان هذا شانهم من الاسر والعائلات ، وان كانوا مسرفين على انفسهم ومقصرين من جهة الطاعات الاخرى

يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخرِ فليُكْرِم ضَيْفَه . ومَنْ كانَ يؤُمِنُ باللهِ واليوم الآخر فليَقُلْ خيراً أو ليَسكُتْ ﴾

﴿ طُوبى لِمَنْ تواضَعَ في غيرِ مَنْقَصةٍ . وذَلّ في نفْسِهِ مِنْ غيرِ مَسْكنةٍ . وأنفقَ مِنْ مالٍ جَمَعه في غيرِ مَعْصيةٍ . وخالَطَ أهلَ الفقْهِ والحِكمَه . ورَحِمَ أهلَ الذِّلّةِ والمَسكنة ﴾

* * *

﴿ عليكَ بالإياسِ ، مِمّا في أيْدِي الناس . وإياكَ والطّمعَ فانّه الفقْرُ الحاضِرُ وإياكَ وما يُعتَذَرُ (١) منه ﴾

* * *

﴿ خيرُكُمْ مَنْ يُرْجى خَيْرُه ويُؤْمَنُ شرّه . وشرّكُمْ مَنْ لا يُرْجى خيْرُه ولا يؤْمَنُ شَرُّه ﴾

* * *

﴿ ليْسَ بحكيمٍ مَنْ لم يُعاشِرْ بالمعْروفِ مَنْ لا بُدّ لَهُ مِنْ معاشَرَتِهِ حتى يَجْعَلَ اللهُ لهُ مِنْ ذلِكَ مَخْرَجاً ﴾

* * *

﴿ ما مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فيهمْ بالمَعاصي هُمْ أعَزُّ وأكْثرُ مِمّنْ يَعْمَلُهُ ثمّ لم يُغَيِّرُوهُ (٢) الاّ عَمَّهُمْ اللهُ مِنْهُ بعقابٍ ﴾

* * *

﴿ مِنَ المُرُوءَةِ أنْ يُنْصِتَ الأخُ لأخيهِ إذا حَدّثهُ ومِنْ حُسْنِ المُماشاةِ

(١) اى احرص على ان لاتأتي عملا تحتاج فيه الى الاعتذار : فان في الاعتذار ذلا وفي الكف عن العمل الموجب للاعتذار عقلا ونبلا .

(٢) اى لم يغيروا العمل السوء الذى يعمله اولئك المنهمكون فى المعاصى . وانما عمهم العقاب لانهم اصبحوا بسكوتهم شركاء لهم في العمل ماداموا اعز نفرا واكثر عدداً من العاصين . ومفهومه ان الساكتين عن مقاومة المفسدين لايكونون ملومين اذا كانوا قليلين مغمورين .

أَنْ يَقِفَ الأَخُ لأخيهِ إذا انقطَعَ شِسْعُ [١] نَعْلِهِ ﴾

***

﴿ مَنْ شَهِدَ شهادَةً يُسْتَباحُ بها مالُ امرء أو يُسفَكُ بها دَمُهُ فقدْ أوجَبَ [٢] النار ﴾

***

﴿ مَنْ قُتِلَ دونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ ومَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فهُوَ شَهيدٌ . ومَنْ قُتِلَ دونَ دينهِ فهُوَ شَهيدٌ . ومَنْ قُتِلَ دُونَ أهلِهِ [٣] فهوَ شَهيد ﴾

***

﴿ كلُّ أُمّتي مُعافَى [٤] الا المُجاهرين : وانَّ من الإجْهار [٥] أنْ يعْمَلَ الرَّجُلُ بالّليل عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحُ وقَدْ سَتَرَهُ اللهُ تَعالى فيقول : عَمِلْتُ البارِحَةَ كذا وكذا وقدْ باتَ يَسْتُرُهُ ربُّهُ ويُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عنهُ ﴾

***

﴿ يَسِّرُوا ولا تعَسِّرُوا [٦] وبَشِّرُوا ولا تنَفِّروا ﴾

---

(١) اى شراكه وهي القدة من جلد تكون بين الاصابع فتمسك النعل ان يخرج من القدم . والمعنى اذا احتاج مماشيك ان يقف احيانا لامر ما كان من الادب ان تنتظره لاان تدعه وتمشى كما يفعل المتكبرون

(٢) اى استوجبها بما ارتكبه من هذا العمل الفظيع

(٣) اى دون الدفاع عن عرضه وكرامته فان في سقوط الكرامة موتا معنويا

(٤) اى معفى ومبرأ فلا يلحقه عتب ولا تبعة (٥) مصدر اجهر بمعنى جاهر (٦) الخطاب في يسروا وبشروا لرؤساء الدين المكلفين بنشره والدعوة اليه : فالشارع ينبههم الى مراعاة طباع البشر ومدارك عقولهم التي كثيرا ما تختلف باختلاف الزمان والمكان فيلقنونهم تعاليم الدين تلقينا يأتلف مع عقولهم وافهامهم والا فيوشك ان يترك الناس الدين جملة واحدة ويكون اثم ذلك على اولئك الذين عسروا ولم ييسروا ، ونفروا ولم يبشروا

خاتمة

انتهى والحمدُ لله ما قصدنا اليه من تأليف هذا الكتاب الذي سمّيناه (الاخلاق والواجبات) على النسق الذي رسمناه له من أوّل الأمر وقد كان الشروع فيه في أول شعبان من سنة (١٣٣٨) والفراغ منه في أوّل صفر من سنة (١٣٣٩) وما أودعناه إياه من الأحاديث الشريفة انما اعتمدنا فيه ما أورده الامام السيّوطي رحمه الله في كتابه (الجامع الصغير) ولم نُعْن بتخريج هذه الأحاديث ولا ببيان درجتها قوةً وضعفاً لأن مواقف كتابنا خطابية مراعى فيها التأثير في نفوس المخاطبين وقد يوجد فيهم من إذا سمع أن الحديث ضعيف مثلاً فترت همته عن العمل به . ولم يعد يكترث لموضوعه . على أن كتابنا هذا لم نؤلّفه في فنّ الحديث وانما ألّفناه في فن الأخلاق والفضائل وهذه يُتسامح فيها ويُستشهدُ لها بأي حديث كان اللهم الا الحديث الموضوع الذي خلا منه كتابنا هذا والحمد لله

وقد اجتهدنا أن نشرح هذه الأحاديث النبويّة والآيات القرآنية شرحاً يقرّب فهمها ويُسهل حكمها على أبناء هذا العصر . ولم نخالف فيما قلناهُ أصلاً تقرّر بين علمائنا رضي الله عنهم . نعم خالفناهم في بعض التراكيب الاصطلاحية وكثير من الاساليب الكتابية مما اختلف باختلاف الزمان . وتطوّر العمران وتبدل القرائح والاذهان . وعذْرنا في ذلك ما ذكره الامام أبو الحسن الماوردي في الاعتذار لنفسه أمام انتقادات أهل زمنه عن الطريقة التى سلكها في وضع كتابه (أدب الدنيا والدين) فقد قال رحمه الله ما نصّه :

« اعلم أنّ الآداب مع اختلافها بتنقّل الأحوال ، وتغير العادات ، »
« لا يمكن استيعابها ، ولا يُقدر على حصرها . وانما يذكر كلّ انسان »
« ما بلغه الوسع من آداب زمانه . واستُحسن بالعُرف من عادات دهره »

« ولو أمكن ذلك لكان الاوّل قد أغنى الثاني عنها . والمتقدم قد كفى المتأخر »
« تكلّفها . و إنما حظّ الأخير أن يتعاني حفظ الشارد . وجمع المفترق . ثم يعرض »
« ما تقدّم على حكم زمانه وعادات وقته . فيُثبت ما كان موافقاً ، و ينفي ما كان »
« مُخالفاً . ثم يستمدّ خاطره في استنباط زيادة ، واستخراج فائدة . فان أسعف »
« بشيء فاز بدركه ، وحظي بفضيلته . ثم يعبر عن ذلك كلّه بما كان مألوفاً من كلام »
« لوقت ، وعُرْف أهله : فانّ لأهل كلّ وقتٍ في الكلام عادةً تؤلف وعبارة »
« تُعرف . ليكون أوقع في النفوس ، وأسبق الى الأفهام . ثم يرتب ذلك على أوائله »
« ومقدماته ، و يثبته على أصوله وقواعده ، حسبما يقتضيه الجنس . فان لكلّ نوع »
« من العلوم طريقةً هي أوضح مسلكا وأسهل مأخذاً » اهـ كلام الشيخ الماوردي
معتذراً عن اتخاذه أسلوباً جديداً في بيان الاخلاق غير ما عرفه سلف الامة

وقد يخطر لبعض الأفاضل - لا سيما الأساتذة الذين سوف يقرأون هذا الكتاب لطلاّب المدارس - إمكان أن يقالَ في بعض المواطن أو في تفسير بعض النصوص غير ما قلنا . أو يورد للاستشهاد والتمثل من مأثور الحكم وأقوال السّلف فوق ما استشهدنا ومثلنا . فلا ننكر عليهم ما خطر لهم ، ولا نبرِّء أنفسنا من تبعة التقصير في كثير من المواطن . وقد يكون السبب في الاقتصار أحياناً أنّ وزارة المعارف التى اقترحت علينا تأليف هذا الكتاب وحددت لنا حجمه ومقدار صفحاته . حظرت علينا التوسُّع في البحث والنقل والاستشهاد بأكثر ممـا يُطيقه طُلاّب دُور المعلّمين والمعلّمات . وتتّسع له أوقاتهم وبرامجهم . ومع هذا فإن للاساتذة - اذا شاؤوا - أن يُوردوا لطلابهم ما يرونه مناسباً للموضوع . وملتحماً مع الغرض الذي عُقد له البحث فتكون الفائدة أتمّ ، والنفع أعم . هذا ونسأل الله تعالى أن يوفّقنا للعمل ، كما وفّقنا للقول . وأن يغفر لنا الزّلل ، بواسع الرحمة وعميم الطول . آمين

فهرست كتاب الأخلاق والواجبات

تابع فهرست كتاب الاخلاق والواجبات

فهرست الخطأ والصواب

﴿ في كتاب الأخلاق والواجبات ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	٢	عيينة	عيينة
١٨	٢	تتبع	تتبّع
١٨	٦	والمنافشة	والمناقشة
٢١	٢٢	أو أدينية	أو دينية
٢٤	١٤	هجر الحديث	هجر كتب الحديث
٣٠	٢٠	والهاجر	والمهاجر
٣٠	٢٢	بعد	يَعُدْ
٤٧	١١	مُعرص	مُعْرِض
٤٨	٢٢	ونليينه	تليينه
٥٠	٩	ج ل	جعل
٥٩	٥	يجب	يحبّ
٦٢	٧	المسذلة	المستذلة
٦٧	٥	انما يفتري الكذب الخ	يكتب تحت هذه الآية الآية الاخرى وهي قوله تعالى : «ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون»
٦٨	٨	لا تنفد	لا تنفد
٧٦	٩	هناك	وهناك
٧٨	٣	وإذ	واذا

﴿ بقية فهرست الخطأ والصواب ﴾

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨٤	٢١	صلُبت . . . . فيها	صلُبتا . . . . فيهما
٩٦	٢	تصحو	تصحّوا
١٠١	١٥	والأعمال يزاولها	والاعمال التى يزاولها
١٢١	١١	مال اليتيم	أكل مال اليتيم
١٢١	١٨	وتلاف	وتلافى
١٣٤	١٦	السكلة	السكلمة
١٣٦	٢٠	الثقيل	التقليل
١٣٩	١٢	معاملتهم	مَعَامِلِهم
١٥٢	١١	تـورف	تعورف
١٥٢	١٩	عظيم	عظيمة
١٦٣	١٥	الدينية والاجتماعية	الدينية والسياسية والاجتماعية
١٧٠	٧	إذاً ينقطع	إذاً لا ينقطع
١٧٢	٦	وتخاذلكم	تخاذلكم
١٩٢	٦	الرهبه	الرهبة منه
٢٠٤	١٦	لا يقفون	لا يقفون فيها
٢١٧	١٩	على الصالح	على العمل الصالح



البينات

لصاحب كتاب ﴿ الأخلاق والواجبات ﴾

مجموعة منتخبة من مقالاته التي نشرت في جريدة المؤيد وغيرها في الدين والاجتماع والأدب والتاريخ . جزءان ثمن الجزء ١٥ قرشاً

الاشتقاق والتعريب

كتاب ألفه الاستاذ العلامة مؤلف كتاب ﴿ الأخلاق والواجبات ﴾ وتناول فيه هذا الموضوع اللغوي المهم فوفاه حقه من البحث . يقع في ١٤٨ صفحة . وثمنه خمسة قروش

﴿ الكتابان يطلبان من المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة ﴾